

الكسندر بوشكين

مختارات نثرية

نسخة
منسقة

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com



فريق العمل يقسم تجميع مكتب مجانية



شكرا لمن قام بسحب الكتاب
و جزاه الله خيرا



منتدى مكتبة الإسكندرية

ALEXANDRIA.AHLAMONTADA.COM

مجلة
الابتسامة

الكسندر بوشكين

هفتارات نثرية



دار رادوفا،
موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان
وابو بكر يوسف

А. С. Пушкин
ИЗБРАННАЯ ПРОЗА
на арабском языке

© الترجمة الى اللغة العربية - دار «رادوغا» ، ١٩٨٤ ،
طبع في الاتحاد السوفيتي

П 4702010100-110
031(01)-84 251--84

مقدمة

كلمة عن بوشكين

ان بوشكين الذي قتل في ذروة تطور قواه الحياتية والابداعية ظل الى الابد العميد وراس الحكمة لكل تلامذته والمواصلين دربه ، الناهضين المبرزين بما عهد اليهم من الادب الرفيع ، ولا استثنى من ذلك ليف تولستوى نفسه - ولكل الذين فاقوه في العمر ، مهما تكن السنين التي فاقوه بها . ويظل على هذا الشكل ، بالطبع في يومنا هذا ، لكلنا جميعا ، بل واكثر ، لان بوشكين في ايامنا اكبر مما عرفه اسلافنا . لقد كتب ف . غ . بيلينسكى ان «بوشكين ينتمى الى تلك الظواهر الحية والمتحركة ابدا ، والتي لا تبقى في النقطة التي فارقت منها الحياة ، بل تستمر على التطور في وعى المجتمع» .

ان مؤسس الادب الرفيع ، وينبوعه الاول الذي ترسخت اهميته العالمية ولم تعد موضع اى شك الفنان الذي لا يحاول حتى الخصوم التقليل من عبقريته الابداعية هو الآن احب الشعراء في بلادنا المتعددة القوميات واكثرهم اجلالا وشعبية .

وتتمثل ظاهرة بوشكين ايضا في انه ما كان في مقدوره حتى ان يكتب بشكل سيى ، اذ حتى اشعاره المبكرة المقلدة مكتوبة على مستوى هو ، وفي الاغلب ، اعلى من مستوى تلك الادوات التي كانت الثقافة الشعرية الروسية تمتلكها في تلك الاوقات .

ليس من السهل كثيرا تعداد ذخر بوشكين الذهبى ، اذ ليس هو فقط «يفغينسى اونيفين» و«بوريس

غودونوف» و«الفارس النحاسي» ، ونفائس الشعر الغنائي في الحب والفلسفة ، والتراجيديات الصغيرة ، والحكايات ، و«ابنة الأمر» وغير ذلك من نثره ، بل والمقالات النقدية والنبذ عن الرحلات ، والشذرات التاريخية ، وأشياء لا عدّ لها دون ان تستثنى النماذج الرائعة في فن كتابة الرسائل .

عند التحدث عن بوشكين نشعر حتى بالحراجة من استخدام كلمة «استاذية» ، والالتيق بذلك «الساحرية» والكمال الذي يذهلنا في ابداعاته . رغم اننا نعرف جيدا كم كلف ذلك «عاشق الموزيات» هذا من جهد متفان لا يكل . وحين نقرا باستيغاب اكمل مبدعاته يصعب علينا عن حق ان نتصور انها مكتوبة ، اى انها مؤلفة من سطور وكلمات موجودة على حدة ، واردة الفنان وحدها جعلتها متجاذبة ومنظومة في سلك واحد . بل تبدو لنا هذه الاعمال وكأنها وُجِدَت بهذا الشكل في الحياة نفسها ، في الطبيعة ، واُخِذت من هناك كيانات كاملة .

ان روح بوشكين ، مثلما هي ملك للحاضر ، ملك للمستقبل ايضا ، مندفعة نحوه . لقد عاش في زمانه ، مع معاصريه ، ومحيطه ، ولكن كانا مع اجيال اخرى ، وهو يعيش مع جيلنا ، وسيميش مع الاجيال التي ستخلفنا . ومن الصعب تصوّر تراث بوشكين . انه ذروة جبلية غير منعزلة ، وان كانت مهيبه ، بل هي تؤلف سلسلة جبارة مع ذرى عديدة وفروع لا حصر لها .

الكسندر تفارذوفسكى

قصص المرحوم ايهان بيروفيتش بيلكين

السيدة بروستاكوفا : انه ، يا عزيزى ، صياد حكايات
مند نعومة اظفاره .

سكوتشين : يعجنى ميتروفان .
(من كوميديا فونفيزين «شاب نصف متعلم» .)

من الناشر

حين شرعنا فى السعى لنشر قصص ا . ب . بيلكين
التي نقدمها للجمهور اليوم اردنا ان نضم اليها ، على
الاقل ، نبذة قصيرة عن حياة المؤلف المرحوم ، فنرضى
بذلك جزءا من الفضول المشروع لمحبي الادب القومى .
ولهذا الغرض اتصلنا بماريا الكسييفنا ترافيلينا قريبة
ايفان بتروفيتش بيلكين قرابة دانية ، ووريثته ، الا
انها ، مع الاسف ، لم تستطع ان تمدنا باية اخبار عنه ،
لانه لم تكن متعرفة على المرحوم قط . ونصحتنا بان
نرفع هذا الامر الى رجل معتبر كان صديقا لايوان
بتروفيتش . واخذنا بهذه النصيحة ، وتلقينا جوابا على
رسالتنا هذا الرد المطلوب . ونحن ننشره دون اى تعديل
او تعليق كاتر نفيس لنموذج نبيل للراى والصداقة
المؤثرة ، وفي الوقت ذاته ، كترجمة لحياته كافية كليا .

سيدى المحترم ن . . . ا

فى ٢٣ من هذا الشهر كان لى الشرف فى ان اتلقى

رسالتكم المحترمة المؤرخة في ١٥ من الشهر ذاته ،
وفيهما تعربون عن رغبتكم في الحصول على معلومات مفصلة
عن تاريخ ميلاد صديقي الوفي وجاري في الضيعة المرحوم
ايفان بتروفيتش بيلكين وعن وفاته ، وخدمته ،
وظروفه العائلية ، وحتى عن اشغاله وخلقه . وها انا
البي رغبتكم بسرور عظيم ، وابعث لكم ، يا سيدي
المحترم ، كل ما استطيع ان اتذكره من احاديثه ، وحتى
من ملاحظاتي الخاصة .

ولد ايفان بتروفيتش بيلكين عام ١٧٩٨ في قرية
غوريوخينو من ابوين نزيهين نبيلين . كان ابوه النقيب
المرحوم بيتر افانوفيتش قد تزوج الانسة بيلاغيا
غفريلوفنا من عائلة ترافيلين . ولم يكن غنيا ، بل
متوسط الحال ، وصاحب فطنة كبيرة في ادارة شؤونه .
وقد تلقى ابنيهما تعليمة الابتدائي على مقرى ريفي .
وانا اعتقد انه مدين الى هذا الرجل المحترم بولعه في
القراءة والاطلاع في حقل الادب الروسى . في عام ١٨١٥
دخل الخدمة في فوج خاص للمشاة (لا اتذكر رقمه) .
وبقى فيه حتى عام ١٨٢٣ ، حتى اضطرته وفاة والديه
التي وقعت في زمن واحد تقريبا الى الاستقالة ، والسفر
الى قرية غوريوخينو ، الضيعة التي ورثها .

شرع ايفان بتروفيتش يدير الضيعة ، ثم ما لبث
حتى اهملها بسبب من انعدام خبرته ، ورقة قلبه ،
وارخى النظام الصارم الذي اقامه المرحوم والده ، وعزل
العمدة المجتهد والحازم الكفز الذي كان الفلاحون (على
عادتهم) غير راضين عنه ، وعهد بادارة القرية الى مديرة
منزله العجوز التي كسبت ثقته بفن رواية الاقاصيص .

وكانت هذه العجوز البلهاء لا تميز ابدا بين ورقة من فئة خمسة وعشرين روبلا ، وبين ورقة من فئة خمسين روبلا . وكان الفلاحون لا يهابونها البتة ، فهي بالنسبة لهم ليست الا عرابة ؛ اخذ العمدة المنتخب من قبلهم يتساهل امامهم ويكيد معهم المكائد حتى اضطر ايفان بتروفيتش الى الغاء السخرة ، ووضع ضريبة عينية معتدلة جدا ؛ ولكن الفلاحين في هذا الحال ايضا استغلوا ضعفه ، واستدروا لانفسهم في السنة الاولى تسهيلا مقصودا ، وفي السنوات التالية دفعوا ثلثي الضريبة العينية جوزا ، واعنابا برية ، وما شاكل ذلك ، وحتى هذه لم تكن بالكمية المطلوبة .

ولما كنت صديقا للمرحوم والد ايفان بتروفيتش فقد رايت من واجبي ان اسدى له النصيح ، واقترح عليه غير مرة ان يعيد النظام القديم الذي اخل به . ولهذه الغاية ذهبت اليه ذات مرة ، وطلبت دفاتر الحسابات ، ودعوت العمدة المحتال ، وشرعت انظر في هذه الدفاتر بحضور ايفان بتروفيتش . اخذ المالك الشاب في بادى الامر يتابعني باهتمام بالغ وداب ، ولكن حين تبين من الحسابات ان عدد الفلاحين في السنتين الاخيرتين قد ازداد ، بينما نقص عدد ما في المزرعة من دواجن ومواش عن عمد ، اكتفى ايفان بتروفيتش بالدليل الاول هذا ، وبعده لم يعد يسمعي ، وفي اللحظة التي اسلمت فيها العمدة المحتال الى حالة قصوى من الارتباك باستقصاءاتي واستفساراتي الدقيقة الصارمة ، واجبرته على السكوت المطبق ، سمعت ايفان بتروفيتش ، ويا لعظيم حزني ، يشخر على مقعده

بشدة . ومنذ ذلك الحين كفت عن التدخل في ادارة شؤونه الاقتصادية وسلمت امره (واياه ايضا) لحكم العليّ القدير .

الا ان هذا الامر لم يفسد صلاتنا الودية قط . فانا في الوقت الذي كنت اشفق فيه على وهنه واهماله المدمر الذي هو صفة مشتركة لاعياننا الشبان ، كنت احب ايفان بتروفيتش حبا صادقا ، وكيف لا يحب المرء فتى دمث الاخلاق نقي السريرة . كما كان ايفان بتروفيتش ، من جانبه ، يحترم تقدمي في السن ويميل الى بقلبه . كان يلتقي بي كل يوم تقريبا حتى آخر ايامه ، مقدرًا حديثي البسيط ، رغم ان احدنا في الغالب الاعم لم يكن يشابه الآخر لا في العادات ولا في طريقة التفكير ، ولا في الخلق . عاش ايفان بتروفيتش عيشة مقتصدة للغاية ، واعرض عن اي نوع من الاسراف ؛ ولم يصادف قط ان رايته ثملا (وهو ما يمكن ان يعتبر اعجوبة فريدة في ناحيتنا) ؛ وكان له شغف عظيم بالنساء ، الا ان الحياء الذي فيه حياء فتاة حقا .

ترك ايفان بتروفيتش ، الى جانب القصص التي تفضلتم بذكرها في رسالتكم ، عددا من المخطوطات احتفظ انا ببعض منها ، واستخدمت مديرة منزله بعضها الآخر في شتى الاغراض المنزلية . وعلى هذه الصورة الصقت جميع نوافذ دارها في الشتاء الماضي بالجزء الاول من روايته التي تركها غير كاملة . ويبدو ان قصصه

• تلت ذلك نادرة اغفلناها معتبرين اياها زائدة ، ونحن نطمئن القارى على انها خالية من اي شيء يسيء الى ذكرى ايفان بتروفيتش بيلكين . (ملاحظة بوشكين .)

المذكورة اعلاه كانت تجربته الاولى . وهي ، حسب ما روى ايفان بتروفيتش حقيقية في جزنها الاكبر ، وقد سمعها من اشخاص مختلفين * . الا ان الاسماء الواردة فيها قد اختلقها بنفسه في كليتها تقريبا ، اما اسماء القرى والديساكر فماخوذة من منطقتنا ، ولهذا السبب جاء ذكر قرىتي في موضع فيها . وليس ذلك تعمدا للاسائة ، بل لقلّة في الخيال لا غير .

مرض ايفان بتروفيتش في خريف ١٨٢٨ بالبرنّدا، التي تحولت الى حمى ، ووافته المنية رغم الجهود الجهيدة التي بذلها طبيب قضائنا ، وهو رجل بارع جدا لا سيما في علاج الامراض المزمنة كتصلب البشرة ، وما اليها . وقد قضى نحبه بين يدي في الثلاثين من عمره ، ودفن في كنيسة قرية غوريوخينو بالقرب من منوى ابويه . كان ايفان بتروفيتش ربع القامة رمادي العينين ، اشقر الشعر ، مستقيم الانف ، ابيض الوجه نحيفه . ذلك ، يا سيدي المحترم ، كل ما استطيع ان اتذكره عن طراز حياة المرحوم جاري وصديقي واشغاله ، وخلقه وهيئته . ولكن اذا رغبتسم في الاقتباس من رسالتي ارجو ضارعا الا تشيروا الى اسمي ،

* في الواقع ان المؤلف كتب بخط يده على كل قصة في المخطوطة : سمعتها عن فلان (الربة او اللقب والحروف الاولى من الاسم والعائلة) . ونحن نوردنا للمحققين المستطلعين : وناظر المحطة ، رواها له الموظف من الدرجة التاسعة ا . غ . ن . ووالطليقة ، المقدم ي . ل . ب . ووصانع التوابيت ، الوكيل ب . ف . ووعاصفة ثلجية ، ووابنة السيد- الفلاحة ، روتها الانسة ك . ي . ت . (ملاحظة بوشكين .)

ذلك لانه رغم احترامى الشديد وحبى للمؤلفين اجد
الانضواء الى هذه الرتبة امرا زائدا ، وفى سنى هذه غير
لائق . وتقبلوا احترامى الصادق .

١٦ تشرين الثانى ١٨٣٠
قرية نينارادفو

ونحن نعبر عن اعمق الشكر لصديق المؤلف
الفاضل على المعلومات التى وافانا بها معتبرين من الواجب
احترام رغبته ، ونأمل ان يقدر الجمهور ما فيها من
نزاهة ونقاء سريرة .

ا . ب .

الطلقة

تبادلنا الطلقات .
(من قصيدة وحفلة الرقص ، لبواراتينسكى .)

اقسمت ان ارميه وفق اصول المبارزة
(ما زال مستحقا لي بطلقة) .
(من قصة وامسية في معسكر موقت)
لبستوجيف - مارلينسكى .)

١

كنا نعسكر في بلدة ن وحياسة الضابط
معروفة . في الصباح دراسة وركوب الخيل ، وغداء على
مائدة آمر الفوج او في حانة يهودى ، وفي المساء شراب
وقمار . ولم تكن في بلدة ن دار واحدة مفتوحة
للضيوف ، ولا اية آنسة في سن الزواج ، فكنا نجتمع
بعضنا عند بعض ، حيث كنا لا نرى شيئا غير حللنا
العسكرية .

ولم يكن في رفقتنا غير رجل واحد غير عسكرى .
وكان في نحو الخامسة والثلاثين من العمر ، فكنا ، لاجل
ذلك ، نعتبره شيخا . وقد اعطته خبرته مزايا كثيرة
علينا ؛ كما كان لجهامته المألوفة ، وخلقه الحاد ،

ولسانه الودع تأثير قوى على عقولنا الفتية . كان شىء من الضموض يكتنف حياته . فقد كان روسيا ، بيد انه كان يحمل اسما اجنبيا . وكان فى احد الاوقات يخدم فى سلك الفرسان ، بل وموفور الحظ ، ولا احد يعرف السبب الذى جعله يستقيل من الخدمة ، ويستقر فى بلدة بائسة ، حيث كان يعيش حياة شظف وتبذير فى نفس الوقت : كان يسير ماشيا دائما فى حلة سوداء ، رثة ، بينما كان يهيم 'ماندة لكل ضباط فوجنا . حقا ان طعامه لم يكن يتألف الا من صنفين او ثلاثة من اصناف الطعام يطهيا جندي متقاعد ، الا ان الشمبانيا كانت تصب دهاقا . ولم يكن احد يعرف ثروته ولا موارده ، ولم يجرؤ احد على ان يسأله عن ذلك . وكانت لديه كتب معظمها عسكرية وروايات . وكان يعيرها للقراءة راضيا ، ولم يطلب قط ان تعاد له وبالمقابل لم يكن يرد الكتاب الذى يستعيره هو الى صاحبه . وكانت ممارسته الرئيسية الرمي باماسدس . فكانت جدران حجرته مثقبة كلها بالرصاص ، ومخرمة مثل قرص عسل . والترف الوحيد الموجود فى الكوخ البائس الذى كان يعيش فيه هو مجموعة غنية من المسدسات . وكانت براعته فى التسديد لا تصدق ، فلو اقترح ان يطرح برصاصة خوخة على قبعة احد لما تردد واحد من فوجنا فى ان يضع له راسه . كان الحديث بيننا يتعرض الى المبارزات غالبا ؛ ولم يكن سيلفيو (وهذا ما سادعوه به) يتدخل فيه قط . وذات مرة سئل عما اذا حدث له ان اشمتبك فى مبارزة اجاب بجفاف ان ذلك قد حدث ، ولكنه لم يدخل فى تفاصيل ، وكان يبدو ان

مثل هذه الاسئلة لا تروق له . وظننا ان ضميره منقل
بضحية تميمسة لبراعته الرهيبة . وعلى اية حال لم
يخامر عقولنا شك في ان فيه ما يشبه الحياء . هناك
اناس مظهرهم وحده ينفي مثل هذه الشكوك . ووقع
حادث طارىء اذهلنا جميعا .

ذات مرة كنا نحوا من عشرة ضباط نتناول الغداء
على مائدة سيلفيو . وشربنا على مالوف العادة ، اى
بكثرة ؛ وبعد الغداء رحنا نقنع مضيفنا بان يدير اللعب
لنا . ظل يرفض وقتا طويلا ، لانه لم يقامر الا في حالات
نادرة جدا ؛ ثم طلب اخيرا ان يحضر الورق ، ووضع
على المنضدة خمسين قطعة نقد ذهبية ، وجلس يوزع
الورق . احطنا به ، وانعقد اللعب . وكانت لسيلفيو
عادة الالتزام بالصمت المطبق اثناء اللعب ، فلم يكن
يجادل قط ، ولا يقدم تفسيرا . فاذا وقع خطأ في النقود
المطروحة من قبل مقامر كان يسرع في سد الناقص او
تسجيل الزائد . وكنا نعرف ذلك ، ولا نعيقه في ان
يتولى الامر على طريقته ؛ الا ان ضابطا حديث العهد في
الخدمة عندنا كان يلعب معنا . وبينما هو يلعب سها
وزاد الرهان خطأ . وتناول سيلفيو الطيشورة ، وسوى
الحساب على عادته . وظن الضابط انه قد اخطا ، فاخذ
يشرح الامر . تابع سيلفيو توزيع الورق صامتا . فقد
الضابط صبره ، وتناول المساحة ومسح ما بدا له غير
ضرورى . امسك سيلفيو الطيشورة ، واعاد الكتابة من
جديد . واعتبر الضابط ذلك اهانة قاسية ، ملتها
بالخمرة واللعب وضحك رفاقه ، وبضراوة النفيظ
اختطف شمعدانا معدنيا من على الطاولة ، وقذف به على

سيلفيو . تنحى هذا عن الضربة بالكاد . واضطربنا . نهض سيلفيو ، وقد امتنع من الغيظ ، وقال وعيناه تيرقان : «ايها السيد المحترم ، تفضلوا بالخروج واشكروا الله على ان ذلك وقع في بيتي» .

ولم نشك نحن في العواقب ، واعتبرنا رفيقنا الجديد مقتولا لا معالة . خرج الضابط بعد ان قال انه مستعد لان يتحمل مسؤولية الاهانة على النحو الذي يبتغيه السيد مدير اللعب . استمر اللعب عدة دقائق اخر ؛ ولكن كنا نشعر بان المضيف لا مزاج له في اللعب فانسحبنا واحدا اثر الآخر ، وتفرقنا الى بيوتنا متحدثين عن احتمال حدوث شاعر في الوظيفة عما قريب .

في حلبة الخيل في اليوم التالي رحنا نتساءل عما اذا كان الضابط المسكين ما يزال حيا . وما ان طلع علينا بنفسه حتى القينا عليه السؤال نفسه . اجاب انه لم يتلق حتى الآن اى تبليغ من سيلفيو . وادهشنا ذلك . ذهبنا الى سيلفيو فرايناه في الفناء يطلق رصاصة اثر اخرى على ورقة «آس» ملصقة على الباب . استقبلنا على مالوف عادته ، ولم يشر بكلمة واحدة الى حادث البارحة . وانقضت ثلاثة ايام ، والضابط ما يزال حيا . وتساءلنا بدهشة هل يُعقل الا يتبارز سيلفيو ؟ ولم يتبارز سيلفيو . واكتفى بايضاح بسيط جدا وتصالح . في البداية اضر ذلك به في عين الشبان ضرا بالغا . فان قلة الجراة اقل ما تكون غفرانا لدى الشبان الذين يرون الشجاعة في العادة ارفع الكرامات الانسانية وغفرانا لكل العيوب الممكنة . ومع ذلك فقد اتى النسيان

على كل شىء ، بمرور الزمن وعاد سيلفيو يزاوّل تأثيره القديم .

وبقيت انا وحدى غير قادر على ان اقربه ابدا . كنت قبل ذلك الحين ، وبحكم ما طبعت عليه من خيال رومانطيقى اكثر الناس تعلقا برجل كانت حياته لغزا . وكان يبدو لى بطل قصة غامضة . وقد احببني ؛ او على الاقل لم يستعمل معى وحدى الخشونة العادة المألوفة فى كلامه . فكان يتحدث عن مواضيع مختلفة ببساطة نفس ولطف غير مالوف . الا ان الفكرة التى كونتها بعد تلك الامسية التعيسة ، وهى ان شرفه قد لُطّخ ، ولم ينفسل ، واللوم فى ذلك عليه ، ان هذه الفكرة ظلت تلح على ، وتمنعنى من ان اعيد سيرتى الاولى معه ، فكنت اخجل من النظر اليه . كان سيلفيو ذكيا جدا ومحكما فلم يفتنه ذلك ، ولم يغضب عنه حدس السبب فيه . وكان يبدو ان هذا الامر يغمه ؛ وعلى اقل تقدير لمحت منه مرتين رغبة فى مبادلتى الحديث ؛ الا اننى كنت اتحاشى ذلك واعرض سيلفيو عنى . ومنذ ذلك الحين كنت لا التقى معه الا بحضور الرفاق ، وانقطعت احاديثنا الصريحة السابقة .

ليس لاهل العاصمة المبهورين تصور لانطباعات كثيرة معروفة جدا لاهل القرى او المدن الصغيرة ، من بين ذلك انتظار يوم مجيء البريد . حيث كان قلم اوراق فوجنا يغص بالضباط فى ايام الثلاثاء والجمّع . فهذا ينتظر نقودا ، وذاك رسالة ، وآخر صحفا . وكانت الطرود تفك هناك عادة ، وتذاع الانباء ، فكان قلم الاوراق صورة دافقة بالحياة . كان سيلفيو يتسلم

الرسائل المصنونة الى فوجنا ، فكان في العادة موجودا هناك . وذات مرة سلّم مطروفا فصرّ ختمه في لهفة عظمى . ولمعت عيناه ، وهما تمران على الرسالة . كان كل ضابط مشغولا برسائله ، فلم يلحظه احد . قال لهم سيلفيو : «يا سادة ، الظروف تقتضى ان ارحل ، ساغادر اليوم ليلا : وآمل ان لا ترفضوا تناول الغداء على مائدتى لآخرة مرة . وانا انتظر منكم ايضا - تابع قوله يخاطبني - انتظر من كل بد» . ومع هذه الكلمة خرج مسرعا ، واتفقنا نحن على ان نجتمع عنده ، وتفرقنا كل الى طيته .

وصلت الى بيت سيلفيو في الوقت المحدد ، ورايت عنده الفوج كله تقريبا . وكان متاعه كله قد حزم ، ولم تبق الا الجدران العارية المثقبة بالطلقات . جلسنا الى المائدة : وكان رب البيت في مرح غامر ، وسرعان ما عمّ مرحه الجميع . كانت الزجاجات تفضّ في كل دقيقة بفرقة ، والاقداح ترسل الحبيب وتنش نشيشا لا انقطاع له . وتمنينا للمسافر بكل ما لدينا من حماس سفرا ميمونا وكل توفيق . وكان المساء قد مضى اكثره حين نهضنا من وراء المائدة . وعند انقضاء الحفل ودّع سيلفيو الجميع ، وامسكنى من يدي ، ووقفنى في اللحظة التي هممت فيها بالانصراف . وقال لي خافت الصوت : «اريد ان اتحدث معك» . فبقيت .

انصرف الضيوف ، وبقينا وحدنا . جلسنا يقابل احدا الآخر ، ورحنا ندخن غليونينا صامتين . كان سيلفيو ساهما ؛ ولم يبق اى اثر لمرحه العصبي . وقد اضفى عليه الشحوب الكثيب ، والعينان البراقتان ،

والدخان الكثيف الخارج من فمه هيئة شيطان حقيقي .
مضت بضغ دقاتي ، واذا بسيلفيو يحطم الصمت بقوله
لي :

- لعلنا لا نلتقي بعد الآن . واراني بحاجة الى
مصارحتك قبيل الفراق . ربما استطلعت ان تلاحظ انني
قليل الاحترام لرأي الآخرين ، ولكنني اودك ، وسأشعر
بالضيق اذا تركت في نفسك انطباعا غير مبرر .
وتوقف وشرع يحشو غليونه الخالي ، وصمت
مطرقا بعيني . ثم مضى يقول :

- لعلك استغربت من انني لم ادع ذلك الاحمق
السكران ر . . . للمبارزة . انت توافقني في ان حياته
كانت رهن يدي ، وكان لي الحق في اختيار السلاح ،
بينما كانت حياتي في امان تقريبا : بإمكانني ان اصف
سماحتي بالتهالوت ، ولكن لا اريد ان اكذب . لو كان
بوسعي ان اعاقب ر . . . دون ان اعرض حياتي البتة
لما سامحته ابدا .

نظرت الى سيلفيو مندهشا . فان هذا الاعتراف
حيرني تماما . وتابع سيلفيو كلامه :
- هذا بالضبط : ليس لي الحق في ان اعرض
نفسى للموت . قبل ستة اعوام تلقيت صفة ، وعدوى
ما يزال حيا .

ونار فضولي بشدة . سألته :
- لم تبارزه ؟ من المؤكد ان الظروف حالت دون
ذلك ؟

اجاب سيلفيو :
- تبارزت معه . وهذا اثر مبارزتنا .

ونهض سيلفيو ، واخرج من علبة كارتون قبعة حمراء لها خصلة ذهبية وشريط مقصب (من تلك التي يسميها الفرنسيون Bonnet de police °) ولبسها ؛ كانت مثقوبة برصاصة على ارتفاع انملتين فوق الجبين . وتابع سيلفيو كلامه :

- انت تعلم اننى كنت اخدم في فوج الفرسان ك . . . وانت تعرف طبعى : لقد تعودت التفوق . ولكن ذلك كان في صباى هوى . وكانت العريضة في زماننا موضحة : وكنت اول عربي في الجيش . وتنافسنا في السكر ، وتفوقت به على بورتسوف الشهير الذى تغنى به دينس دافيدوف . وكانت المبارزات تجرى في فوجنا تترى . وكنت احضرها كلها اما كشاهد او كمشارك . وكان رفاقى يهيمنون بى ، وامراء الفوج الذين يتغيرون باطراد ينظرون الى² كما ينظرون الى شر لا بد منه

كنت استمتع في هدوء (او في غير هدوء) بسمعتى حين جا، الينا شاب غنى من عائلة نبيلة (لا اريد ان اذكر اسمه) . انا لم التق في حياتى بمحفوظ لامع مثله ! تصور شبابا ، وعقلا ، وجمالا ، ومرحا غاية في التاجح ، وشجاعة آية في اللامبالاة ، واسما مدويا ، ومالا لم يعرف له عدا ، ولا شح عنده يوما ، ثم تصور اى اثر كان ، لا بد ، تاركة فينا . وتضعض تفوقى . راح الشاب يسمى الى صداقتى مفتونا بسمعتى . الا اننى استقبلته ببرود ، فابتعد عنى دون اى اسف . واضمرت له ضفنا . ودفعتنى نجاحاته في الفوج وبين النساء الى ياس تام . واخذت اتعين الفرص لمخاصمته . وكان يرد على غمزاتى ° قبعة الشرطى . (بالفرنسية .)

بعضات كانت دائما تبدو لي اكثر خفة ورهافة من غمزاتي ، واكثر مرحا منها ، طبعا ، الى حد بعيد : كان هو يمزح ، وكنت انا اكيد . وذات مرة اخيرا في بيت صاحب اطيان بولوني رايته موضع اهتمام جميع السيدات ولا سيما ربة الدار التي كانت لي علاقة معها ، فقلت في اذنه بذاة صريحة . احتدم غيظه وصفغني على خدي . وهرعنا الى السيوف ، وانغمى على السيدات . وحُجز بيننا ، وفي تلك الليلة ذهبنا لنتبارز .

كان ذلك عند الفجر . وقفت في المكان المحدد ومعى شهودى الثلاثة . وانتظرت خصمى بنفاد صبر لا يوصف . وطلعت شمس الربيع ، وبدأ الحر . وابصرته من بعيد . كان يسير ماشيا ، وسترته على سيفه ، مصحوبا بشاهد واحد . وسرنا للقياه . اقترب ممسكا بقبعة ملئت بالكرز . وقاس الشهود لنا اثنتى عشرة خطوة . وكان يجب ان اكون اول من يطلق النار . الا ان احتدام الغيظ في نفسى كان شديدا جدا ، حتى لم اعول على تصويب يدي ، ولكى اوفر لنفسي وقتا يبرد غيظها فيه تنازلت لتكون الطلقة الاولى له . ولم يوافق خصمى . وقررنا ان نجرى قرعة . فكان الرقم الاول له ، لمحبوب الحظ الدائم . وسدد واصاب قبعتى . وجاء دورى . كانت حياته اخيرا في يدي . حدثت فيه بنهم محاولا ان المح فيه ادنى ظل للاضطراب . . . كان يقف تحت المسدس وهو ينتقى من قبعتة حبات الكرز الناضجة ، لافظا النوى التي كانت تتطاير فتبلغنسى . واثارت لامبالاته جنونى . وفكرت مع نفسى : ماذا ساجنى من فائدة في سلبه حياته اذا كان هو يستهين

بها كليسا ؟ ولحمت في ذهني فكرة ناقمة . انزلت
المسدس ، وقلت له : « يبدو ان الموت لا يشغل بالك
الآن ، فانت تتناول فطورك ، وانا لا اريد ان اعيقك » .
فاعترض قائلا : « انت لا تعيقني مطلقا . تفضل اطلق
النار ، وعلى اية حال تصرف كما تريد ، فانا مدين لك
بطلقة . انا دائما مستعد لخدمتك » . توجهت الى الشهود
معلنا انني لا انوي اطلاق النار اليوم . وبذلك انتهت
المبارزة .

قدمت استقالتى ، ورحلت الى هذه البلدة . ومنذ
ذلك الحين لم يمض يوم واحد لم افكر فيه بالانتقام .
واليوم حانت ساعة الانتقام

واخرج سيلفيو من جيبه الرسالة التي تسلمها في
الصباح ، واعطانيها لاقراها . لقد كتب له شخص من
موسكو (يبدو انه وكيل شزونه) ان **الشخص المعلوم**
مقبل قريبا على عقد قرانه على فتاة شابة رائعة الجمال .
قال سيلفيو :

- وانت تخمن من هو هذا **الشخص المعلوم** . انا
مسافر الى موسكو . وسنرى هل سيستقبل الموت قبيل
زواجه بلا اكرات ، منلما انتظره في تلك المرة ، وهو
ياكل الكرز !

وبهذه الكلمات نهض سيلفيو ، ورمى قبضته على
الارض ، واخذ يذرع الحجرة جيئة وذهوبا ، وكأنه نمر
في قفص . اصغيت اليه بلا حركة ؛ وقد اعتملت في نفسى
مشاعر غريبة متضاربة .

دخل الخادم ، واعلن ان الخيول جاهزة . شدت

سيلفيو على يدي بقوة ، وتبادلنا القبل . ركب العربة حيث وضعت فيها حقيبتان ، في احدهما المسدسات ، وفي الثانية امتعته . توادعنا مرة اخرى . وانطلقت الخيول .

٢

مضت بضع سنوات . واضطرتني الظروف العائلية الى الانتقال الى قرية صغيرة بانسة في قضاء واذ كنت ازاول اعمالى لم تفارقنى الحسرة على حياتى الماضية الصاخبة الرخية البال . وكان اصعب الامور على التعود على قضاء اماسى الخريف والشتاء في وحدة تامة . كنت ازجى الوقت على نحو ما حتى موعد الغداء . مجاذبا الحديث مع العمدة ، متفقدا الاعمال والمشاريع الجديدة . ولكن ما ان يدنو المساء حتى لا اعرف الى اين اذهب . وقد حفظت العدد القليل من الكتب التى عثرت عليها تحت الدواليب وفي حجرة الموزن . واعادت مديرة البيت كيريلوفنا على مسمى كل الحكايات التى قدرت ان تتذكرها . وكانت اغانى النسوة تشيع فى الحنين . وعكفت على خمرة قوية المفعول ، الا انها كانت تصيبني بالصداع ؛ ثم اعترف انى كنت اخشى ان انقلب سكيما من الكمد ، اى مدعنا لا يرجى شفاؤه ، وقد رايت كثيرين منهم في قضائنا . ولم يكن بقربى من الجيران القريبين غير اثنين او ثلاثة من الذين لا يرجى

شفاؤهم كان معظم حديثهم فواقا وتاففا . فكانت العزلة
اكثر احتمالا من ذلك * .

على بعد اربعة فراسخ منى كانت تقع ضيعة غنية
تملكها ب ، الا ان احدا لم يكن يسكنها غير
القيّم ، اما الكونتيسة فلم تزر ضيعتها الا مرة واحدة في
العام الاول من زواجها ، وحتى في تلك المرة لم يطل
مكوئها اكثر من شهر . الا ان اشاعة سرت في الربيع
الثانى من اقامتى في عزلتى تقول ان الكونتيسة وزوجها
سيمضيان الصيف في قربتها . وبالفعل وصلا في بداية
شهر حزيران .

وقدوم جار ثرى حدث مهم لاهل القرية . واصحاب
الاطيان والاقنان يتحدثون عنه قبل شهرين من وقوعه ،
ويظنون يتحدثون عنه بعد ثلاثة اعوام من انتهائه . اما
انا فاعترف بان خبر قدوم جارة شابة رانعة الجمال قد
اثر في نفسى اثرا شديدا ، فاشتعلت بنار اللهفة الى
رؤيتها ولذلك توجهت بعد الغداء الى قرية س . . . في
اول يوم احد بعد مجيئهما لاقدم نفسى الى سيادتهما
كاقرب جار لهما ، وكخادم مطيع .

قادنى الخادم الى مكتب الكونت ، وذهب هو ليلبغه
بقدومى . كانت غرفة المكتب الفسيحة مفروشة بكل ابهة
وترف . كانت دواليب الكتب تصطف قرب الجدران ،
وفوق كل واحد منها تمثال نصفى من البرنز ؛ وفي اعلى

* تلت ذلك في الطبعة الاولى هذه العبارات: وقررت اخيرا
ان اضطجع في المساء الباكر واتناول الغداء في وقت متأخر ؛
وبذلك قصرت المساء واطلت النهار ؛ فكانت النتيجة المرجوة .
(ملاحظة بوشكين .)

الموقد المرمرى مرآة واسعة ؛ والارض مغطاة بالجوخ الاخضر ، ومفروشة بالابسطة . وكنت قد نسيت الترف في ركنى البائس ، وقد مضى على " زمن طويل وانا لم ار ثراء الآخرين ، فتوجست رهبة ، وانتظرت الكونت بارتجاف كمسترحم من الريف ينظر وزيرا . وفتح الباب ، ودخل رجل في نحو الثانية والثلاثين من العمر جميل الطلعة . دنا الكونت منى طلق الاسارير ، بادى الود . حاولت ان اتشجع ، واخذت اقدم نفسى ، الا انه كان يعرفنى مسبقا . جلسنا . وسرعان ما بدد حديثه السلس السمع خجل المستوحش ؛ فاخذت اعود الى وضعى الاعتيادى . واذا بالكونتيسة تدخل فجأة ، فيستولى الاضطراب على " اشد من ذى قبل . لقد كانت رائعة الجمال حقا . قدمنى الكونت اليها . كنت اريد ان ابدو طبيعيا ، ولكن كلما حاولت ان اظهر بمظهر البشاشة ازداد شعورى بالتحرج . ولكى يتيحالى برهة اتمالك فيها نفسى ، واعتاد العشرة الجديدة شرعا يتحدثان فيما بينهما متصرفين معى كجار طيب ، وبغير ما كلفة . وخلال ذلك اخذت اسير جيئة وذهابا متطلعا الى الكتب واللوحات . انا لست خبيرا باللوحات . بيد ان احداها جذبت انتباهى . وهى تصور منظرا طبيعيا فى سويسرا ، الا ان الفن ليس هو الذى بهرنى فيها بل رصاصتان خرقتاها فى موضع واحد . قلت مخاطبا الكونت :

- رميتان سديدتان .

اجاب :

- نعم ، انهما لرائعتان . - ثم اردف قائلا : -
اتجيد الرمي ؟

اجبت وقد سرنى ان الحديث مس ، فى آخر الامر ،
موضوعا قريبا الى نفسى :

- بشكل ممتاز ، لن اخطى التسديد على ورقة
اللعب من على بعد ثلاثين خطوة ، بمسدسات اعرفها
بالطبع .

ردت الكونتيسة بمظهر الاهتمام الشديد :

- احقا ؟ وانت ، يا صاحبي ، هل ستصيب ورقة
اللعب من على بعد ثلاثين خطوة ؟
اجاب الكونت :

- سنجرب فى وقت ما . فى زمانى لم يكن رمى
ردينا ؛ ولكن منذ اربعة اعوام وانا لم امسك مسدسا
بيدى .

فقلت ملاحظا :

- اوه ، فى هذه الحال اراهن على ان سيادتك لن
تصيب ورقة اللعب حتى من على بعد عشرين خطوة . فان
المسدس يتطلب تعرينا يوميا . وانا اعرف ذلك من
تجربتى . كنت اعتبر فى فوجى من بين احسن الرماة .
وصادف ذات مرة ان قضيت شهرا كاملا دون ان امسك
مسدسا : فقد كانت مسدساتى فى التصليح . فما راي
سيادتك ؟ فى اول مرة اعود فيها للرمى اخطات اصابة
زجاجة على بعد خمس وعشرين خطوة اربع مرات
متتاليات . وكان عندنا ضابط من الفرسان برتبة نقيب
ثاقب الذكاء ، فكه شهد الحادث ؛ فقال لى : اظن يدك ،
يا اخ ، لا تستطيع ان تصوب على زجاجة . لا ، يا صاحب

السيادة ، لا يجوز ان تستهين بهذه التمازين ، والا فستنسى الرماية كليا . ان احسن رام صادف ان التقيت به كان يمارس الرماية كل يوم ثلاث مرات قبل الغداء . على اقل تقدير . لقد كان ذلك عادة له مثل كأس الفودكا قبل الطعام .

كان الكونت والكونتيسة مسرورين لانطلاق لساني .
سألني الكونت :

- كيف كان يرمى ؟

- على هذا النحو ، يا صاحب السيادة : كان يحدث ان تحط ذبابة على حائط . اراك تضحكين يا كونتيسة ؟ انه لحق قسما بالله . كان يرى ذبابة فيصرخ : يا كوزكا ، الى المسدس ! فيأتي له كوزكا بمسدس محشو . ويرمى ، ويسحق الذبابة في الحائط .

قال الكونت :

- هذا شيء مذهل ! ما اسم هذا الرجل ؟

- سيلفيو ، يا صاحب السيادة . .

وثب الكونت من مكانه وهتف :

- سيلفيو ؟ هل كنت تعرف سيلفيو ؟

- وكيف لا اعرفه ، يا صاحب السيادة ، وقد كنا صديقين . قبلناه في فوجنا اخا ورفيقا . وها هي خمسة اعوام تمضي دون ان اسمع خبرا عنه . اذن ، فقد كنت تعرفه ، يا صاحب السيادة ؟

- اعرفه ، اعرفه جيدا . الم يخبرك . . . ولكن

لا ، لا اظن : الم يخبرك عن حادث رهيب جدا ؟

- عن الصفعة التي وجهها اليه شاب طائش في حفلة

رقص ، اليس عن ذلك ، يا صاحب السيادة ؟

- ولم يقل لك اسم هذا الشاب الطائس ؟
- لا ، يا صاحب السيادة ، لم يقل . . . آه ! يا
صاحب السيادة - استدركت انا ، وقد حدثت الحقيقة
وتابعت قولى - اعذرني . . . لم اكن اعرف . . . الست
انت ؟ . . .

رد الكونت بهيئة انسحاق بالغ :
- انا هو . اما هذه اللوحة المصابة فانها ذكرى آخر
لقاء لنا . . .

قالت الكونتيسة :
- آه ، يا عزيزى . بحق الرب لا تتحدث ، فان
سماعها سيرهبنى .

اعترض الكونت قائلا :
- لا ، سأروى كل شىء ؛ فهو يعرف كيف اهنت
صديقه ، فليعرف ايضا كيف نار سيلفيو منى .
قدم الكونت لى مقعدا ، فاصفيت الى هذه القصة
بفضول متيقظ .

«تزوجت قبل خمسة اعوام ، وقضيت الشهر الاول
the honey-moon • هنا فى هذه القرية . وانا مدين لهذه
الدار باحسن لحظات حياتى ، وبواحدة من اقصى ذكرياتى .
ذات مساء خرجنا سووية ممتطين فرسين . ولسبب
ما حرن فرس زوجتى ؛ فذعرت ، وسلمتنى المقود ،
وسارت الى البيت ماشية . سبقتها وانا راكب . رايت
فى الفناء عربة سفر . اخبرت بان شخصا يجلس فى
المكتب فى انتظارى لم يرد ان يعلن عن اسمه ، بل قال

• شهر العسل (بالانجليزية .)

ان له شأنا ممي . دخلت هذه الغرفة ، ورأيت في الظلام رجلا مغبرا وقد اطلق لحيته . كان يقف هنا الى جانب الموقد . تقدمت منه مجاهدا لاتذكر ملامحه . قال لي بصوت مرتجف : «الم تعرفنى ، يا كونت ؟» هتفت : «سيلفيو !» واعترف باننى احسست بان شعر راسى يقف . مضى الرجل يقول : «تماما . ما زلت مدينا لي بطلقة . وقد جئت ومسدسى محشو . فهل انت مستعد ؟» كان مسدسه يبرز من جيبه الجانبى . ذرعت اثنتى عشرة خطوة ، ووقفت في الزاوية هناك ، سانلا اياه ان يطلق قبل ان تعود زوجتى . تباطأ . طلب ان يشعل الضوء . فاوقدت الشموع . اوصدت الباب ، وامرت بان لا يدخل احد وطلبت اليه مرة اخرى ان يطلق . اخرج المسدس من جيبه ، وصوبه . . . عدت الثوانى . . . كنت افكر فيها . . . وفاتت اللحظة رهيبه ! انزل سيلفيو يده . وقال : «يوسفنى ان المسدس غير محشو بنوى الكرز . . . الرصاصة ثقيلة . ويبدو لي ان ما بيننا ليس مبارزة ، بل قتلا : انا غير متعود على ان اصوب على اعزل . فلنبدا من جديد ، ولنلق قرعة لنرى من سيطلق اولاً» . ودار راسى . . . يبدو اننى لم اوافق . . . واخيرا حشوننا مسدسا آخر : لفء قصاصتين ، ووضعهما في القبعة ، نفس القبعة التى اصبتها في تلك المرة . وسحبت الرقم الاول مرة اخرى . وقال بتلك البسمة الساخرة التى لن انساها ابدا : «انت ، يا كونت ، سعيد بشكل شيطانى» . انا لا افهم ماذا حصل لي ، وباية طريقة استطاع ان يجبرنى على ذلك . . . ولكننى اطلقت ، واصبت هذه اللوحة (واشار

الكونت باصبعه الى اللوحة المثقوبة ، وكان وجهه ملتها كالنار ؛ وكانت الكونتيسة اكثر شحوبا من منديلها . اما انا فلم استطع ان اکتتم صيحة استفرابي .
ومضى الكونت يقول :

- اطلقت ، وحمدا لله لم اصب الهدف ؛ عندئذ اخذ سيلفيو . . . (كان تلك اللحظة رهيبة حقا) يصوب نحوي . وفجأة فتح الباب . ودخلت ماشا الفرفة راكضة ، وتعلقت برقبتي زاعقة . واعاد حضورها الى كل شجاعتي . قلت لها : «يا عزيزتي ، احقا لا ترين اننا نمزح ؟ فكيف ذعرت ! اذهبي ، واشربي قدحا من الماء ، وعودي الينا . وساقدم لك صديقا قديما ورفيقا» . ظلت ماشا غير مصدقة وقالت مخاطبة سيلفيو المرعب : «خبرني هل زوجي صادق في قوله انكما تمزحان ؟» اجابها سيلفيو : «انه يمزح دائما ، يا كونتيسة . ذات مرة وجهه لي صفة مزاحا ، ومزاحا اصاب قبعتي هذه ، ومزاحا اخطا اصابتني هذه اللحظة . والآن واتنى رغبة في ان امزح . . .» وبهذه الكلمة اراد ان يصوب على . . . بحضورها ارتمت ماشا على قدميه . صرخت انا بجنون : «انهضى ، ماشا ، عيب ! اما انت ، ايها السيد ، افلا تكف عن الهزء بامرأة مسكينة ؟ هل ستطلق النار ام لا ؟» اجاب : «لا ، لا اطلق . هذا يكفيني . لقد رايت اضطرابك ، ووجلک . وجعلتك تطلق على النار . هذا يكفيني . ستتذكرني . واتركك وضميرك» . وعندئذ خرج ، ولكنه توقف عند الباب ، ونظر الى اللوحة التي اصبتها ، واطلق عليها النار دون ان يصوب تقريبا ، واختفى . انغمى على زوجتي ،

ولم يجرا الناس على ايقافه ، بل راحوا يحدقون فيه
مذعورين . خرج الى مقدمة البيت ، ونادى على الحوذى ،
وغادر قبل ان اعود الى وعى» .

صمت الكونت . وعلى هذا النحو عرفت نهاية القصة
التي اذهلتنى بدايتها في تلك المرة . ولم التق ببطلها .
ويقال ان سيلفيو كان يقود فصيلة من الاتيريين * في
حركة الكسندر ابيسلانتي ، وقتل في معركة قرب
سكولياني .

* نسبة الى اتيريا وهي جمعية سرية برئاسة الكسندر
ابسلانتي هدفها تحرير اليونان . (الناشر .)

عاصفة ثلجية

الخيول نخب على الاكوام الثلجية ،
وتدوس الثلج العميق . . .
وهناك ، في ناحية ، كنيسة
تبدو وحيدة .

.....

وفجأة تهب عاصفة ثلجية ؛
وينشال الثلج ندفا كبيرة ؛
ويصفق غراب اسود بجناحيه ،
فوق الزلاجة ؛
والانين النبوني يندر بالاسى !
والخيول هجلى
تنظر في المدى الداجى بحدّة ،
رافعة اعرافها . . .
(جو كوفسكى .)

في نهاية عام ١٨١١ ، في عهدنا المشهود ، كان يعيش
في ضيعة نينارادوفو الطيب الذكر غفريلا غفريلوڤيتش
. . . وكان مشهورا في منطقته بحسن الضيافة ،
وطيب العشرة ؛ وكان الجيران يترددون عليه ليأكلوا ،
ويشربوا ، ويلعبوا مع زوجته البوستون * بخمسة
كوبيكات . وكان البعض يأتى ليمتع نظره بابنته ماريا

* نوع من انواع لعب الورق . (المترجم .)

غفريولفونا ، الفتاة ، الهيفاء ، الشاحبة ، ابنة السبعة عشر ربيعا . وكانت تعتبر عروسا غنية ، وكثيرون ارادوها لهم او لابنائهم .

وكانت ماريبا غفريولفونا قد تربت على الروايات الفرنسية ، فكانت ، بالنتيجة ، عاشقة . وكان الذي اختارته لنفسها ضابطا بانسا برتبة ملازم ثان جاء يقضى اجازته في قريته . وطبيعي ان الشاب كان يلتهب بنفس العاطفة . ولما احس والدا محبوبته بهواهما المتبادل حرما على ابنتهما حتى التفكير به ، اما هو فقد استقبل اسوا مما يُستقبل به مُحلّف متقاعد .

كان عاشقانا يتبادلان الرسائل ، ويلتقيان كل يوم خلسة في دغل اشجار الصنوبر ، او قرب الكنيسة الصغيرة القديمة . وهناك كانا يتعاهدان على الوفاء لحبهما الى الابد ، ويندبان القدر ، ويستعرضان مختلف الفروض . وبتراسلها واحاديثها على هذه الصورة توصلا (وهذا شيء طبيعي) الى هذه الفكرة : اذا كان احدنا لا يستطيع العيش بدون الآخر ، واردة الوالدين القاسيين تقف دون رفاهنا ، افلا يجوز لنا تجاوز هذه الارادة ؟ وطبيعي ان هذه الفكرة الموقفة خطرت في ذهن الفتى اول ما خطرت ، وراقت كثيرا لخيال ماريبا غفريولفونا الرومانسي .

حلّ الشتاء ، وانقطعت لقاءاتهما . الا ان رسالتهما صارت انشط . وكان فلاديمير نيقولايفيتش يتوسل في كل رسالة ان تستجيب له ، وتزوجه سرا ، وان يعيشا في الخفاء فترة من الزمن ، وبعد ذلك يرتميان على اقدام والديها ، اللذين سيتأثران اخيرا ، طبعا ، بحبهما

البطولي الطويل وتعاسة العاشقين ، وسيقولان لهما
بالتأكيد : يا ولدينا ! تعالا الى حضنينا .

ترددت ماريا غفريلوفا كثيرا ، ورفضت العديد من
خطط الهرب . ووافقت آخر الامر . كان عليها في اليوم
المحدد الا تحضر العشاء ، وان تختل في غرفتها متعذرة
بالصداع . وكانت وصيقتها على علم بما دُبّر ، فكان
عليهما ، كليهما ، ان تخرجا الى الحديقة خلال مدخل
البيت الخلفي ، وتجدا وراء الحديقة زلاجة مهيأة لنقلهما
الى قرية جادرينو ، على بعد خمسة فراسخ من
نينارادوفو ، وهناك تتوجهان توا الى الكنيسة ، وسيكون
فلاديمير في انتظارهما فيها .

في عشية اليوم الحاسم لم تنم ماريا غفريلوفا طوال
الليل ؛ فقد جمعت حاجاتها ، وصرت ثيابها وفساتينها ،
وكتبت رسالة طويلة الى فتاة رقيقة القلب هي
صديقتها ، واخرى الى والديها . ودعتهما ببارق العبارات ،
واعترت لفعاليتها بقوة الحب العارمة ، وانتهت بانها تعتبر
اسعد لحظة في حياتها هي تلك التي سيتاح لها فيها ان
ترتمي على اقدام والديها العزيزين . وختمت كلتا
الرسالتين بختم تولا الذي رسم عليه قلبان متحابيان
مع عبارة معتبرة . والقت نفسها على الفراش قبيل الفجر ،
وغلبها النعاس : الا ان الاحلام الرهيبة كانت توقظها بلا
انقطاع . مرة تراءى لها ان اباه اوقفها ما ان جلست في
الزلاجة لتذهب لعقد قرانها ، وانه جرها على الثلج
بسرعة مؤلمة ، والقاهما في غيب مظلم لا قرار له . . .
وانها طارت بسرعة وقلبها متجمد جمدا لا يوصف . ومرة
اخرى رات فلاديمير مطروحا على العشب ممتقا مدمى .

كان ، وهو يحتضر ، يتضرع اليها بصوت نافذ ان تسرع الى الكنيسة وتزوجه . . . واحلام اخرى شوها ، لا معنى لها مرقت امامها متتابعة . وفي آخر الامر نهضت اكثر شحوبا من المعتاد ، وبصداع حقيقى . لاحظ ابوها وامها اضطرابها ، فتمزق قلبها بحنانها الرقيق وباسئلة لا تنتهى : ماذا بك ، يا ماشا ؟ هل انت عليلة ، يا ماشا ؟ حاولت ان تهدئها ، وان تبدو مرحة ، ولم تستطع . وجاء المساء . وعصرت قلبها فكرة انها ستقضى آخر يوم بين عائلتها . فكانت الحياة لا تكاد تدب فيها : ودعت بسرها جميع الاشخاص ، جميع الاشياء المحيطة بها .

قُدِّمَ العشاء ؛ وبدا قلبها يخفق بشدة . اعلنت بصوت مرتجف انها لا تريد ان تتعشى ، واخذت تودع اباها وامها . قبلاها ، وباركاها بالدعاء كالعادة : وكادت تنفجر باكية . وحين عادت الى حجرتها ارتمت على مقعد ، وانهمرت دموعها . توسلت اليها وصيفتها ان تهدا ، وتتشجع . كان كل شيء مهيا . بعد نصف ساعة كان على ماشا ان تغادر الى الابد بيت الابوة ، وغرقتها ، وحياتها الهادئة ، حياة آنسة . . . فى الخارج كانت عاصفة ثلجية . كانت الريح تعول . وصفاقات النوافذ تهتز وتصفق . وبدا كل شيء لها وعيدا ، ونذيرا منحوسا . وسرعان ما هدا كل شيء فى البيت ، ونام . لفت ماشا جسمها بشال ، وارتدت معطفا سميكا ، ووضعت بيدها علبة مجوهراتها ، وخرجت الى مدخل البيت الخلفى . حملت الوصيفة وراها صرتين . خرجت الفتاتان الى الحديقة ، والعاصفة الثلجية لم تهدا ؛ وهبَّت الريح

في وجهيهما وكانها تجاهد لتوقف الأئمة الصغيرة . وصلتنا الى نهاية الحديقة بعد لاي . وكانت الزلاجة في الطريق بانتظارهما . كانت الخيول من شدة البرد لا تستقر في مكان واحد . وكان حوذي فلاديمير يروح ويجيء امام عريش العربية ممسكا بالخيول الجامعة . ساعد الأنسة ووصيفتها على الجلوس في الزلاجة ، ووضع الصرتين والعلبة ، وامسك بالرسن . فانطلقت الخيول . اما نحن فلنعد الى عاشقنا الشاب بعد ان سلمنا الأنسة لعناية القدر وفن تيريشكا الحوذي .

قضى فلاديمير اليوم كله في رواح ومجيء . في الصباح كان عند قس جادرينو ، واقنعه بعد جهد جهيد . ثم ذهب ليبحث عن شهود من بين اصحاب الاطيان المجاورين . وكان اول من توجه اليه ضابط فرسان متقاعد في الاربعين من العمر يدعى درافين ، وقد قبل عن طواعية قانلا ان تلك المخاطرة تذكره بالزمن القديم ، وملاعب الفرسان . واقنع فلاديمير على ان يبقى عنده للغداء ، مؤكدا ان ايجاد شاهدين آخرين امر سهل . وبالفعل ظهر بعد الغداء بوقت قصير مساح الارض سميت بشاربيه ومهامزيه ، وابن رئيس شرطة القضاء ، وهو فتى في السادسة عشرة كان قد دخل فوج الخيالة الخفيفة قبل فترة وجيزة . وافق هذان على اقتراح فلاديمير ، بل واقسما له على انهما مستعدان للتضحية في سبيل حياته . عانقهما فلاديمير شديد الغبطة ، وذهب الى بيته لياخذ أهفته .

كان الفسق قد هبط منذ وقت طويل . ارسل

فلاديمير حوزيه الامين تيريشكا مع زلاجه «ترويك» •
وتعليمات مسهبة مفصلة ، وطلب ان تجهز له زلاجة
صغيرة يجرها حصان واحد ، واتجه لوحده ، وبدون
حوزى ، الى جادرينو ، حيث كان يجب ان تصل اليها
ماريا غريلوفنا ايضا في غضون ساعتين . كانت الطريق
مالوفة له ، وهى لا تستغرق اكثر من عشرين دقيقة .
ولكن ما كاد فلاديمير يترك طرف القرية الى الخلاء ،
حتى هاجت الريح ، وهبت عاصفة ثلجية عاتية لم تدعه
يرى اى شىء . وفى لحظة واحدة اختفت الطريق ؛ وتوارت
معالم الاشياء ، فى ظلمة كدرة مصفرة تطايرت خلالها
ندف الثلج البيضاء ، وانطبقت السماء على الارض .
ووجد فلاديمير نفسه فى ارض فضاء ، وحاول عبثا ان
يعود الى الطريق ؛ كان الحصان يسير خطاً عشواً ،
فيغوص تارة فى كومة ثلج ، ويقع اخرى فى حفرة .
وكانت الزلاجة تنقلب كثيرا . جاهد فلاديمير ان يلتزم
الاتجاه الصحيح . ولكن بدا له ان اكثر من نصف ساعة
قد انقضى ، ولم يصل بعد الى حرش جادرينو . ومضى
نحو عشر دقائق اُخر ؛ والحرش لم يلح بعد لعينيه .
كان فلاديمير يسير فى حقل تتخلله وهدات عميقة . ولم
تهدا العاصفة الثلجية ، ولم تتكشف السماء . واخذ
الحصان يتعب ، وتصيب العرق من جسمه مدارا رغم
انه كان يغوص الى النصف فى الثلج من لحظة الى اخرى .
وفى آخر الامر عرف فلاديمير انه لا يسير الجهة
المقصودة ، فتوقف . وشرع يفكر ، ويتذكر ، ويتروى ،
• ترويك بالروسية عربة تجرها ثلاثة خيول .

(المترجم .)

وتيقن انه كان عليه ان يتجه يمينا . سار الى اليمين . وكان حصانه لا يكاد يسير . وكان قد امضى اكثر من ساعة ، وهو في الطريق . وكان ينبغي ان تكون جادرينو على مسافة غير بعيدة . ولكنه ظل يسير ، ويواصل السير ، وما للحقل من اخر . توالت اكوام الثلج والوهجات ؛ والزلاجة تنقلب من لحظة الى اخرى ، فكان يرفعها باستمرار . ومضى الوقت ، واخذ فلاديمير يقلق قلقا شديدا .

وفي آخر الامر لاحت معالم شيء في جانب . انعطف فلاديمير نحوه . ولما اقترب رأى حرشا . وفكر في نفسه : حمدا لله ، قَرُب المكان الآن . سار بمحاذاة الحرش آملا ان يعثر في اللحظة التالية على الطريق المألوف ، او يدور حول الحرش . وكانت جادرينو تقع وراء الحرش مباشرة . وبعد قليل اهتدى الى الطريق ، ودخل في عتمة اشجار عراها الشتاء . الريح هنا لم تكن قادرة على ان تستبد ، وكان الطريق ممهدا ، وردت بعض الحيوية الى الحصان ، وهذا فلاديمير .

الا انه ظل يسير ، ويسير ، وجادرينو لم تكن على مرأى البصر ، والحرش بلا آخر . وادرك فلاديمير بذعر انه دخل غابة غير معروفة له . وتملكه اليأس . وراح يسوط الحصان . انطلق الحيوان المسكين في عَدْوٍ سريع ، ولكنه سرعان ما تباطأ ، وبعد ربع ساعة تحول الى المشى ، رغم كل ما بذله فلاديمير البائس من جهد . واخذت الاشجار تقل شيئا فشيئا ، وخرج فلاديمير من الغابة ، وجادرينو لم تكن على مرأى البصر . لا بد ان الليل قد قارب الانتصاف . وطفرت الدموع من عينيه .

سار خبط عشواء . وقد هدا الجو ، وتبددت السحب ،
وانداح امامه سهل منبسط مفروش ببساط ابيض
متموج . كان الليل قد صفا كثيرا . وراى غير بعيد
عزبة صغيرة تتالف من اربعة او خمسة بيوت . سار
فلاذيمير اليها ، ونزل من الزلاجة عند اول بيت فيها ،
وهرع الى نافذة ، واخذ يطرقتها . وبعد بضع دقائق
ارتفعت الصفاقة الخشبية ، واخرج شيخ لحيته الشيباء :

- ما حاجتك ؟

- هل جادرينو بعيد ؟

- المسافة حتى جادرينو ؟

- نعم ، نعم ، هل هي بعيدة ؟

- ليست كثيرا ، زهاء عشرة فراسخ .

امسك فلاذيمير بشعره لدى سماعه هذا الجواب ،

وجمد مثل رجل حكم عليه بالموت .

تابع الشيخ قوله :

- من اين انت ؟

لم تكن في نفس فلاذيمير رغبة في ان يرد على

اسئلة . قال :

- هل في وسعك ، ايها الشيخ ، ان تحصل لى على

خيول تاخذنى الى جادرينو ؟

اجاب الشيخ :

- لا خيول عندنا .

- وهل لى ان اجد دليلا على الاقل ؟ سادفع له ما

يشاء .

قال الشيخ واطلق الصفاقة :

- انتظر . سأبعث ولدى معك ، وسيدلك .

اخذ فلاديمير ينتظر . وقبل ان تنقضى دقيقة شرع يطرق من جديد . ارتفعت الصفاقة . وظهرت اللحية :

- ما حاجتك ؟

- اين ولدك ؟

- سيخرج الآن . انه يلبس حذاءه . هل انت تشعر ببرد ؟ ادخل وتدفا .

- شكرا ، اسرع في ارسال ولدك .

صرّ الباب ، وخرج فتى يحمل عصا ، وسار في المقدمة مشيرا تارة ، واجدا تارة اخرى الطريق الذى غطته اكوام الثلج . ساله فلاديمير :

- كم الساعة ؟

اجاب الفلاح الفتى :

- سيطلع الفجر عن قريب .

ولم ينبس فلاديمير بعد ذلك بكلمة واحدة .

صاحت الديكة ، وتنورت الدنيا حين وصلا الى جادرينو . كانت الكنيسة مقفلة . دفع فلاديمير للدليل ، وذهب الى القس . في فناء بيته لم تكن زلاجه «ترويك» هناك . وما من خبر كان في انتظاره !

ولكن لنعد الى العائلة الطيبة في نينارادوفو ، ولنر ماذا حدث هناك .

لا شيء .

استيقظ العجوزان ، وخرجا الى غرفة الجلوس . غفريلا غفريلوفيتش في طرطور الصنام وستره من الفانيلة . وبراسكوفيا بيتروفنا في جلباب منزلي مبطن بالقطن . وجلب السماور ، وارسل غفريلا غفريلوفيتش الوصيفة لتسأل ماريا غفريلوفا عن صحتها ، وكيف

قضت ليلتها . وعادت الوصيفة معلنة ان الانسة نامت
نوما سيئا ، ولكن حالها احسن الآن ، وانها ستاتي بعد
قليل الى غرفة الجلوس . وهذا ما كان ، فقد فتح
الباب ، واقبلت ماريا غفريلوفنا تحي اباها وامها .

سأل غفريلا غفريلوفيتش :

- كيف راسك ، يا ماشا ؟

اجابت :

- احسن ، يا ابي .

قالت براسكوفيا بيتروفنا :

- ربما سممك السخام بالامس ، يا ماشا .

اجابت ماشا :

- ربما ، يا امي .

وانقضى النهار بخير . الا ان حالة ماشا قد ساءت
في الليل . فارسلوا الى المدينة لاستدعاء الطبيب .
ووصل الطبيب عند المساء ، ووجد المريضة في هذيان .
وتبين انها مصابة بحمى حادة ، وبقيت المريضة
المسكينة على شفا القبر اسبوعين .

لم يكن احد في البيت يعلم بمشروع الهروب .
احرقت الرسالتان اللتان كانت قد كتبتهما في عشية
الهرب ، ولم تخبر وصيفتها احدا بشيء خوفا من غضب
السيد والسيدة . والتزم القس ، وضابط الفرسان
المتقاعد ، ومساح الارض المشورب ، والفارس الشاب
من الخيالة الخفيفة جانب الرزاة . وليس دون مقابل .
اما الحوذى تيريشكا فلم يحدث ان افضى بشيء زائد عن
اللزوم ، حتى وهو سكران . وهكذا كتم السر اكثر من
نصف دزينة من المتواطنين . الا ان ماريا غفريلوفنا

نفسها افشت السر في هذيان مستديم . ولكن كلماتها كانت متنافرة جدا ، حتى ان امها التي لم تغادر فراشها لم تستطع ان تفهم منها الا ان ابنتها كانت متممة بفلاديمير نيقولايفيتش ، وان الحب ، ربما ، كان السبب في مرضها . وتشاورت مع زوجها ، ومع بعض الجيران ، وفي آخر الامر انتهى الجميع الى قرار بالاجماع هو ان هذا كان حظ مارييا غفريلوفا ، على ما يبدو ، وان الانسان يتزوج من كتب له ان يتزوجه وان الفقر ليس نقيصة وان الانسان يعيش مع انسان وليس مع ثروة ، وما شابه ذلك . واحكام الاخلاق قد تكون مفيدة فائدة مذهلة في الاحوال التي نكون فيها غير قادرين على ان نبتكر تبريرا لانفسنا .

وخلال ذلك اخذت الأنة تمنائل الى الشفاء . وظل فلاديمير منقطعا عن بيت غفريلا غفريلوفايتش فترة طويلة ، لانه لم يعرف اى استقبال ينتظره . قرروا ان يستدعوه ويبلغوه بالخبر السار المفاجئ : الموافقة على الزواج . ولكن كم كانت دهشة اسحاب ضيعة نينارادوفو عظيمة حين تلقوا منه في الرد على دعوتهم رسالة شبه جنونية ! فقد ابلغهم ان قدمه لن تطا عتبة دارهم ابدا ، وطلب ان ينسوا البائس الذى يبقى الموت الامل الوحيد له . وبعد عدة ايام عرفوا ان فلاديمير قد رحل الى الجيش . وكان ذلك في عام ١٨١٢ .

ظلوا زمنا طويلا يكتمون هذا الخبر عن ماشا الناقية . ولم تكن ماشا تذكر فلاديمير قط . وبعد بضعة اشهر وجدت اسمه في عداد من ابلوا بلا ، حسنا قرب بورودينو وجرحوا جراحا بليغة . فاعمى عليها :

وخشى اهلها ان تعود الحمى اليها . الا ان الاغما ،
والحمد لله ، لم يخلف عواقب .

ونزلت بها فاجعة اخرى . فقد قضى غفريلا
غفريلوفيتش نجه ، وخلفها وريثة وحيدة للضيعة
كلها . الا ان الميراث لم يسر عنها ، فشاطرت
براسكوفيا بيتروفنا التعيسة مصابها عن اخلاص ،
منقسمة اليمين على الا تفارقها ابدا . وتركت كلتاها
نينارادوفو ، موطن الذكريات الاليمة ، وسافرتا لتعيشا
في ضيعة ن . . .

وفي هذه الضيعة ايضا حام الخطاب حول الانسة
الحلوة الثرية ، الا انها لم تعط احدا منهم اى امل .
كانت امها تقنعها احيانا بان تختار لها صاحبا ؛ الا ان
ماريا غفريلوفا كانت تهز راسها ، وتفرق في تفكير .
وكان فلاديمير قد فارق الدنيا ، فقد توفي في موسكو
عشية دخول الفرنسيين . وصارت ذكراه مقدسة عند
ماشيا ؛ وعلى اقل تقدير حرزت على كل شىء يذكرها به :
الكتب التى قراها ، ورسومه ، والنوطات والاشعار التى
استنسخها لها . وعندما عرف الجيران بكل ذلك ، اعجبوا
ببقائها على العهد ، وانتظروا بفضول البطل الذى لا بد
ان ينتصر ، اخيرا على الوفاء المفجع لارتميزا * العذراء .
وفي غضون ذلك انتهت الحرب مكللة بالمجد ،
وعادت افواجنا من خارج الوطن . وخرج الناس
لاستقبالها . وعزفت الموسيقى اناشيد البلدان المغلوبة

* ارتميزا هى ارملة القيصر موزول فى هليقرناس (اليونان
القديمة ، القرن الرابع قبل الميلاد) كانت تعتبر رمزا للروجة
الوفية . (الناشر .)

عليها Vive Henri — Quatre • والحنان الفالس
التيرولية ، ومعزوفات من اوبرا جوكوندا . والضباط
الذين خرجوا في الحملة ، وهم صبيان تقريبا ، عادوا
وقد نضجت رجولتهم في جو الحرب ، وهم يعلقون النياشين
في صدورهم . وكان الجنود يتحدثون فيما بينهم مرحين ،
تتخلل كلامهم كلمات المانية وفرنسية من حين لآخر .
فيا له من زمن لا ينسى ! زمن المجد والفرح الفاخر ! ما
اشد خفقات القلب الروسى حين كان يسمع كلمة وطن !
وما اعذب دموع اللقاء ! وبأى اجماع كنا نربط بين
مشاعر الفخر الشعبى والحب نحو القيصر ! ثم اية لحظة
عظيمة كانت للقيصر !

كانت النساء ، النساء الروسيات ، آنذاك لا
يُضارعن . اختفت برودتهن المألوفة . وكانت نشونهن
فتانة حقا ، حين كن يهتفن مرحى ! لدى استقبالهن
الظافرين .

والقمن القلنسوات في الهواء .

ومنّ من الضباط آنذاك لا يقر بانه كان مدينا
للمرأة الروسية بافضل واثمن جائزة ؟ . .
في ذلك الزمن الزاهى كانت ماريا غفرييلوفنا وامها
تعيشان في ولاية ك . . . ، فلم تريا كيف احتفلت
العاصمتان بعودة القوات . الا ان الفرحة العامة في
الاقضية والقرى ربما كانت اشد . فان ظهور ضابط في
تلك المناطق كان مهرجانا حقيقيا له ، والمعشوق في
ثياب مدنية سيبى الحظ الى جواره .
• عاش هنرى الرابع . (بالفرنسية .)

كنا قد ذكرنا ان ماريّا غفريلوفا ، رغم برودتها ، كانت محاطة بالخطّاب كالعادة . ولكن الجميع اضطروا الى التراجع حين ظهر في حصنها العقيد الجريح بورمين من سلك الفرسان ، وقد علق في عروته وسام غيورغى ، وران على وجهه شحوب لطيف ، كما قالت الاوانس هناك . كان في نحو السادسة والعشرين من العمر . وحضر في الاجازة الى ضيعة المجاورة لقرية ماريّا غفريلوفا . وقد فضلت ماريّا غفريلوفا كثيرا على الآخرين . كان استفراقها المعتاد يزايها في حضرته . لا يصح ان يقال انها كانت تغالزه ؛ ولكن لو لاحظ الشاعر سلوكها لقال :

• Se amor non è, che dunque...

كان بورمين ، في واقع الحال ، شابا لطيفا جدا .. وكان له ذلك العقل الذى يعجب النساء : عقل يتسم بالرزانة والملاحظة ، دون اى ادعاء ، مع مسحة من الدعابة غير المكترثة . وكان سلوكه مع ماريّا غفريلوفا بسيطا وعلى السجية . الا انه كلما قالت قولا او فعلت شيئا كانت روحه وبصره يتابعانها . كان ذا مزاج هادئ متواضع ، الا ان اشاعة سرت تؤكد انه كان فى احد الاوقات ماجنا مسرفا ، ولم يضر ذلك به فى نظر ماريّا غفريلوفا التى كانت (مع جميع الشابات عامة) تغفر الشقاوات التى تنم عن جراءة الرجل وتوقده .

ولكن اكثر . . . اكثر ما شغذ فضولها وخيالها (اكثر من رفته ، واكثر من عذوبة حديثه ، واكثر من شحوبه اللطيف ، واكثر من ذراعه المضمدة) هو صمت . ان لم يكن حبا لما هو اذن ؟ (بالايطالية .)

هذا الفارس الشاب . انها ما كانت لتستطيع ان تفكر انه قد اعجب بها كثيرا ؛ ومن المحتمل انه هو ايضا ، بما وهب من عقل وخبرة ، ما كان يستطيع ان يفضل انها كانت تخصه بعنايتها ، فكيف لم تره حتى الآن راكما على قدميها ، ولم تسمع منه بوحا لها بالحب ؟ ماذا كان يمنعه ؟ الوجل الذي لا ينفصل عن الحب الحقيقي ، ام هي الانفة او دلال زير نساء ؟ كان ذلك لغزا لها . بعد ان تروت في الامر قررت ان الوجل هو السبب الوحيد لذلك . وعزمت على تشجيعه باهتمام شديد ، وحتى بالرقه ، اذا اقتضت الظروف . واعدت له تدبيرا غير متوقع تماما ، وانتظرت بنفاد صبر لحظة المكاشفة الرومانسية . والسر ، مهما يكن نوعه ، ينقل على قلب المرأة دائما . وابتدأت عملياتها العسكرية بالنجاح المطلوب : على الاقل ، سقط بورمين في استغراق ، وكانت عيناه السوداوان تصوبان على مارييا غفريلوفا نارا حامية حتى بدا ان اللحظة الحاسمة وشيكة الوقوع . واخذ الجيران يتحدثون عن الزفاف ، وكأنه امر مفروغ منه ، وفرحت براسكوفيا بيترفونا الطيبة بان ابنتها عثرت اخيرا على عريس لائق .

وذات مرة كانت العجوز جالسة وحدها في غرفة الجلوس تستخير ورق اللعب ، حين دخل بورمين الغرفة ، وسال في الحال عن مارييا غفريلوفا . اجابت العجوز : «انها في الحديقة . اذهب اليها ، وسانتظركما انا هنا» . خرج بورمين ورسمت العجوز علامة الصليب ، وفكرت مع نفسها : يبدو ان الامر سينتهي اليوم !

وجد بورمين مارييا غفريلوفا تحت شجرة صفصاف

عند البركة ، وفي يديها كتاب ، وقد ارتدت فستانا ابيض ، مثل بطلة روائية حقيقية . وبعد الاسئلة الاولى كفت ماريا غفريloffنا عن مجاذبة الحديث عامدة ، لتزيد بذلك الارتباك المتبادل الذي لا يمكن التخلص منه الا بمصارحة مفاجئة حاسمة . وهذا ما حصل : فان بورمين ، وقد شعر بحراجة موقفه ، اعلن انه كان يتحين منذ وقت طويل فرصة ان يفتح قلبه لها ، وطلب ان تصفى اليه لحظة . اغلقت ماريا غفريloffنا الكتاب ، واطرقت امامة على الموافقة .

قال بورمين : «انا احبك ، متيم بك . . .» (توردت ماريا غفريloffنا ، وزادت من اطراقة رأسها .) «تصرفت بلا حذر ، وانا استسلم لعادة حلوة ، عادة ان اراك واسمع صوتك كل يوم . . .» (تذكرت ماريا غفريloffنا رسالة St-Preux • الاولى .) «والآن فات الاوان لمقاومة نصيبي ؛ ذكراك ، صورتك الفريدة الحبيبة ستكون منذ اليوم عذابا وفرحا لحياتي . ولكن بقى على ان اقوم بواجب صعب ، ان اكشف لك عن سر رهيب ، وان اضح بيننا عقبة منيعة . . .» افلتت من ماريا غفريloffنا بحيوية : «انها كانت موجودة دائما . وما كان في وسمى ان اكون زوجتك قط . . .» اجابها بخفوت صوت : «اعرف ، اعرف انك كنت تحبينه ولكن موته وثلاثة اعوام من الحزن . . . يا ماريا غفريloffنا الطيبة الحبيبة ! لا تحاولي ان تحرميني من عزائي الاخير : التفكير بانك من الممكن ان توافقى على اسمعدي لو لا . . . اسكتي ، بحق الرب ، اسكتي . انك تعذبيننى .

• سانت-بريه . (بالفرنسية .)

نعم ، انا اعرف ، اشعر بان من الممكن ان تكونى لى ،
ولكننى اتعس مخلوق . . . انا متزوج !»
حدقت ماريا غفريلوفا فيه منذهلة .
وتابع بورمين كلامه :

- انا متزوج ، متزوج منذ اربعة اعوام ، وانا لا
اعرف مَنْ زوجتى ، ولا اين هى ، وهل سالتقى بها يوما
ما !

هتفت ماريا غفريلوفا :

- ماذا انت قائل ؟ ما اغرب ذلك ! تابع كلامك ؛
وساخبرك فيما بعد . . . تابع ، ارجوك .
قال بورمين :

- فى بداية عام ١٨١٢ هرعت الى فيلنو ، حيث كان
فوجى . وذات مساء وصلت الى المحطة فى ساعة متأخرة ،
فطلبت ان تعد الخيول سريعا ، واذا بعاصفة ثلجية
مريعة تهب فجأة . فنصحنى المراقب والحوذية بان
اتريث . فاستجيت لكلامهم ، الا ان قلقا غامضا استبد
بى ، كان شخصا كان يدفعنى دفعا . وفى غضون ذلك
لم تهدا العاصفة الثلجية ؛ ولم اصطبر ، وطلبت ثانية
ان تعد الخيول ، وخرجت فى قلب العاصفة . عنّ للحوذى
ان يسير بمحاذاة النهر الذى كان يجب ان يختصر طريقنا
مسافة ثلاثة فراسخ . كانت شواطئه مخفية ، وفات
الحوذى بالموضع الذى كان يجب ان نخرج منه الى
الطريق ، وبذلك وجدنا انفسنا فى ناحية غريبة . كانت
العاصفة لم تهدا بعد ، ولمحت ضوءا ، فطلبت منه ان
يتجه اليه . ودخلنا قرية ، وراينا الضوء مشتعلا فى
كنيسة خشبية . وكانت الكنيسة مفتوحة ، ووراء السياج

بعض الزلاجات . وكان الناس يسرون في رواق الكنيسة . وصاحت عدة اصوات : «الى هنا ! الى هنا !» . طلبت من الحوذي ان يقترب . قال لي احد الناس : «عجبا اين ضمت ؟ العروسة في غيبوبة ، والراهب لا يعرف ماذا يفعل . وكنا نهم بان نعود ادراجنا . اسرع .» . قفزت من الزلاجة صامتا ، ودخلت الكنيسة المضاءة بشمعتين او ثلاث ضوا باهتا . كانت فتاة تجلس على مصطبة في ركن من الكنيسة مظلم ؛ وكانت فتاة اخرى تفرك لها صدغيها . قالت هذه : «حمدا لله انك جئت اخيرا . كادت الانسة تموت» . واقترب القس العجوز مني سائلا : «قل لي هل نبدا ؟» اجبت انا في ذهول : «ابدا ، ابدا ، يا ابانا» . وانهضوا الفتاة . فرايتها جميلة . . . نزق مبهم لا يغتفر . . . وقلت الى جنبها امام مقرا الكتاب المقدس ؛ وكان القس على عجلة من امره ؛ وكان ثلاثة رجال ووصيفة يسندون العروسة ، وينشغلون بها وحدها . وعقيد قراننا . وقالوا لنا : «تبادلا القبل» . حولت زوجتي الى وجهها الشاحب . وهممت بتقبيلها . . . واذا بها تصرخ «ياه ، ليس هو ! ليس هو !» ، واغمى عليها . سدد الشهود على عيونهم المدعورة . استدرت ، وخرجت من الكنيسة ، دون ان يعترضني احد ، والقيت نفسي في العربة ، وصحت «انطلق !»

صاحت ماريا غفريلوفنا :

- يا الهى ! وانت الا تعرف ماذا حصل لزوجتك

المسكينة ؟

اجاب بورمين :

- لا اعرف ، لا اعرف اسم القرية التي تزوجت فيها ، ولا اتذكر المحطة التي جئت منها . في ذلك الوقت لم اُول اعتبارا كبيرا لشقاوتى الائمة حتى اننى غفوت بعد مغادرتى الكنيسة ، واستيقظت في صباح اليوم التالى ، وانا في المحطة الثالثة . والخدم الذى كان معى آنذاك مات اثناء الحملة ، ولهذا فليس لى حتى امل العثور على تلك التي عبثت معها هذا العبث القاسى ، فانتقمتم الآن هذا الانتقام القاسى .

قالت ماريا غفريلوفا ، وهي تمسك يده :

- يا الهى ، يا الهى ! اذن ، كنت انت ا وانت

لا تعرفنى !

شعب بورمين . . . وارتمى على قدميها . . .

صانع التوابيت

السنا نرى في كل يوم توابيت
والعوالم الهرمة المتهاقطة ؟
(من قصيدة درجالين والشلال ، ٠)

القيت الامتعة الاخيرة العائدة لصانع التوابيت ادريان بروخوردوف في عربة النعش ، وجرجر الفرسان الهزيلان نفسيهما للمرة الرابعة من شارع بسمانتايا الى شارع نيكييتسكيا ، حيث انتقل صانع التوابيت بكل اهله . بعد ان اغلق دكانه ، وعلق على البوابة اعلانا يعلن فيه ان البيت معروض للبيع وللإيجار ، سار ماشيا الى سكنه الجديد . واذا كان صانع التوابيت المسن يقترب من البيت الصغير الاصفر الذي ظل طويلا يداعب خياله ، حتى اشتراه اخيرا بمبلغ لا يستهان به ، شعر بدهشة ان قلبه لم يفرح . عبر العتبة الجديدة عليه ، وراى مسكنه الجديد في فوضى ، فتحسر على كوخه المتداعي ، حيث كان كل شيء خاضعا لادق نظام خلال ثمانية عشر عاما ؛ واخذ يشتم ابنتيه ، والخادمة على بطئهن ، وراح يساعدهن بنفسه . وبعد قليل استقر النظام واحتل صوان الايقونات ، ودولاب للوانى ، ومنضدة ، واريكة ، وسرير اركانها المعينة في الحجرة الخلفية ؛ ووضعت في المطبخ وغرفة الجلوس مصنوعات رب البيت : توابيت من مختلف الالوان وشقى الحجم ،

ودواليب تضم قبعات حداد ، وعباءات ، ومشاعل .
وعُلقت فوق البوابة لافتة تصور إله الحب الضخم
والمشعل منقلب في يده ، وقد كتب عليها : «هنا تباع
وتبطن توابيت من مختلف الانواع ، بسيطة وملونة ،
كما تؤجر التوابيت وتصلح التوابيت القديمة» . خرجت
الفتيات الى حجرتهن ، وطاف صانع التوابيت في بيته ،
وجلس عند النافذة وامر ان يعد السماور .

يعرف القارى' المطلع ان شكسبير ووالتر سكوت
كليهما صورا في مؤلفاتهما حفارى القبور اناسا مرحين
اصحاب نكتة ، لكى يثير هذا التناقض خيالنا على نحو
اشد . واحتراما للحقيقة لا نستطيع نحن ان نجاريهما ،
ونحن مضطرون الى الاعتراف بان خلق صانع توابيتنا
كان يتفق تمام الاتفاق مع مهنته الكثيبة . كان ادريان
بروخوروف فى المادة جهم الاسارير ، غارقا فى افكاره .
فكان لا يخرج عن الصمت الا حين يوبخ ابنتيه ، عندما
كان يجدهما تنظران فى النافذة الى المارة دون عمل ، او
حين يطلب ثمنا فاحشا على مصنوعاته من اولئك الذين
حلت بهم مصيبة (واحيانا لذة) الاحتياج اليها . وهكذا
كان ادريان ، على عادته ، غارقا فى تأملاته الكثيبة ،
وهو جالس عند النافذة يرشف القدح السابع من
الشاي . كان يفكر فى المطر المدرار الذى اصاب ، قبل
اسبوع ، موكب تشييع عميد متقاعد ، عند بوابة المدينة
تماما . ومن جراء ذلك انكششت عبااءات كثيرة ، وتجمعت
قبعات عديدة . وكان يتوقع مصاريف لا محيص عنها ،
لان مخزونه القديم من الحلل الجنائزية كان فى حالة
پرئى لها . وكان يامل ان يقطع الضرر من التاجرة المعجز

تريوخينا ، التي كانت على حافة الموت من عام تقريبا .
الا ان تريوخينا توفيت في شارع رازغولاي ، وكان
بروخوروف يخشى ان يتكاسل ورثتها ، رغم وعدهم ،
فلا يرسلون في طلبه من هذه المسافة الطويلة ، وان
يتعاملوا مع اقرب مقاول اليهم .

وقطعت هذه الافكارَ ثلاث ضربات فرائداسوية •
مباغثة على الباب . سال صانع التوابيت : «من هناك ؟»
ففتح الباب ودخل الى الحجرة رجل يمكن ان يعرف ، من
النظرة الاولى ، انه حرفي الماني ، واقترب من صانع
التوابيت بمظهر مرح ، وقال بلغة روسية لا نستطيع
حتى الآن ان نسميها دون ان نضحك : «العذر ، يا جاري
الطيب ، العذر على ازعاجك . . . رغبت ان اتعارف معك
في وقت اسرع . انا اسكاف ، واسمى غوتليب شولتس ،
واسكن قبالتك من الشارع ، في ذلك البيت الصغير
المقابل لنوافذك . وغدا ساحتفل بعيد زواجي الخامس
والعشرين ، وانا ادعوك وابنتيك الى تناول طعام الغدا ،
عندي كاصدقاء» . وقبلت الدعوة قبولا حسنا . دعا
صانع التوابيت الاسكاف الى احتساء قدح من الشاي .
وسرعان ما اخذ الرجلان يتجاذبان الحديث الودي بفضل
مزاج غوتليب شولتس المنبسط . سال ادريان : «كيف
شغل حضرتك ؟» اجاب شولتس : «بين بين . لا يمكنني
ان اشكو . رغم ان بضاعتي ليست مثل بضاعتك ،

• نسبة ال الكلمة الفرنسية لجمعية عالمية سرية بهذا
الاسم . والضربات الثلاث على الباب احدى شعارات هذه الجمعية .
(المترجم .)

طبعا . فالحي يستطيع ان يستغنى عن الحذاء ، بينما الميت لا غنى له عن تابوت» . فلاحظ ادريان قائلا : «نعمّ الحق . ولكن اذا كان الحي لا يستطيع ان يشتري حذاء ، ويستطيع ، وارجو المعذرة ، ان يمشى حافيا ، فان الميت الفقير سيحصل لنفسه على تابوت بالمجان» . واستمر الحديث بينهما بهذه الصورة بعض الوقت حتى نهض الاسكاف اخيرا ، وودّع صانع التوايت معيدا عليه دعوته .

وفي تمام الساعة الثانية عشرة من اليوم التالى خرج صانع التوايت وابنتاه من باب سياج البيت المشتري حديثا ، واتجهوا الى جارهم . وانا لا اريد ان اصف لا القفطان الروسى الذى ارتداه ادريان بروخوروف ، ولا الزى الاوروبى الذى ارتدته اقولينا وداريا ، متخليا في هذه الحال عن العادة المتبعة لدى الروانيين اليوم . وافترض ، على كل حال ، ان ليس من فضول القول ان يذكر ان كلتا الأناستين كانت ترتدى قبعة صفراء ، وحذاء احمر ، وكانت هذه زينتهما في الاحتفالات وحدها . كانت شقة الاسكاف الصغيرة غاصة بالضيوف ، ومعظمهم حرفيون المان مع زوجاتهم ومعاونيهم . ولم يكن حاضرا من الموظفين الروس غير شرطى كشمك خفارة ، وهو الفنلندى يوركو ، كانت له قدرة على كسب ود رب البيت بشكل خاص ، رغم ضآلة رتبته . وقد خدم خمسة وعشرين عاما في نفس الرتبة باخلاص وانصاف مثل شخصية ساعى بريد لبوغوريلسكى . وكان حريق عام ١٨١٢ قد اتى على كشمكه الاصفر ايضا بعد

ان قضى على العاصمة * . ولكن ما ان طرد العدو حتى ظهر في مكانه كشك جديد رمادي له اعمدة صغيرة بيضاء على الطراز الدورى . وعاد يوركو ثانية يروح ويجيء بالقرب منه مسلحا ببلطة حربية ، ومزودا بسترة جوخ . وكان يعرف طائفة كبيرة من الالمان الذين كانوا يعيشون بالقرب من بوابة نيكييتسكيه ، بل وكان بعضهم يصادف ان يقضى عنده ليلة الاحد على الاثنين . تعرف ادريان عليه في الحال ، كشخص قد يحتاج اليه عاجلا او آجلا ، وحينما دُعي الضيوف على المائدة ، جلسا سووية . وكان السيد والسيدة شولتس وابنتهما لوتغن ، وهى فى السابعة عشرة يتغدون مع الضيوف ، ويقدمون اليهم اطباق الطعام ، وفى الوقت ذاته يساعدون الطباخة فى الخدمة . صبت الجعة بفزارة . واكل يوركو ما يشبع اربعة اشخاص ؛ ولم يكن ادريان باقل منه اكلا ؛ وخجلت ابتناه ؛ وصار الكلام بالالمانية يزداد صخبا من ساعة الى اخرى . وفجأة طلب رب البيت انتباه الحضور ، وهتف بالروسية وهو يفتح سداد زجاجة مفتومة : «فى صحة زوجتى الطيبة لويزا !» وارسل نبيد كالشمبانيا زبده . وقبل المضيف برقة وجه زوجته الفضى ، وهى فى الاربعين من عمرها ، وشرب الضيوف فى صخب نخب صحة لويزا الطيبة . وهتف المضيف ، وهو يفتح سداد الزجاجة الثانية : «فى صحة ضيوفى الطيبين !» وشكره الضيوف ، وهم يفرغون كؤوسهم من جديد . وبعد ذلك اخذت الانخاب تتوالى واصدا بعد * يقصد موسكو فى حريق ١٨١٢ اثناء حملة نابليون .

(المترجم .)

الأخر . شربوا نخب صحة كل ضيف على حدة ، وشربوا نخب موسكو ، ومجموعة من المدن الألمانية ، وشربوا نخب اتحادات الحرفيين مجموعة ، وعلى حدة ، وشربوا نخب الصناع ، واعوان الصناع . وشرب ادريان بحماس ، وغلبه المرح حتى اقترح بنفسه نخباً من الانخاب المارحة . وفجأة رفع احد الضيوف ، وهو خباز سمين ، قدحه ، وهتف : «في صحة الذين نعمل لهم ! unserer Kundleute » وحظى الاقتراح بفرح واجماع ، مثل جميع الانخاب . واخذ الضيوف يتبادلون التحيات الخياط للاسكاف ، والاسكاف للخياط ، والنخباز لكليهما ، والجميع للخباز ، وعلى هذا المنوال . وهتف يوركو وسط هذه التحيات مخاطباً الجالس الى جنبه : «اذن ؟ اشرب ، يا صاحبي ، في صحة موتاك» . وقهقه الجميع . ولكن صانع التوابيت اعتبر نفسه قد اهن ، وتجهّم . ولم يلاحظ احد ذلك ، واستمر الضيوف في شربهم ، ولم ينهضوا من المائدة الا حين دقت اجراس الكنائس تدعو الى صلاة المساء .

تفرق الضيوف في ساعة متأخرة ثملين في جزئهم الاعظم . وامسك الخباز السمين ومجلد الكتب الذي كان وجهه

مثل سفر مجلد بجلد احمر ،

يوركو ، وحمله من تحت ابطيه الى كشكه ، مراعين في الوقت ذاته المثل الروسي القائل : الدين يُرد بمثله . وعاد صانع التوابيت الى بيته سكران وغضببان . وناقش

• زبانتا . (بالألمانية .)

بصوت مسموع : «ما الذى يجعل مهنتى اسوا من
 الاخريات ؟ وهل صانع التوابيت صنو الجلاد حقا ؟
 لماذا اضحك هؤلاء الكفار ؟ احق ان صانع التوابيت
 مضحك الاعياد ؟ وددت ان ادعوهم لحفلة تدشين بيتي
 الجديد ، واولم لهم وليمة فاخرة ، ولكن لن يحصل ، لا
 بهم : سادعو الذين اعمل لهم : الموتى المؤمنين» . قالت
 الخادمة التى كانت تخلق حذاءه آنذاك «ما هذا ، يا
 صاحبى ؟ ما هذا السخف ؟ استغفر الرب ! تدعو الموتى
 لتدشين البيت ! يا لها من نزوة !» فاستمر ادريان يقول
 «والرب العظيم ، سادعوهم ، فى يوم غد بالذات .
 ارجوكم ، يا اصحابى البررة ، غدا ، ساولم لكم فى
 المساء ، اضيفكم على ما يرزق الرب» . وبهذه الكلمة
 اوى صانع التوابيت الى السرير ، وسرعان ما شخر .
 واوقف ادريان والظلام ما يزال متلبدا . فقد كانت
 التاجرة تريوخينا قد قضت نحبها فى نفس الليلة ، وهرع
 رسول من وكيلها على فرس ليبلغ ادريان النبا . ولقاء
 ذلك قدم له صانع التوابيت عشرة كوبيكات ليشرب
 الفودكا ، واسرع هو فى ارتداء ملابسه ، واستاجر عربة
 وتوجه الى شارع رازغولاي . كان شرطى قد وقف عند
 باب المتوفية ، والتجار رائعون وغادون مثل غربان
 تشممت فطيسة . وكانت المتوفاة مسجاة على منضدة ،
 صفراء كالشمع ، ولكن لم يشوهها التعفن بعد . وكان
 الاقارب والجيران واهل البيت يتزاحمون حولها . وكانت
 النوافذ كلها مفتوحة ؛ والشموع مضاءة ؛ والقسس
 ينشدون التراتيل . اقترب ادريان من ابن اخى
 تريوخينا ، وهو تاجر شاب يرتدى سترة عصرية

طويلة ، واعلن له ان التابوت ، والشموع ، وغطاء التابوت ، ولوازم الدفن الاخرى سترسل له في الحال على اكمل وجه . شكره الوريث ذاهلا ، بعد ان قال انه لا يماحك في السمر ، وانه سيعتمد على ضميره في كل شىء . فاقسم صانع التوابيت ، كعادته ، على انه لن ياخذ زيادة ؛ وتبادل نظرة ذات دلالة مع الوكيل ، وانصرف لشأنه . وقضى النهار كله بين رواح ومجىء من شارع رازغولاي الى بوابة نيكييتسكيه ؛ ولما حل المساء كان قد دبّر كل شىء ، وقفل راجعا الى بيته ماشيا بعد ان صرف سائق عربته . كان الليل مقمرا ، ووصل صانع التوابيت بوابة نيكييتسكيه سالما . وعند كنيسة خميس الصعود ناداه صاحبا يوركو ، وبعد ان عرف انه صانع التوابيت تمنى له ليلة سعيدة . كان الوقت متاخرا ، وكان صانع التوابيت يقترب من بيته ، حين احس فجأة بان شخصا يدنو من باب بيته الخارجى ، ويفتحة ، ويختفى فيه . فكر ادريان مع نفسه «ما معنى هذا ؟ مَنْ هو بحاجة الىّ بعد ؟ ام ذاك لص تتسلل الىّ ؟ ام العشاق ياتون الى ابنتى الحمقاوين ؟ محتمل !» وفكر صانع التوابيت ان يستصرخ بصاحبه يوركو لينجده . وفى تلك اللحظة اقترب شخص آخر من الباب ، وهمّ بالدخول ، الا انه توقف حين رأى رب البيت يركض ، وخلع قبعته المثلثة . وبدا وجهه لادريان مألوفا ، ولكنه لم يلحق لمجالته ان يعن النظر فيه . قال ادريان لاهت الانفاس : «اهلا ومرحبا بكم فى دارى . ادخل ، ارجوك» . فقال الرجل بصوت خافت : «لا حاجة الى المجاملة ، يا صاح ، سر فى المقدمة ، ودلّ الضيوف

على الطريق !» ولم يكن ادريان بحاجة الى مجاملة قط .
كان الباب مفتوحا ، فأرتقى ادريان الدرج ، والرجل
وراءه . وخيل الى ادريان ان اناسا يطوفون في الحجرات .
وفكر مع نفسه «يا للعجب !» واسرع في الدخول . . .
واذا برجليه تخونانه . كانت الحجرة مملوءة بالموتى .
وكان القمر من خلال النافذة ينير وجوههم الصفراء
والزرقاء ، وافواههم الغائرة ، وعيونهم المربدة نصف
المفتوحة ، وانوفهم البارزة . . . وعرف ادريان في
شخصهم مذعورا اولئك الذين دفنهم بمساعيه ، وكان
الرجل الذي دخل معه هو العميد الذي دفن اثناء المطر
المدرار . واحاطوا جميعا ، نساء ورجالا ، بصانع
التوابيت محيين مرحبين ، ما خلا فقيرا واحدا كان قد
دفنه مجانا قبل وقت قصير لم يقترب منه حيبا خجلا من
اسماله ، وظل واقفا في الزاوية وديما . اما الباقيون
فكانوا يرتدون البسة لائقة : المتوفيات معتمرات
بقلائس ذات شرائط ، والموظفون الموتى ببيزاتهم
الرسمية ، الا انهم بلحي غير مشذبة ، والتجار في قفاطين
الاعیاد . قال العميد نيابة عن الحضور : «ها انت ترى ،
يا بروخوروف ، اننا نهضنا لدعوتك ؛ ولم يبق في الدار
غير الذين لا حول لهم ، والذين تفسخوا كليا ، ولم يبق
غير العظم بلا جلد ، وحتى بين هؤلاء لم يصطبر احدهم
ورغب في ان يزورك . . .» وفي هذه اللحظة انسل هيكل
عظمي صغير من خلال الحشد ، واقترب من ادريان .
كانت جمجمته تبتسم لصانع التوابيت ابتسامة رقيقة .
وكانت مزق من الجوخ الاخضر اليانع والاحمر والكتان
الرث تتدلى عليه ، وكأنها على عصا ، وعظام قدميه

تططق في حذاء ركوب طويل ، مثل يد هاون في هاون .
وقال الهيكل العظمى : «انت لم تعرفني ، يا بروخوروف ،
اتذكر رقيب الحرس المتقاعد بيتر بيتروفيتش
كوريلكين ، الذي بعث له في عام ١٧٩٩ اول تابوت من
صنعك وقلت انه من خشب البلوط بينما هو من
الصنوبر ؟» وبهذه الكلمة بسط الميت له ذراعيه
العظمتين ، الا ان ادريان جمع قواه ، وصرخ ، ودفعه .
ترنح بيتر بيتروفيتش ، ووقع متهاقنا قطعاً .
سرت بين الموتى همهمة الاستياء ، ووقفوا جميعاً يذبون
عن شرف صاحبهم ، وانهاالوا على ادريان بالشتائم
والوعيد ، وخارت عزيمة رب البيت المسكين الذي اصمه
صياحهم ، وكاد يسحق ، فوقع هو ايضا على عظام رقيب
الحرس المتقاعد ، وفقد وعيه .

كانت الشمس قد اضاءت منذ وقت طويل السرير
الذي كان يرقد عليه صانع التوابيت . وفي آخر الامر
فتح عينيه ، وراى الخادمة امامه تنفخ في السماور .
وتذكر ادريان بذعر كل احداث الامس . وكانت تتراى
في خياله تريوخينا ، والعميد ، والرقيب كوريلكين
بشكل باهت . وانتظر صامتاً ان تبدأ الخادمة بالحديث
معه ، وتبلغه بعواقب مغامرات البارحة .

قالت اكسينيا ، وهي تقدم له المبذل :

- نمت نوماً طويلاً ، يا سيدنا ادريان
بروخوروفيتش . زارك جارك الخياط ، وجاء شرطى
الخفارة في الكشك القريب ليبلغك ان اليوم هو عيد
ميلاد رئيس مركز الشرطة في منطقتنا ، ولكن رحمت نائما
فلم نرد ان نوقظك .

- هل جاء احد الى من بيت المرحومة تريوخينا ؟
- مرحومة ؟ احق انها ماتت ؟
- يا لك من حمقاء ! الم تساعديني انت البارحة في الاعداد لجنازتها ؟
- ما هذا الذى تقوله ؟ هل اصابك مس ، ام سكر البارحة لم يزايلك بعد ؟ اية جنازة كانت البارحة ؟
- قضيت نهارك كله فى وليمة الالمانى ، وعدت سكران ، وارتيمت فى السرير ، ونمت حتى هذه الساعة ، وقد حل الضحى .
- فمغم صانع التواييت فرحا :
- حقا !
- اجابت الخادمة :
- مؤكد .
- اذن ، قدمى الشاى سريعا ، ونادى على ابنتى .

ناظر المحطة •

موظف من درجة دنيا
دكتاتور لمحطة الخيول .
(من قصيدة «المحطة» للامير فيازيمسكى .)

مَنْ لم يلعن نظار المحطات ، ومن لم يتبادل
السياب معهم ؟ ومن لم يطلب منهم ، في ساعة غضب ،
سجل الشكاوى ليسجل فيه شكواه غير المجدية على
الاستبداد ، والغلظة والتقصير ؟ ومن لا يعتبرهم
غيلان الجنس البشرى يسلكون مسلك الموظفين الراحلين
للمحاكم او قطاع الطرق من مشارف موروم على الاقل ؟
ومع ذلك فسنكون منصفين ، ونحاول ان نتفهم وضعهم ،
وربما سنحكم عليهم حكما اكثر هوادة . ما هذا الذى
يسمى ناظر المحطة ؟ انه شهيد حقيقى من الدرجة الرابعة
عشرة حسنته وظيفته من الضربات الجسدية فقط ،
وحق هذا ليس دائما (مستشهدا بضمير قرائى) . وماهى
وظيفة هذا الدكتاتور ، كما يسميه الامير فيازيمسكى
مازحا ؟ اليست اشغالا شاقة حقيقية ؟ لا راحة في نهار
ولا في ليل . المسافر يصب كل غضبه الذى تجمع خلال
السفر المضجر على ناظر المحطة . والطقس لا يطاق ،
والطريق وعرة ، والسائق عنود ، والخيول لا تجر ،
• المقصود بـ ذلك محطة خيول . (المترجم .)

ولكن ناظر المحطة هو المذنب . والمسافر ، اذ يدخل بيته البانس ، ينظر اليه ، وكأنه ينظر الى عدو ؛ ولطيف لو استطاع ان يتخلص بسرعة من هذا الضيف غير المدعو ؛ ولكن المعاذ بالله ! اذا لا توجد خيول ؟ . . اية شتائم ، واية تهديدات تنصب على راسه ! وهو في المطر وفي الوحل مضطر الى ان يركض متنقلا من بيت الى بيت ، يخرج من البيت الى الرواق في زمهرير الشتاء اثناء العاصفة الثلجية والصقيع الفارس ليستريح لدقيقة من الزمن من صياح النازل المحنق ودفعاته . وحين ياتي جنرال يقدم ناظر المحطة المرتجف الخيول الاخيرة ومن بينها تلك الخيول السريعة المعدة خاصة لسعاة الحكومة . ويفادر الجنرال دون كلمة شكر . وبعد خمس دقائق يرن جرس ا . . واذا بساعي الحكومة يلقي على طاولته امرا باستبدال الخيول ا . . . عندما نتروى بكل ذلك جيدا ، تمتلئ قلوبنا بالالم الصادق ، بدلا من الفيظ . ثم لنقل بعض الكلمات الاخرى : خلال عشرين عاما متوالية طوّقت في روسيا في كل حدب وصوب ؛ وعرفت طرق السفر البريدية كلها تقريبا . وتعرفت على بضعة اجيال من سائقي العربات ؛ واكاد اعرف كل الحوذية في وجوههم ، ونادرا ما لم اتعامل مع احد من نظار محطة . وانا آمل ان انشر ذخيرتسى الطريفة من مشاهداتي في اسفارى في وقت ليس بالبعيد ؛ واكتفى الآن بالقول ان فئة نظار المحطات تصور اكذب تصوير لدى الراى العام . ان نظار المحطات هؤلاء المفترى عليهم هم ، في جوهر الامر ، اناس وديمون خدومون بالطبيعة ، ميالون الى العشرة ، متواضعون في

مطامحهم في الاحترام ، وغير مسرفين في حب المال . ومن احاديثهم(التي ينفر منها السادة المسافرين مع الاسف) يمكن استخلاص الكثير من الاشياء الطريفة والتهذيبية . اما بالنسبة لي ، فانا اعترف باننى افضل حديثهم على احاديث موظف من الدرجة السادسة ، ذاهب في مهمة رسمية .

من الممكن العدس بسهولة ان لي اصحابا من فئة نظار المحطات المحترمة . والحق ان ذكرى واحد منهم عزيزة على . وقد شامت الظروف ذات يوم ان تقرب بينى وبينه ، وانا اود الآن ان احدث القراء الافاضل عنه .

في شهر ايار من عام ١٨١٦ كان على ان امر عبر ولاية س . . . ، في طريق مهدم الآن . وكنت في وظيفة صغيرة ، فكنت اسافر في عربة استبدال في المحطات . كنت ادفع اجرة استبدال حصانين . وتبعاً لذلك كان نظار المحطات يرفعون الكلفة معى ، فغالبا ما كنت آخذ بالعراك ما كنت اعتبره حقا لي . ولما كنت شابا حاد المزاج كنت احنق على دناءة ناظر المحطة وجفائه حين كان هذا يعطى الخيول المعدة لي لتشد الى عربة موظف من الطبقة الراقية . كما بقيت زمنا طويلا غير متعود على ان يتخطانى خادم فطن عن قصد ليقدم الطعام الى من هم اعلى رتبة منى اثناء الغداء على مائدة الحاكم . واليوم يبدو لي هذا وذاك من طبيعة الاشياء . وفي الواقع ماذا سيكون معنا لو استبدلت العادة المتعارف عليها القائلة :
المنزلة حسب الرتبة بأخرى من مثل المنزلة حسب

العقل ؟ واية مناقشات ستنشأ ! وبمن سيبدأ الخدم في تقديم الطعام ؟ ولكن لاعد الى قصتي .

كان النهار حارا . وعلى بعد ثلاثة فراسخ من محطة ب . . . بدأت السماء تزد رذاذا ، وبعد بضع دقائق كان المطر المدرار قد بللنى الى آخر خيط في ملابسى . وعند وصولى الى المحطة كان اول شغل لى هو استبدال ملابسى باسرع وقت ، والثانى طلب احضار الشاى . صاح ناظر المحطة : «دونيا ! اعدى السماور ، ثم اذهبى لاحضار القشطة» . وبهذه الكلمات خرجت من وراء الحاجز فتاة فى حوالى الرابعة عشرة ، وركضت الى الرواق . بهرنى جمالها . فسالت ناظر المحطة : «اهذه ابنتك ؟» اجاب بقدر كاف من الزهو : «انها ابنتى . ثم انها مدبرة ، خفيفة الحركة ، مثل المرحومة امها تماما» . وبعد ذلك اخذ يسجل الامر الذى احملة لاستبدال الخيول ، واخذت انا انشغل بالتطلع الى الصور التى كانت تزين مسكنه المتواضع ، والنظيف فى الوقت ذاته . وهى صور تصور قصة الابن الضال : فى الصورة الاولى الشيخ المؤقر فى طرطور ومبذل منزلى وهو يفسح الطريق لشاب يادى الانفعال ، عجولا فى تلقى بركاته وكيس النقود . والصورة الثانية تصور بخطوط ساطعة سلوك الفتى الداعر : فهو جالس الى مائدة محاطا باصدقاء مزيين ونساء مستهترات . وفى اخرى الفتى الذى بنر ثروته فى رداء خشن وقبعة مثلثة يرعى الخنازير ، ويقاسمها الطعام ؛ وقد ارتسم على وجهه الحزن العميق والندم . واخيرا صورة عودته الى ابيه ؛

الشيخ الطيب في نفس الطرطور والمبذل المنزلي يهرع للقياء : الابن الضال العائد راكع على ركبتيه ؛ وفي المشهد يظهر الطاهي ينحر عجلا سمينا ، والاخ الكبير يسأل الخدم عن سبب هذا الفرح . وقرات تحت كل صورة اشعارا المانية معتبرة . وكل ذلك قد انطبع في ذاكرتي حتى اليوم ، مثلما انطبعت القدور بزهورها المنزلية ، والسرير بستارته الزاهية ، وغير ذلك من الاشياء التي احاطت بي آنذاك . وارى ، وكأنه الآن ، رب البيت نفسه ، وهو رجل في الخمسين من العمر ، غضا نشيطا ، وسترته الطويلة الخضراء تتدلى عليها ثلاث مداليات في اشربة ناصلة اللون .

وقبل ان انتهى من دفع الاجرة لسائقى القديم عادت دونيا تحمل السماور . ومن النظرة الثانية لاحظت المليحة الصغيرة التأثير الذى تركته في ؛ غضت عينيها الزرقاوين الكبيرتين ؛ واخذت اتحدث اليها ، فكانت ترد دون ايما تهيب ، مثل فتاة رات الدنيا . قدمت لايها قدح شراب ، ولها كوب شاي ، واخذنا ، ثلاثتنا ، نتجاذب اطراف الحديث ، وكاننا اصحاب منذ زمان .

كانت الخيول قد اعدت منذ وقت طويل ، وما زلت لا اجد في نفسى الرغبة في فراق ناظر المحطة وابنته . وفي آخر الامر توادعت معهما ، فتمنى لى الاب سفرنا ميمونا ، ورافقتنى الابنة الى العربية . توقفت في الرواق ، وسألتها ان تاذن لى بتقبيلها . وافقت دونيا . . . وفي وسمى ان اعدد الكثير من القبل ،

ولكن لسم تغلف واحدة غيرها في نفسى مثل هذه
الذكرى الممتعة طوال هذا الزمن .

انقضت عدة اعوام ، قادتني الظروف الى ذلك الطريق
نفسه ، والى تلك الاماكن ذاتها . تذكرت ابنة ناظر
المحطة العجوز وسررت من فكرة رؤيتها مرة اخرى . ولكن
فكرت في احتمال ان يكون ناظر المحطة العجوز قد
استبدل بشخص آخر ، ومن المحتمل ان تكون دونيا قد
تزوجت . والى جانب ذلك فكرت في ان يكون هذا او تلك
قد وافاه الاجل ، فدنوت من المحطة ب . . . بتوجس
حزين .

توقفت الخيول عند مبنى البريد الصغير ، ودخلت
انا الغرفة ، وتعرفت في الحال على الصور التى تحكى قصة
الابن الضال العائد ؛ وكانت الطاولة والسرير يقفان في
مكانيهما السابقين ؛ الا ان النوافذ كانت خالية من الزهور
المنزلية ، وكان البلى والاهمال يشيعان في كل شيء .
كان ناظر المحطة ينام تحت فروة خروف ؛ وقد ايقظه
قدومي ؛ فرفع جسمه قليلا . . . لقد كان هو سامسون
فيرين نفسه ؛ ولكن ولشده ما شاخ ؛ بينما كان يتهايا
ليسجل امر استبدال الخيول تمعنت انا في شيبه ، وفي
الفضون العميقة على وجهه غير الحليق ، وفي الظهر
المحدودب ، وانا لا اتمالك نفسى عجبا من ان تستطيع
ثلاثة اعوام او اربعة ان تحول رجلا جمّ النشاط الى عجوز
هرم . سألته : «هل عرفتنى ؟ نحن متعارفان منذ زمان» .
اجاب جهما : «من المحتمل . فان الطريق هنا كبيرة ،

وكثيرون من المسافرين نزلوا عندي» . فاردفت اساله :
«كيف صحة ابنتك دونيا ؟» تعبّس العجوز ، واجاب :
«الله يعلم» . قلت : «اذن ، فقد تزوجت ؟» تظاهر
العجوز بانه لم يسمع سؤالي ، وواصل قراءة الامر
همسا . كفت عن اسئلتى ، وطلبت ان يعد الشاي .
وبدا حب الاستطلاع يضايقنى ، فاملت ان يفك الشراب
عقدة لسان صاحبي العجوز .

ولم اكن على خطأ . فان العجوز لم يرفض القدح الذى
قدمته له . ولاحظت ان الشراب صفى عبوس وجهه .
وفي القدح الثانى صار طلق اللسان . تذكرنى او تظاهر
بذلك ، وعرفت منه القصة التى شغلتنى فى وقتها ،
وتأثرت بها . بدأ حديثه :

«اذن ، فانت تعرف ابنتى دونيا ؟ ومنّ لم يعرفها ؟
آه ، دونيا ، دونيا ! اية فتاة كانت ! كان كل مسافر
يثنى عليها الوان الثناء ، ولا يصيبها فى شىء . كانت
السيدات يقدمن لها الهدايا ، منديلا مرة ، وقرطين مرة
اخرى . وكان السادة من المسافرين يتعمدون التوقف
متظاهرين بانهم يريدون تناول الغذاء ، او العشاء ، وهم
فى واقع الامر لا يرمون غير اطالة النظر اليها . وصاحب
المقام ، مهما يكن مفضيا ، يهدأ فى وجودها ، ويتحدث
معى بلطف . صدقنى ، ايها السيد ، ان الساعة ورسل
الحكومة المستعجلين كانوا يتحدثون معها نصف ساعة .
كان البيت يقوم عليها : فهى تنظف ، وتطهى ، وتنجز
كل شىء . اما انا ، العجوز الاحمق ، فكنت اديم النظر
اليها واكمل ناظرى برؤياها . فقد كنت عظيم الحب
لابنتى دونيا ، كثير المداعبة لها ، فإى حياة كانت لها ؟

ولكن الدعوات لا ترد مصيبة ، وما هو مكتوب لك لا محيص لك عنه» . وهنا اخذ يقص على مصيبتيه بالتفصيل . - في امسية شتائية قبل ثلاثة اعوام ، بينما كان ناظر المحطة يخطط كتابا جديدا ، وابنته تخطط لها ثوبا وراء الحاجز ، وصلت عربة ترويكما ، ودخل المسافر الغرفة في قبعة جركسية ، ومعطف عسكري ، ملتفا في لفاح ، وطلب ان يجهز بالخيول . كانت الخيول كلها خارجة في سفر . ولما سمع المسافر بهذا الخبر رفع صوته وسوطه . الا ان دونيا ، وقد الفت هذه المشاهد ، خرجت من وراء الحاجز ، وتوجهت الى المسافر سائلة اياه في لهجة رقيقة هل يرغب في ان يصيب طعاما ؟ وكان لظهور دونيا اثره المألوف . زال غضب المسافر ، ووافق على انتظار الخيول ، وطلب ان يحضر له العشاء . خلع قبعته المبللة الشعثاء ، وحل اللفاح ، ونزع المعطف ، فبدا شابا ، فارسا رشيقا ذا شاربين اسودين . ونزل في بيت ناظر المحطة ، وشرع يتحدث معه ومع ابنته بمرح . قدّم العشاء ، وفي غضون ذلك وصلت الخيول ، وامر ناظر المحطة بالا يقدم لها العلف ، وان تشد الى عربة المسافر في الحال . ولكن لدى عودته رأى الشاب راقدا على تخت خشبي دون وعى تقريبا : فقد اصيب بتوعك ، بسبب صداع طرا عليه ، وكان من غير الممكن ان يتابع سفره . . . ما العمل ! تنازل ناظر المحطة له عن سريره ، وكان ينبغي ، اذا لم تتحسن صحة المريض ان يرسل في اليوم التالي لاستدعاء الطبيب من مس . . .

في اليوم التالي كانت حالة الفارس اسوأ . وقد سافر

خادمه على حصان الى المدينة لاستدعاء الطبيب . عصبته دونيا راس المريض بمنديل مبلل بالخل ، وجلست عند سريره ومعها خياطتها . كان المريض في حضرة ناظر المحطة يتاوه ، ولا يكاد ينبس بكلمة واحدة ، الا انه شرب قدحين من القهوة ، وطلب وهو يتاوه ، ان يعد الغداء له . ولم تبتعد دونيا عنه . كان بين لحظة واخرى يطلب ان يشرب شيئا ، فكانت دونيا تجلب له قدح شراب الليمون الذي اعدته بنفسها . كان المريض يبذل شفتيه ، وفي كل مرة عندما يعيد فيها القدح كان يضغط بيده الضعيفة على يد دونيا ، اشارة على الامتنان . ووصل الطبيب عند الغداء . جس نبض المريض ، وتحدث معه بالالمانية ، واعلن بالروسية انه يحتاج الى الهدوء فقط ، يومين او نحوهما ليستطيع ان يواصل السفر . سلّمه الفارس خمسة وعشرين روبلا لعيادته ، ودعا الى تناول طعام الغداء . وافق الطبيب ، واكل كلاهما بشهية كبيرة ، واحتسبا زجاجة نبيذ ، وافترقا واحدهما راض عن الآخر كثيرا .

انقضى يوم آخر ، وشفى الفارس تماما . كان في غاية المرح ، وقد تمازح بلا انقطاع تارة مع دونيا ، وتارة مع ناظر المحطة ؛ وصفر الحان اغنيات ، وتحدث مع المسافرين ، وسجل في سجل البريد اوامرهم في التزود بالخيول ، وقد احبه ناظر المحطة كثيرا حتى انه اسف لفراق نزيله اللطيف في اليوم الثالث . كان اليوم يوم الاحد ، ودونيا تنهيا الى القداس . وقدمت للفارس عربة السفر . فتوادع هذا مع ناظر المحطة ، بعد ان اغدق له في اجرة المبيت والطعام ، وتوادع مع دونيا ، ودعا الى

ان يصحبها الى الكنيسة . وقفت دونيا في حيرة من امرها . . . فقال لها ابوها : «ما الذى تخشينه ؟ فان السيد الجليل ليس ذنبا ، ولن ياكلك . فاركبي معه الى الكنيسة» . جلست دونيا في العربة الى جانب الفارس ، وقفز الخادم الى مقعد عند الحوذى ، وصفر الحوذى ، وانطلقت الخيول تعدو .

لم يدرك ناظر المحطة المسكين كيف استطاع ان يسمح لابنته دونيا بالسفر مع الفارس ، وكانما المت به غشاوة ، وطراً شئ على عقله . وما هي الا نصف ساعة حتى اخذ قلبه يستشعر خيفة ، واستولى عليه قلق شديد افقده صبره ، فخرج بنفسه الى القداس . ولما اقترب من الكنيسة رأى الناس قد انصرفوا ، ولكنه لم ير دونيا . فدخل الكنيسة مسرعاً : كان القس يفادر المحراب ، والشماس يطفىء الشموع ، وامراتان عجوزان ما تزالان تصليان في احد الاركان ، الا ان دونيا لم تكن في الكنيسة . وبعد جهد عزم الاب المسكين على ان يسأل الشماس عما اذا كانت تحضر القداس ، فاجاب هذا انها لم تكن موجودة . عاد ناظر المحطة الى البيت وهو بين الموت والحياة . ولم يبق له غير امل واحد ، هو ان دونيا ، ربما دفعها هوس الفتيات الشابات ، الى ان تركب العربة الى المحطة التالية حيث كانت تعيش عراً ابتها . فانتظر ، بقلق اليم ، عودة «الترويك» التى سمح لها بركوبها . ولم يَعدُ الحوذى . وفي آخر الامر ، عند المساء عاد لوحده سكران يحمل نبا قتالا : «غادرت دونيا تلك المحطة مواصلة السفر مع الفارس» .

ولم يتحمل العجز المصيبة ؛ فرقد مريضا في الحال
 على نفس السرير الذي كان الخادع الشاب يرقد عليه في
 عشية الحادث . وفطن ناظر المحطة ، وهو يزن الامور
 الآن ، الى ان الفارس كان يتمارض . واصيب المسكين
 بحمى شديدة ، فنقل الى س . . . ، وعين في مكانه
 شخص آخر بصورة مؤقتة . وعالجه نفس الطبيب الذي
 جاء لمعالجة الفارس . وقد اكد لناظر المحطة ان ذلك
 الشاب كان معافي ، وانه قد فطن الى نيته السيئة
 آنذاك ، الا انه لزم الصمت خوفا من سوطه . فهل كان
 هذا الالمانى يقول الحق ، ام كان يريد فقط ان يتباهى
 ببعد نظره ؟ الا ان ذلك لم يخفف الوطأة على المريض
 المسكين قدر شعرة . فما كاد يتماثل للشفاء حتى طلب
 من رئيس دائرة البريد في س . . . اجازة لمدة شهرين
 وخرج ماشيا ليجث عن ابنته دون ان يقول لاحد شيئا
 عن نيته . وقد عرف من سجلات السفر ان النقيب
 مينسكى سافر من سمولينسك الى بطرسبورغ . وروى
 الحوذى الذى قاد عربته ان دونيا كانت تبكى طوال
 الطريق ، رغم انها ، على ما يبدو ، سافرت برغبتها .
 وفكر ناظر المحطة : «لعلنى ساعود بابنتى الضالة الى
 البيت» . وبهذه الفكرة وصل الى بطرسبورغ ، ونزل
 في فوج اسماعيلوفسكى ، في بيت ضابط متقاعد كان
 يخدم معه ، وشرع في بحثه . وسرعان ما علم ان
 النقيب مينسكى في بطرسبورغ ، ويقوم في حانة
 ديموتوف . فعزم ناظر المحطة على ان يذهب اليه .
 وصل الى حجرة الانتظار في شقته في الصباح الباكر ،
 وطلب ان يبلغ سيادته بان جنديا قديما يود مقابلته .

فابلغه الخادم العسكري ، وهو ينظف حذاء معلقا على
سند ، ان السيد نائم ، وانه لا يستقبل احدا قبل
الحادية عشرة . خرج ناظر المحطة وعاد في الوقت المحدد .
طلع مينسكى اليه بنفسه في مبذله البيتي ، وطاقية
حمراء ، وساله : «ما حاجتك ، ايها الاخ ؟» شرع قلب
العجوز يغلي ، ترقرت الدموع في عينيه . فلم يستطع
الا ان يقول بصوت مرتجف : «سيادتك ! . . اصنع
معروفا لله ! . .» حدق مينسكى به سريعا ، واحمر ،
وامسكه من يده ، وقاده الى مكتبه ، واغلق الباب
وراه . تابع العجوز قوله : «سيادتك ! . . عفا الله عما
سلف . فأرجع لي ابنتي المسكينة دونيا ، على الاقل .
فقد استمتعت بها . فلا تهلكها عبثا» . فقال الشاب في
غاية الارتباك : «ما حصل لا تستطيع دفعه . انا مذنب
ازاءك ، وسعيد في ان اسالك المغفرة ؛ ولكن لا تظن انني
قادر على ترك دونيا . اقسام لك انها ستكون سعيدة .
فما حاجتك اليها؟ انها تحبني ، وقد نسيت وضعها
السابق . لا انت ولا هي تنسى ما حصل» . وبعد ذلك
دس شيئا في طي كفه ، وفتح الباب ، وراى ناظر
المحطة نفسه في الشارع دون ان يدري .

لبث طويلا دون حراك ، ثم راى خلف طرف كفه لفئة
ورق . اخرجها ، وبسطها فاذا هي بضع اوراق نقدية
متجمدة من فئة الخمسة والعشرة روبلات . واغرورقت
عيناه بالدموع مرة اخرى ، دموع الحنق ! كور الاوراق
في يده ، ورماها ارضا ، وسحقها بكعب حذائه ،
وانصرف . . . سار بضع خطوات ، وتوقف ، فكر مع
نفسه . . . وعاد . . . الا ان الاوراق النقدية لم تكن

موجودة . هرع شاب حسن الهندام الى عربة اجرة ، حين
رآه ، وجلس فيها وهتف بعجالة : «انطلق ! . .» ولم
يلاحقه ناظر المحطة . وقرر التوجه الى داره في محطته ،
الا انه ود قبل ذلك ان يرى ابنته المسكينة دونيا
مرة واحدة على الاقل . ولاجل ذلك عاد مرة اخرى الى
مينسكى بعد يومين ، الا ان الخادم العسكري قال له
بحدة ان السيد لا يستقبل احدا ، واخرجه بصدرة من
غرفة الانتظار ، وصفق الباب في اثره . وقف ناظر المحطة
برهة ثم اخرى ثم انصرف .

في مساء ذلك اليوم كان يسير في شارع ليتينايا بعد
ان صلى في كنيسة «جميع الحزاني» . وفجأة انطلقت
امامه عربة صغيرة مترفة ، ولمح ناظر المحطة مينسكى
فيها . توقفت العربة امام دار من ثلاثة طوابق ، عند
المدخل تماما ، ونزل الفارس منها الى المدخل راکضا .
ومضت فكرة هنيئة في ذهن ناظر المحطة . عاد ، وتوازي
مع الحوذى ، وساله : «لمن الحصان ، يا اخ ؟ اليس
صاحبه مينسكى ؟» اجاب الحوذى : «نعم ، ولكن ما
غرضك ؟» قال ناظر المحطة : «ان سيدك امرنى بان
اوصل مذكرة الى صاحبتة دونيا ، ولكننى نسيت اين
تسكن» . - «انها تسكن هنا ، في الطابق الثانى . لقد
تاخرت بمذكرتك هذه ، يا اخ . انه الآن بنفسه معها» .
فرد ناظر المحطة ، وقلبه يخفق خفقانا لا يوصف : «لا
حاجة لذلك . شكرا على كلامك ، وساقوم انا بشانى» .
وبهذه الكلمة راح يرتقى السلم .

كانت الابواب مقفلة ؛ فدق الجرس ، ومضت بضع
ثوان في انتظار اليم . وقلقل المفتاح في القفل . وفتح له

الباب . سال : «هل افدوتيا سامسونفنا تقيم هنا؟» اجابت الخادمة الشابّة : «هنا ، فما حاجتك اليها ؟» ودون ان يجيب دخل ناظر المحطة الصالة . صاحت الخادمة في اثره : «ممنوع ، لا يجوز . عند افدوتيا سامسونفنا ضيوف» . الا ان ناظر المحطة لم يصغ لها ، وواصل سيره . كانت الغرفتان الاولى والثانية مظلمتين ، والثالثة مضاءة . تقدم من الباب المفتوح وتوقف . كان مينسكى يجلس غارقا في افكاره في هذه الغرفة المرتبة ترتيبا رائعا . وكانت دونيا الراقلة بكل مظاهر الترف والموضة تجلس على مسند مقعده كما تجلس راكبة الفرس على سرج انجليزى . كانت ترمق مينسكى برقة ، وتفتل خصلاته السود المتجمدة على اصابعها اللامعة بالاحجار الكريمة . يا لناظر المحطة المسكين ! ان ابنته لم تبد له قط بهذه الروعة . وجد نفسه يتمتع بصره بها دون ان يدري . وسالت هي دون ان ترفع راسها : «مَنَ هناك ؟» . وبقي هو على صمته . رفعت دونيا راسها حين لم تتلق جوابا وسقطت على البساط صارخة . هب مينسكى المذعور ليرفعها ، وفجأة وقع بصره على ناظر المحطة العجوز واقفا عند الباب ، فترك دونيا ، وتقدم نحوه ، مرتجفا من الفيظ قائلا له وهو يركز على اسنانه : «ماذا تريد ؟ لماذا انت تتلصص على في كل مكان كقاطع طريق ؟ ام تريد ان تذبحنى ؟ اخرج من هنا !» وامسك العجوز من تلايبه بيده القوية ، واخرجه دافعا اياه على السلم .

وصل العجوز الى مقره . واثار عليه صديق له بان يرفع شكوى ؛ الا ان ناظر المحطة فكر مليا ، وهز

ذراعه رفضا ، وقرر ان يتغلى عن الامر . وبعد يومين خرج من بطرسبورغ عائدا الى محطته ، واخذ يزاول واجبه من جديد . وختم ناظر المحطة روايته قائلا : «وهذه هي السنة الثالثة وانا اعيش بدون دونيا ، وليس لى عنها علم ولا خبر . والله يعلم اهي حية ام ميتة . فان كل شىء يحدث . وليست هي اول ولا آخر مَنْ اغواهن هذا المسافر الماجن الذى استمتع بها زمنا ، ثم نبذها . وفي بطرسبورغ الكثيرات من خفيفات العقل هؤلاء . اليوم يرفلن في الاطلس والمخمل ، وغدا يكنسن الشارع من حثالة الخمارات . وعندما افكر احيانا بان دونيا ايضا ربما تسقط هناك ، اتحمل الخطيئة ، واتمنى لها الموت . . .»

هذه هي قصة صاحبي ، ناظر المحطة العجوز ، القصة التي قطعها الدموع غير مرة ، فكان يمسح الدموع بطرف رداثة بشكل مؤثر ، مثل شخصية تيرينتس الحريص في قصيدة ديمتريف الرائعة . وكانت هذه الدموع يثيرها ، لحد ما ، الشراب الذي احتسى منه خمسة اقداح خلال رواية قصته ؛ الا انها على اية حال اثرت في قلبي تأثيرا شديدا . وعندما فارقت ناظر المحطة لبثت في قلبي زمنا طويلا غير قادر على نسيانه ، مطيلا التفكير في دونيا المسكينة . . .

وقبل فترة ليست بالبعيدة تذكرت صاحبي ، وانا مسافر عبر منطقة س . . . ، فعرفت ان المحطة التي كان يديرها قد خربت . ولم يستطع احد ان يرد ردا مقبولا على سؤالي : «اما زال ناظر المحطة العجوز حيا ؟» فعزمت على زيارة الناحية التي اعرفها ، واستاجرت خيولا

وانحدرت الى قرية ن . . .

كان ذلك خريفا . وكانت السماء ملبدة بسحب رمادية ؛ والرياح الباردة تهب من الحقول المحسودة ، نازعة الاوراق الحمراء والصفراء من الاشجار المقابلة في طريقها . وصلت الى القرية عند غروب الشمس ، وتوقفت عند مبنى البريد . خرجت امرأة بدينة الى الرواق (المكان الذي قبلتني فيه دونيا المسكينه) واجابت عن اسئلتى ان ناظر المحطة العجوز توفي منذ عام ، وان بيته يحتله الآن مخمر بيرة ، وهي زوجته . اسفت على سفرى غير المجدى ، وعلى سبعة روبلات انفقتها عبثا . سألت زوجة مخمر البيرة : «ما سبب وفاته ؟» - «ادمن الخمره ، يا حضرة» . - «واين دفن ؟» - «وراء حدود القرية ، قرب زوجته .» - «هل من الممكن ان ادل على قبره ؟» - «وليم لا ؟ يا فانكا ، كفى لعبا مع القطه . ودل السيد على المقبرة ، واره قبر ناظر المحطة» .

وبهذه الكلمة خرج الى صبي رث الثياب ، احمر الشعر ، ذو عين واحدة ، وفي الحال قادنى الى خارج القرية . سألته فى الطريق :

- هل كنت تعرف المرحوم ؟
- كيف لا اعرفه ! لقد علمنى نحت المزامير . وكان (الله يرحمه !) يخرج من الخماره ، ونحن فى اثره ، ونقول : «يا جد ، يا جد ، اعطنا بندقا !» فكان يلقي لنا بالبندق . كان يلاعبنا احيانا كثيرة .
- والمسافرون ، الا يتذكرونه ؟
- المسافرون قليلون الان . ليس الا المحلف يمر

خطفا ، ولا شان له في الموتى . وفي الصيف مرّت
سيدة ، وسالت عن ناظر المحطة العجوز ، وزارت
قبره .

سألته بلهفة : اية سيدة ؟

اجاب :

- سيدة بارعة الجمال ، جاءت راكبة عربة تجرها
سته خيول ، ومعها ثلاثة اطفال ومرضعة وكلب صغير .
وما ان ابلغوا بان ناظر المحطة العجوز مات ، حتى
انفجرت باكية ، وقالت للاطفال «اجلسوا بهدوء ، وانا
ذاهبة الى المقبرة» . اردت مصاحبته الى المقبرة . الا ان
السيدة قالت : «انا اعرف الطريق» . واعطتني خمسة
كوبيكات فضية . يا لها من سيدة طيبة ! . . .

وصلنا الى المقبرة . انها مكان اجرد ، غير مسيج ،
تتناثر فيه الصلبان الخشبية ، ولا توجد فيه شجيرة
واحدة . وانا لم اربدا مثل هذه المقبرة الموحشة .

قال لي الصبي وهو يقفز على كومة الرمل ركز عليها
صليب اسود عليه ايقونة نحاسية :
- هذا قبر ناظر المحطة العجوز .

سالت :

- والسيدة جاءت الى هنا ؟

- جاءت . وراقبتها من بعيد . ارتمت هنا ، وظلت
مرتمية وقتا طويلا . وبعد ذلك ذهبت الى القرية ، ودعت
قسا ، واعطته نقودا ، وانصرفت . اما انا فاعتنيتني
خمسة كوبيكات فضية . سيدة رائعة !

واعطيت للصبي خمسة كوبيكات ، ولم اسف على
سفرتي ولا على الروبلات السبعة التي انفقتها .

ابنة السيد - الفلاحة

انك لجميلة ، يا حسناء ، في كل الازياء .
(من قصيدة والحسناء ، لبوغدانوفيتش .)

كانت ضيعة ايغان بتروفيتش بيرستوف تقع في احدى ولاياتنا النائبة . وقد خدم ايغان بتروفيتش في شبابه في الحرس ، واستقال في بداية عام ١٧٩٧ ، ورحل الى ضيعة ، ولم يخرج منها منذ ذلك الحين . كان متزوجا واحدة من بنات الاعيان المعدمين ، وقد توفيت اثنا ، الوضع ، حين كان خارجا في صيد . وسرعان ما سرى عنه انشغاله في شؤونه الاقتصادية . بنى دارا وفق تصميمه الخاص ، واقام له معملا للاجواخ ، وزاد مدخولاته ثلاث مرات ، وصار يعتبر نفسه اذكى انسان في كل المنطقة ، ولم ينكر عليه ذلك جيرانه الذين كانوا ينزلون عليه ضيوفا مع عوائلهم وكلابهم . كان في ايام الاسبوع الاعتيادية يرتدى سترة مخملية ، وفي ايام الاعياد سترة طويلة من الجوخ المنسوج بيتيا ؛ وكان يسجل النفقات بنفسه ، ولم يقرأ غير جريدة "سيناتسكيه فيدوموستي" . وبوجه عام كان محبوبا ، وان كان يعتبر معتدا بنفسه . شخص واحد لم يكن على وفاق معه ، هو غريغوري ايغانوفيتش مورومسكي ، جاره الجنب . وكان هذا نبيلا روسيا حقيقيا بذرا في

موسكو جانبا كبيرا من ثروته ، وترمل في اثناء ذلك ، فرحل الى ضيعته الاخيرة ، حيث استمر على عبئه ، ولكن من نوع جديد ، هذه المرة . اقام حديقة انجليزية انفق عليها كل مدخولاته الباقية تقريبا . وكان سوّاس خيوله يرتدون ما يرتديه الجوكية الانجليز . وكانت لابنته وصيفة انجليزية . وكان يزرع حقوله على الطريقة الانجليزية :

ولكن القمح الروسى لا ينبت وفق هوى اجنبى ،

ورغم التقليل الكبير فى النفقات لم تزد واردات غريغورى ايفانوفيتش ؛ فوجد ، وهو فى الضيعة ايضا ، طريقة للدخول فى ديون جديدة ؛ ومع كل ذلك لم يعتبر رجلا خفيف العقل ، لانه اول صاحب اطيان فى ولايته دبر ان يرهن الضيعة الى مجلس الوصاية ، وهى صفقة كانت تعتبر فى ذلك الوقت معقدة وجريئة للغاية . وكان بيرستوف اشد ضراوة من كل الذين يلومونه . فقد كانت الكراهية للاشياء الجديدة من مميزاته . فلم يكن يتحدث دون اكرات عن هوس التنجلز عند جاره ، وكان يتسقط الفرص فى كل لحظة لانتقاده . فاذا عرض اطيانه لاحد الضيوف ، فامتدح هذا حسن تدبيره اجاب ببسمة تهكمية ماكرة : «نعم ، ولكن ما عندى ليس كالذى عند الجار غريغورى ايفانوفيتش . ليس بنا حاجة الى هوس انجليزى ! ان نشبع على الطريقة الروسية» . وكانت هذه النكات وما شاكلها ينقلها الجيران بمثابرة الى غريغورى ايفانوفيتش مع الزيادة والتفسيرات . وكان المتنجلز يتلقى النقد بغير نفاد صبر ، مثل صحفيينا .

وقد اغتاط ، ونعت المتجنى عليه بالدب وعديم الثقافة .

كانت هذه علاقة الملاكين حين وصل ابن بيرستوف الى ضيعة ابيه . وكان قد تنقف في جامعة ن . . . ، وعزم على دخول الخدمة العسكرية ، الا ان اياه لم يوافق على ذلك . وكان الشاب يشعر بانه غير قادر على الخدمة المدنية مطلقا . ولم يستجب احدهما للآخر ، فصار الشاب الكسى يعيش كابن السيد ، وقد اطلق شاربيه على كل حال .

كان الكسى في واقع الامر فتى ونِعْم الفتى . ومن المؤسف حقا الا تشدد قدمه الممشوق بزة عسكرية ، وان يقضى شبابه منكبا على اوراق المعاملات في احد المكاتب بدلا من ان يزهو على صهوة حصان . وكان الجيران يقولون بالاجماع ، وهم يرونه يجلى بفرسه في الصيد دون ان ينظر الى الطريق ، انه لن يصلح لان يكون رئيس مكتب حسنا . وكانت الانسات يرمقنه ، وبعضهن يتطلعن اليه معجبات . الا ان الكسى لم يكن يوليهن كبير اهتمام ، فاعتبرن السبب في انعدام تجاوبه علاقة حب . وفي الواقع كانت الايدي تتناقل نسخة من عنوان احدى رسائله : الى اكولينا بتروفنا كوروتشكينا ، في موسكو ، مقابل دير الكسييف ، في بيت النعاس سافيليف ، مع الرجاء الشديد لا يصلح الرسالة الى ا . ن . ر .

ان الذين لم يعيشوا في الارياف من قراني لا يستطيعون ان يتصوروا اية فتنة تتحل بها آنسات الارياف هؤلاء ! انهن ، وقد نشان على نقاء الهواء ، في

ظلال بساتين التفاح ، يستقين معرفتهن عن الدنيا
والحياة من الكتب . والتوحد ، والفراغ ، والقراءة تنمي
فيهن مبكرا مشاعر واهواء غير معروفة لحسناتنا
المستطيرات الالباب . فان رنين جرس بالنسبة للأنسة
الريفية ما هو الا مغامرة ، والسفر الى مدينة قريبة بمثابة
عهد من عهود الحياة ، وزيارة ضيف تترك ذكرى طويلة
واحيانا لا تمحي . وبالطبع في مقدور كل انسان ان
يضحك من بعض غرائبهن ، الا ان نكات الملاحظ
السطحي لا تستطيع ان تقضى على فضائلهن الجوهرية ،
واهمها تمييز الشخصية ، الاصاله (individualité)
التي لا وجود للعظمة الانسانية بدونها ، حسب راي
جان-بول . قد تتلقى النساء في العواصم تعليما افضل ،
الا ان سراة الناس يصقلون الشخصية سريعا ، ويجعلون
النفوس متشابهة كثيرا ، مثل اغطية الرأس . وهذا
القول لا يقال استنكارا الا ان *Nota nostra. manet* .
كما يكتب احد المعلقين القدامى .

ومن السهل تصور الاثر الذي لا بد ان يتركه الكسى
في محيط اوانسنا . وكان اول من ظهر امامهن حزيننا
خانب الظن ، واول من تحدث لهن عن المسرات المفقودة ،
وعن شبابه النابل ؛ فضلا عن ذلك كان يضع في
اصبعه خاتما اسود عليه صورة رأس ميت . وكل هذه
الاشياء تبدو جديدة للغاية في تلك الولاية . وقد جنت
الاوانس به جنونا .

ولكن اكثر مَنْ انشغلت به من الفتيات كانت ابنة
صاحبى المتنجلز ليزا (او بيتسى كما كان يسميها
* ملاحظتنا تبقى سارية المفعول . (باللاتينية .)

غريغورى ايفانوفيتش عادة) . وكان الابـوان لا يتزاوران . فلم تكن قد رات الكسى بعد . بينما لم يكن للجارات الشابات جميعهن الا الحديث عنه . كانت فى السابعة عشرة من العمر . وكانت عينها السوداءوان تبعت حيوية فى وجهها الاسمر البديع جدا . وكانت الابنة الوحيدة لابيها ، والمدللة لهذا السبب . كانت خفتها ونزواتها المتكررة تعجب اباها ، وتسلم الى القنوط مريبتها مس جاكسون ، وهى آنسة فى الاربعين من العمر متمسكة بالاصول ، كانت تتبودر ، وتخط حاجبيها بالكحل ، وتعيد قراءة «بامبلا» * مرتين فى العام ، وتحصل لقاء ذلك على الفى روبل ، وتموت من السام فى روسيا البربرية هله .

كانت ليزا موضع عناية ناستيا ، وهى فتاة اكبر سنا منها ، الا انها كانت تحايل الانسة فى نزقها الشديد . وكانت ليزا تحبها كثيرا ، وتكشف لها كل اسرارها ، وتتدارس معها خيالاتها ، وباختصار ، كانت ناستيا فى قرية بريلوتشينو شخصية اهم بكثير من كاتمة اسرار فى تراجيدية فرنسية .

قالت ناستيا ذات مرة وهى تعين ليزا على ارتداء ملابسها :

- سيدتى ، انذنى لى اليوم بالخروج للضيافة .
- ماذونة . ولكن الى اين ؟
- الى عائلة بيرستوف فى توغيلوفو . فاليوم عيد

* وبامبلا او الفاضلة المجازاة ، رواية للكاتب الانجليزى رينشاردسون . (الناسخ .)

قديس زوجة الطباخ ، وقد زارتنا يوم امس لتوعدنا الى الغداء .

قالت ليزا :

- هكذا اذن ! السيدان متخاصمان ، والخدم يتضايفون .

فردت ناستيا :

- لا شان لنا بالسادة ! ثم اننى خادمك ، ولست خادمة ابيك . وانت حتى الآن لم تتخاصمى مع الشاب بيرستوف . فليتخاصم الشيخان فيما بينهما ، اذا كان هذا يسرهما .

- حاولى ، يا ناستيا ، ان ترى الكسى بيرستوف ثم اخبرينى جيدا اى مظهر له ، واى انسان هو . وعدتها ناستيا ، فانتظرت ليزا عودتها نهارا كاملا بنفاد صبر . وجاءت ناستيا فى المساء . وقالت وهى تدخل الغرفة :

- يا ليزافيتسا غريغوريفنا ، رايت الشاب بيرستوف . اشبعت بصرى به ، فقد قضينا النهار كله سوية .

- كيف هذا ؟ حدثينى ، حدثينى بالترتيب .

- حسنا ، ذهبنا انا ، وانيسيا يفوروفنا ، ونينيلادونكا . . .

- حسنا ، اعرفى . وبعد ذلك ؟

- حسنا ، ساقص كل شىء بالترتيب . وصلنا فى وقت الغداء تماما . كانت الغرفة مكتظة بالناس . كان هناك ضيوف من اهالى قريتى كولبينو وزاخاريفو ، وزوجة الوكيل وبناتها ، ومن قرية خلوبينو . . .

- حسنا ! وبيرستوف ؟

- على مهلك . وجلسنا الى المائدة . زوجة الوكيل
في المقعد الاول ، وانا الى جانبها . . . وامتعضت بناتها ،
واى شان لى بهن . . .

- آه ، يا ناستيا ، ما اضجرك فى تفاصيلك التى
لا تنتهى !

- وما اضيق صدرك ! حسنا ، وخرجنا من وراء
المائدة . . . وقد بقينا حوالى ثلاث ساعات ، وكان
الغداء رائعا ؛ والحلويات مهلبية على الطريقة الفرنسية ،
زرقاء ، وحمراء ، ومخططة . . . حسنا ، خرجنا من وراء
المائدة ، وطلعنا الى الحديقة نلعب الاستفماية ، وهنا
ظهر الشاب بيرستوف .

- صحيح ؟ صحيح انه لطيف ؟

- لطيف بشكل مذهل ، ويمكن ان يقال انه بارع
الجمال . اهيف القد ، مديد القامة ، متورد الخدين
تماما . . .

- احق ؟ بينما كنت اتصور وجهه شاحبا . اذن ؟
كيف بدا لك ؟ حزينا وساهما ؟

- ما هذا الكلام ؟ انا لم ار فتى مفعما بالحيوية مثله
منذ ان عرفت الدنيا . دخل فى عقله ان يلعب معنا
الاستفماية .

- يلعب معكن الاستفماية ا غير ممكن ا

- ممكن جدا ! ثم فكر بشئ آخر . اذا امسك
بواحدة فى اللعبة قبّلها .

- انت حرة فى كلامك ، يا ناستيا ، ولكنى لا
اصدق .

- صدقي او لا صدقي ، فانا لا اكدب . خلصت نفسي منه بالكاد . قضى النهار كله يلعب معنا هكذا .
- وكيف يقولون انه عاشق ، ولا ينظر الى واحدة ؟
- لا اعرف ، ولكنه اطال النظر في كثير ، وفي تانيا ايضا ، ابنة الوكيل . . . ، وفي باشا من كولبينو ، وعلى اللعنة اذا تاذت واحدة من هذا العايب .
- هذا غريب ! وماذا يقول عنه اهل بيته ؟
- يقولون انه سيد رائع ، كثير الطيبة ، جسم الحرج . خصلة واحدة فيه غير جميلة ، هو انه يحب مغازلة البنات كثيرا . ولكن ذلك ليس عيبا في رايي سيهدا مع الزمن .
- قالت ليزا متحسرة :
- كم اود لو اراه !
- وهل ذلك بحاجة الى عناية ؟ فان توغيلوفو ليست بعيدة عنا ، مسافة ثلاثة فراسخ فقط . ما عليك الا ان تمشى في تلك الناحية ، او تركبى فرسا ، وستلتقين به بالتأكيد . انه يخرج كل يوم في الصباح الباكر ومعه بندقية للصيد .
- لا ، غير لائق . قد يظن اننى الاحقه . ثم ان ابويننا متخاصمان ، ولا يجوز لى ان اتعارف معه
- ولكن ، اتعرفين ماذا ، يا ناستيا ؟ ساتزيا بزى الفلاحة !
- حقا . ارتدى ثوبا سميك ، وسرفانا * ، واذهبى الى توغيلوفو غير خائفة ، وانا اتعهد لك بالا يفوتك بصر بيرستوف .
- وانا اجيد التحدث بلهجة اهل هذه الناحية بشكل
- * ثوب بلا اردان . (المترجم .)

طيب . آه ، يا ناستيا ، يا حبيبتي ناستيا ، ما اروعها من فكرة ! - وآوت ليزا الى مضجعها ، وقد عقدت العزم على ان تنفذ فكرتها المازحة .

في اليوم التالي بدأت بتنفيذ خطتها ، ارسلت مَنْ يشتري لها من السوق قماشاً كتانيا سميكاً ، وقطعة من منسوج الصين القطنى الازرق ، وازراراً نحاسية ، وفصّلت لنفسها ، بمساعدة ناستيا ، ثوباً وسرفاناً ، واجلست كل وصيفاتها لخياطتهما ، وفي المساء كان قد اعد كل شىء . قاست ليزا زيتها الجديد ، واعترفت امام المرأة بانها لم تبد قط بهذا المنظر الحسن فيما سلف من الايام . كررت دورها ، وحيّت منحنية انحناءة واطنة وهى سائرة ، وهزت رأسها بعد ذلك عدة مرات ، وتكلمت كلام الفلاحات ، وضحكت ، مغطية وجهها بكمها ، واستحقت رضى ناستيا التام . شىء واحد كان يصعب عليها : حاولت ان تسير فى الفناء حافية الا ان العشب النابت وخز قدميها الرقيقتين ، اما الرمل والحصى الدقيق فكانا يبدوان فوق مستوى احتمالها . وقد ساعدتها ناستيا فى ذلك ايضا : اخذت قياس قدم ليزا ، وهرعت الى الحقل نحو الراعى تروفيم ، واوصت على نعلين من لحاء الشجر على ذلك القياس . وفى اليوم التالى استيقظت ليزا قبل انفلاق الفجر . كان اهل البيت جميعاً ما يزالون نياماً . وكانت ناستيا تنتظر الراعى وراء البوابة . وارتفع بوق الراعى ، وامتد قطيع القرية قرب دار السيد . وعندما مرّ تروفيم امام ناستيا سلمها النعلين الصغيرين المبرقشين ، وتسلم منها نصف روبل مكافأة . تزيت ليزا بزى الفلاحة بهدوء ، وهمست لناستيا

بتعليماتها بخصوص مس جاكسون ، وخرجت الى المدخل الخلفى للبيت ، وركضت الى الحقل عبر الحديقة المحيطة بالدار .

كان الشروق يللمع في المشرق ، وبدت صفوف ذهبية من الغيوم تنتظر الشمس ، مثل رجال العاشية في انتظار السلطان . وملات السماء الصافية ، وطراوة الصباح ، والندى ، والنسيم ، وزغرودة الطيور قلب ليزا بفرح طفولي . وكانت تبدو ، وهي في خوف من لقاء شخص يعرفها ، وكأنها تطير وليست تسير . هدات ليزا من سيرها ، وهي تقترب من العرش الواقع على حدود اطيان ابيها . هنا كان عليها ان تنتظر الكسى . وكان قلبها يخفق خفقانا شديدا لسبب لا تدريه . الا ان الخوف الذي يصاحب نزواتنا الصبوية هو الجزء الرئيسي من فتنتها . دخلت ليزا في عتمة العرش . حيا الفتاة حفيف العرش الخافت المتماوج . هذا مرحها . وشيئا فشيئا استسلمت لحلم حلو . فكرت . . . ولكن هل من الممكن ان نحدد بدقة ما فكرت به آنسة في الساعة عشرة ، وهي وحيدة في العرش ، في الساعة السادسة من صباح ربيعي ؟ وهكذا سارت مفكرة ، في طريق مظلمة من كلا الجانبين باشجار عالية ، واذا بكلب صيد رائع ينبج عليها فجأة . ذعرت ليزا ، وصرخت . وفي تلك اللحظة صدر صوت : *tout beau, Shogar, ici...*

وخرج صياد شاب من وراء دغل . قال لها : «لا تخافى يا حسناء ، فكلبتي لا تعض» . كانت ليزا قد استعادت جاشها بعد الخوف ، واستطاعت ان تستغل الظرف في

... : توبو ، سوغار ، الى هنا . (بالفرنسية .)

الحال . وقالت وهي تتظاهر بشيء من الخوف وشيء من الخجل : «كلا ، يا سيد ، اخاف . انها خبيثة ، وستهجم مرة اخرى» . وخلال ذلك اخذ الكسي (والقارى قد عرفه) يتفرس بالفلاحة الشابة . وقال لها : «سارافك ، اذا كنت خائفة . اتسمحين لى بالسير الى جنبك؟» اجابت ليزا : «ومن يمنعك ؟ حسب ما تريد ، والطريق عام» - «من اين انت؟» - «من بريلوتشينو ، انا ابنة الحداد فاسيلي ، خارجة لجمع الفطر (وكانت ليزا تحمل سلة فى حبل) - «وانت ، السيد ؟ من ضيعة توغيلووفو؟» اجاب الكسي : «بالضبط . انا خادم السيد الشاب» . وكان الكسي يريد ان يساوى بينهما . الا ان ليزا نظرت اليه ، وضحكت . قالت : «انت تكذب . ليست امامك حقما . ارى انك السيد نفسه» . - «ولماذا تظنين ذلك؟» - «من كل شيء» - «مثلا؟» - «ولكن كيف لا يفرق بين السيد وخادمه ؟ اللباس يختلف ، والكلام يختلف وللكلبة اسم اجنبى» . وكانت ليزا من ساعة الى اخرى تعجب الكسي . وكان قد اعتاد ان يتصرف مع القرويات الطيبات ببساطة . فهم معانقتها ؛ الا ان ليزا صدت عنه ، واتخذت فجأة هيئة صارمة باردة ، حتى ان الكسي ، رغم ان ذلك اضحكه ، احجم عن مواصلة تطاولاته . قالت ليزا بوقار : «اذا كنت تريد ان تكون صديقين فى المستقبل ، فلا تخرج عن الحدود ، ارجوك» . سألها الكسي مقهقها : «ومن علمك هذه الحكمة ؟ اهي ناستيا التى اعرفها ، وصيفة سيدتك ؟ بهذه الطرق ينتشر التهذيب اذن!» شعرت ليزا بانها خرجت عن دورها ، فاصلحت امرها فى الحال . قالت : «وماذا

تظن ؟ اتحسب اننى لم اكن فى بيت سيد قط ؟ اكيد
اننى سمعت ورايت كل شىء . على كل حال ، الكلام
معك يمنعنى من جمع الفطر . فاذهب ، ايها السيد ، فى
جهة ، ولاذهب انا فى جهة اخرى . اذن ، مع
السلامة . . .» همت ليزا بالانصراف ، فامسكها الكسى من
يدها : «ما اسمك ، يا روى ؟» اجابت ليزا محاولة ان
تنزع اصابعها من يد الكسى : «لاكولينا . اطلقنى ، ايها
السيد ، فقد آن لى ان اعود الى البيت» . - «حسنا ، يا
صاحبتي اكولينا ، سازور اباك فاسيلى الحداد ،
بالتاكيد» . فاعترضت ليزا : «كيف هذا ؟ من اجل
المسيح لا تات . اذا عرف اهل اننى تكلمت مع سيد فى
العرش لوحدى ، فستصيبني اذية . سيضربني ابنى
فاسيلى الحداد حتى الموت» . - «ولكننى اود ان نلتقى
ثانية» - «سمأتى الى هنا ، مرة اخرى ، فى وقت ما ،
لاجمع الفطر» . - «متى ؟» - «غدا ، اذا اردت» . -
«يا عزيزتى اكولينا ، وددت لو اشبعك قبلا ، ولكننى
لا اجرؤ . اذن ، غدا ، فى مثل هذا الوقت ، اليس
كذلك ؟» - «نعم ، نعم» . - «الا تخدعيني ؟» - «لا
اخدعك» . - «اقسم لى» . - «اقسم بالجمعة
المقدسة» .

افترق الشابان . خرجت ليزا من الغابة ، واجتازت
الحقل ، وانسلت الى البستان ، ثم اندفعت الى مزرعة
الدواجن ، حيث كانت ناستيا فى انتظارها . وهناك
استبدلت ملابسها ، مجيبة بذهول عن اسئلة كاتمة
اسرارها ، ودخلت لغرفة الجلوس . كانت المائدة
مصفوفة ، وطعام الفطور معدا ، ومس جاكسون وقد

تبودرت على عاداتها ، وادخلت جسمها في مشد ، تقطع رقائق من الخبز . امتدحها ابوها على نزهتها الباكرة قائلا : «ليس هناك ما يناسب الصحة مثل الاستيقاظ في الفجر» . وبعد ذلك ضرب بعض الامثلة على طول العمر مستقاة من المجلات الانجليزية ، قائلا ان جميع الذين يعيشون اكثر من مائة عام لم يكونوا يتعاطون الفودكا ، وكانوا يستيقظون عند الفجر شتاء وصيفا . ولم تصغ ليزا اليه . كانت تعيد في ذهنها جميع ملابسات اللقاء الصباحي ، كل حديث اكولينا مع الصياد الشاب . واخذ ضميرها يعذبها . كان عبثا ان تعترض على نفسها بنفسها ، وان لا يخرج حديثهما عن حدود اللياقة ، وان يعجز عبثها عن ان ياتي باية نتيجة . كان ضميرها يتذمر اشد من عقلها . وكان الوعد الذي اعطته ليوم غد اكثر ما كان يقلقها . فعزمت كليا على ان تنكت بقسمها السامي . ولكن اذا خاب الكسى في انتظارها ، فقد يذهب الى القرية ليبحث عن ابنة الحداد فاسيلي ، اكولينا الحقيقية ، الفتاة البدينة المجدرة ، وبهذه الطريقة يكتشف لعبتها النزقة . وفزع ليزا من هذه الفكرة ، وقررت في الصباح التالي ان تظهر ثانية في العرش ممثلة دور اكولينا .

كان الكسى ، من جانبه ، مفتونا ، فقد قضى النهار كله يفكر بصاحبته الجديدة ؛ وفي الليل ، واثناء النوم لاحقت خياله صورة الحسناء السمراء . وما كاد الفجر ينفلق حتى كان مرتديا ثيابه . ولم يصرف وقتا لتعبئة بندقيته ، وخرج الى الحقل مع كلبته الوفية سبوغار ، وجرى الى مكان اللقاء الموعد . انقضى نحو نصف ساعة

في انتظار لا طاقة له به ؛ وفي آخر الامر لمح السرفان
 الازرق يلمح بين مجاميع الشجيرات ، فانطلق للقاء
 اكولينا الحبيبة . كانت تبتسم لغبطة امتنانه ؛ الا ان
 الكسى لمح اثار الجزع والقلق على وجهها فورا واراد ان
 يعرف سبب ذلك . اعترفت ليزا بان تصرفها بدا لها
 طائشا ، وانها ندمت عليه ، وانها في هذه المرة لم ترد
 ان تنكت بوعدا ، ولكن هذا سيكون اللقاء الاخير ،
 وانها ترجوه ان يقطع تعارفهما الذي لن يزدى الى شىء .
 طيب . وطبيعى ان هذا الكلام قيل باللهجة الفلاحية ؛
 الا ان الافكار والمشاعر غير المألوفة في فتاة بسيطة
 ابهرت الكسى . فاستعمل كل ذلاقة لسانه ليصرف
 اكولينا عن نيتها ، واكد لها براءة مقاصده ؛ ووعدا
 بانه لن يجترح اى سبب لندمها ، وانه سيطيعها في كل
 شىء ، وتوسل اليها ان لا تحرمه من متعة واحدة ، وهي
 ان يلتقى بها على انفراد ، على الاقل بين يوم ويوم ، او
 مرتين في الاسبوع . كان يتكلم بلسان عاطفة صادقة ،
 وفي تلك اللحظة كان عاشقا حقا . اصغت ليزا اليه
 صامتا . واخيرا قالت : «عِدْنِي ، بان لا تبحث عنى في
 القرية ابدا ، او تستفسر عنى . عدنى بان لا تبحث عن
 مواعيد معى غير التى اعينها انا» . اقسم الكسى لها
 بالجمعة المقدسة ، الا انها اوقفته بابتسامة وقالت :
 «لا اريد ان تقسم ، يكفينى وعدا منك فقط» . وبعد ذلك
 اخذا يتحدثان بود ، وهما يتمشيان سوية في الغابة ،
 حتى قالت له ليزا ان آوان عودتها قد حان . وافترقا ،
 ولما بقى الكسى وحده ، لم يستطع ان يفهم كيف
 استطاعت فتاة ريفية بسيطة بعد لقائين ان تسيطر عليه

هذا السيطرة الحقيقية . كان للقاءاته مع اقولينا سحر الجدة بالنسبة له ، ورغم ان تعاليم الفلاحة الغريبة بدت له ثقيلة ، الا ان فكرة النكوث بكلمته لم تخطر على باله ، بله غير ذلك . ذلك لان الكسى ، بالرغم من خاتمه المسحور ، والتراسل السرى ، وخيبة الامل الكئيبة ، كان فتى طيبا متوقدا ، ذا قلب صاف ، قادر على الاحساس بمتعة البراءة .

لو استجبت لرغبتى وحدها ، لوصفت بالتاكيد ، وبكل التفاصيل ، لقاءات الشابين ، وميلهما المتبادل المتعاطف ، وروح الثقة ، والمشاكل ، والاحاديث ، ولكننى اعرف ان الجمهور الاعظم من قرانى لا يشاركنى هذه اللذة . فان هذه التفاصيل ، بشكل عام ، لا بد ان تبدو مفرقة في العاطفية ، ولهذا اغفلها ، واقول باختصار انه لم يمض شهران حتى كان فتاى الكسى متيما في الحب الى حد الوله ، ولم تكن ليزا اقل انغمارا منه ، ولو كانت اكثر صمتا . وكان كلاهما سعيدا بالحاضر ، وقليل التفكير في المستقبل .

وكانت فكرة الرباط الابدى كثيرا ما تخطر على باليهما . ولكن احدهما لم يتحدث بها الى الآخر قط . والسبب واضح : وهو ان الكسى مهما يكن تعلقه بحبيبته اقولينا ، كان يتذكر دائما المسافة القائمة بينه وبين الفلاحة البائسة ؛ بينما كانت ليزا ترى اية كراهية قائمة بين والديهما ، ولم تستطع ان تأمل في مصالحة متبادلة . وفضلا عن ذلك ، فان انفتها قد اضرها بالخفاء ، امل رومانطيقى مبهم في ان ترى ، في آخر الامر ، صاحب ضيعة تونغيلوفو مرتميا على قدمسى

ابنة حداد بريلوتشينو . واذا بحدث مهم كاد يغير
العلائق فيما بينهما .

في صباح بارد صاف (من تلك الصباحات الثرى بها
خريفنا الروسى) خرج ايفان بتروفيتش بيرستوف ليتنزه
على فرسه ، بعد ان اخذ معه للحيفة ثلاثة ازواج من
كلاب الصيد ، وسائسا ، وبعض الغلمان الخدم حاملين
الخشخشات . وفي نفس الوقت كان غريغورى ايفانوفيتش
مورومسكى ، وقد اغرته جودة الطقس ، قد امر بان
تُسرج فرسه المقصومة الذيل ، وانطلق يعدو قرب
ممتلكاته المتنجلزة . وراى لدى اقترابه من الغابة جاره
جالسا بانفة على صهوة حصانه فى سترة طويلة مؤطرة
بفراء ثعلب ، ينظر ارنبا كان الغلمان يخرجونه من
الدغل بالزعيق والخشخشة . لو كان غريغورى
ايفانوفيتش قادرا على ان يتنبأ بهذا اللقاء ، لانعطف فى
ناحية ، بالطبع ؛ الا انه وقع على بيرستوف مصادفة ،
ووجد نفسه فجأة على بُعد اطلاقه مسدس منه . فلا بد
مما ليس منه بد . تقدم مورومسكى ، كرجل اوروبى
ثقق ، نحو خصمه ، وحياء باحترام . ورد بيرستوف
التحية بحماس دب مقيّد ينحنى للسادة حسب امر
مروضه . وفى تلك اللحظة قفز الارنب خارجا من
الغابة ، وركض فى العقل . زعق بيرستوف والسائس
باقصى ما تستطيعه حنجرتاها ، واطلقا الكلاب ،
وانطلقا فى اثره لا يلويان على شىء . فزعت فرس
مورومسكى التى لم تكن قد خرجت للصيد من قبل
وانطلقت تعدو . ارخى مورومسكى العنان لها ، وكان
يعتبر نفسه فارسا ممتازا ، ورضى فى دخيلة نفسه

بهذه المصادفة ، التي صرفته عن رجل يكره الحديث معه .
الا ان الفرس حين وصلت الى وهدة لم ترها من قبل ،
تنحت جانبا فجأة ، ففقد مورومسكى مكانه من السرج ،
وهوى ثقيلًا جدا على ارض متجمدة ، واستلقى لاعنا
فرسه المقصوفة الذيل ، التي توقفت كمن افاق على
نفسه ما ان احست بانها بدون راكبها . خبٌ ايفان
بتروفيتش على فرسه نحوه سائلا اياه هل اصيب بأذى .
وخلال ذلك قاد السائس' الفرس المذنبه ماسكا اياها من
لجامها . وساعد مورومسكى على امتطاء صهوتها . بينما
دعاه بيرستوف اليه : ولم يستطع مورومسكى الرفض ،
لانه احس بانه مدين ، وهكذا عاد بيرستوف الى بيته
مظفرا ، بعد ان اصطاد ارنبا ، وقاد خصمه جريحا ،
ويكاد يكون اسير حرب .

تحدث الجاران بود كثير ، وهما يتناولان الفطور .
طلب مورومسكى من بيرستوف عربة صغيرة ، لانه
اعترف بانه ، لما لحقه من اذى ، غير قادر على الوصول
الى بيته راكبا فرسه . رافقه بيرستوف حتى مدخل
البيت ، اما مورومسكى فلم يغادر الا بعد ان اخذ منه
عهدا بان ياتى فى اليوم التالى (مع الكسى ايفانوفيتش)
ليتناول غداء وديا فى بريلوتشينو . وعلى هذا النحو كان
العداء القديم والمتاصل على وشك ان يزول بسبب ذعر
الفرس المقصوفة الذيل .

هرعت ليزا للقاء ابيها غريغورى ايفانوفيتش وقالت
مندهشة : «ما هذا ، يا بابا ؟ لماذا تعرج ؟ اين فرسك ؟
ولمن هذه العربة ؟» اجابها غريغورى ايفانوفيتش :

«انك لن تحزرى ، my dear *» ، وروى لها ما حدث .
 لم تصدق ليزا اذنيها . ولم يدعها غريغورى ايفانوفيتش
 تفوق على نفسها معلنا ان بيرستوف الاب وابنه
 سيتغديان عنده غدا . قالت ليزا شاحبة اللون : «ما
 الذى تقوله ! بيرستوف الاب وبيرستوف الابن ! غدا
 سيتغديان عندنا ! لا ، لا يا ابي ، ليكن ما تريد ولكنى
 لن اظهر مهما يكن من شىء» . فاعترض الاب قائلا : «هل
 جنت ؟ متى اصبحت بهذا الحياء ؟ ام تضررين عداوة
 موروثه ، مثل بطلة روائية ؟ كفى ، لا تتحامقى . . .» -
 «لا ، يا بابا ، لن اظهر امام بيرستوف وابنه لو اعطيت
 كنوز الارض» . وهز غريغورى ايفانوفيتش كتفيه ،
 وكف عن مجادلتها ، لانه كان يعرف ان التصادم معها
 لا يأتى بشىء ، وذهب ليستريح من نزهته المذكورة .
 ذهبت اليزافيتا غريغوريفنا الى غرفتها ، واستدعت
 ناستيا . وتناقشت الاثنتان طويلا في زيارة الغد . ماذا
 سيظن الكسى اذا عرف في شخص الانسة النبيلة
 المؤدبة صاحبة اقولينا ؟ وماذا سيكون رايه في
 سلوكها ، واصولها وحجاها ؟ ومن جهة اخرى كانت
 ليزا تود كثيرا لو ترى الاثر الذى سيتركه فيه هذا
 اللقاء غير المتوقع ابدا . . . وفجأة ومضت فكرة في
 ذهنها افضت بها الى ناستيا في الحال ، وسرت الفتاتان
 بها كلقية ، وراتا ان تنفذ حتما .

وفي اليوم التالى سأل غريغورى ايفانوفيتش ابنته
 على مائدة الفطور اما تزال تنوى الاختفاء عن بيرستوف
 الاب وابنه ؟ اجابت ليزا : «بابا ، ساستقبلهما ، اذا
 * يا عزيزى . (بالانجليزية .)

كان هذا يروق لك ، ولكن على شرط هو انك لن توبخني
مهما اتخذت من زى ، ومهما اتيت من عمل ، ولن تصدر
منك اية امارة تنم عن دهشة او استياء» . قال غريغورى
ايفانوفيتش ضاحكا : «مرة اخرى نزوات ! حسنا ،
حسنا ، موافق . افعل ما تشائين ، يا مدلتى السوداء
الصينين» . وبهذه الكلمات قبلها من جبينها ، وانصرفت
ليزا لتستعد .

فى تمام الساعة الثانية دخلت الفناء عربية من صنع
معمل بيرستوف تجرها ستة خيول ، وسارت قرب دائرة
العشب الشديد الخضرة . وصعد بيرستوف الكبير الى
مدخل البيت يساعده خادمان ببزتيهما الرسميتين من خدم
مورومسكى . وفى اثره وصل ابنه ممتطيا صهوة جواد ،
ودخل معه الى غرفة الطعام ، حيث كانت المائدة معدة .
استقبل مورومسكى جاريه على احسن ما تكن الرقة ،
واقترح عليهما تفقد الحديقة وماوى الدواجن قبل الغداء ،
وقادهما عبر ممرات مكنوسة بعناية ، ومفروشة بالرمل .
اسف بيرستوف فى قرارة نفسه على بذل الجهد والوقت
فى نزوات غير مفيدة البتة ، الا انه التزم الصمت
تادبا . ولم يشاطر ابنه استياء ابيه المقتصد ، ولا
اعجابه بالمتنجلز المفرور . وانتظر بنفاد صبر ظهور
ابنة صاحب الدار ، التى سمع عنها الكثير ، رغم ان
قلبه ، كما نعرف ، كان مشغولا ، الا ان اى حسناء
شابة كانت تملك الحق فى مداعبة خياله .

عادوا الى غرفة الطعام ، وجلسوا ثلاثتهم . تذكر
العجوزان الزمن الخالى ، ونوادير من زمن خدمتهما فى
الجيش ، بينما راح الكسى يفكر فى الدور الذى سيلعبه

في حضور ليزا . وقرر ان السهوم البارد ، في كل الاحوال ، احشم المواقف ، واستعد لذلك . ففتح الباب ، فادار رأسه بقدر من عدم الاكتراث والتجرد الانوف كافٍ ، لا محالة ، ليثير قلب اى مغناج شديدة الغنج . ومن المؤسف ان الداخلة لم تكن ليزا ، بل مس جاكسون مبودرة مضغوطة بالمشدات ، مطرقة المينين ، ومنحنية قليلا تحية للضيوف ، وضاعت حركة الكسى العسكرية الرائعة هباء . وما كاد يستعيد شتات قواه حتى فتح الباب ثانية ، ودخلت ليزا في هذه المرة . نهض الجميع ؛ واخذ ابوها يقدم ضيفيه ، ولكنه توقف فجأة ، وعرض شفتيه بمجالة . كانت ليزا ، ليزاء السراء ، مبودرة الى اذنيها ، مكحلة باكتف مما تتكحل به مس جاكسون نفسها ؛ ومن شعرها الاصطناعي الذي كان اشرق لونا تناثرت خصلات مثل باروكة لويس الرابع عشر ، وبرز الرندان *à l'imbécile* ، مثل قالب التنورة عند *Madame de Pompadour* . . . وقد شدت خصرها شدا قويا فكان مثل حرف «لا» ، وكانت جميع مجوهرات امها التي لم تودع بعد في دائرة الرهونات تتلالا في اصابعها ، وعلى نحرها ، واذنيها . لم يستطع الكسى ان يتعرف على صاحبه اقولينا في هذه الانسة النبيلة المضحكة اللامعة . انحنى ابوه على يدها الصغيرة ، فحذا حذوه بأسى . وحين مس اصابعها الشاحبة خيل اليه انها ارتجفت . وخلال ذلك استطاع ان يلاحظ قدمها

• بطريقة حمقاء . (بالفرنسية .)

• السيدة دى بومبادور ، محبوبة الملك لويس الخامس

عشر . (الناشر .)

الصغيرة ، المعروضة عن قصد ، والمحتذية حذاء يكشف عن منتهى الضجج . وجعله هذا يتسامح بعض الشيء عن سائر زيبها . اما البودرة والكحل فانه لصفاء قلبه ، والحق يقال ، لم يلحظهما في النظرة الاولى ، وبعد ذلك لم تثر انتباهه . تذكر غريغوري ايفانوفيتش وعده ، فحاول الا يظهر دهشته ؛ الا ان عبث ابنته بدا له مسليا جدا فما كاد يستطيع ضبط نفسه . ولم يكن للانجليزية المتزمته مزاج للضحك . فقد حدثت ان الكحل والبودرة مسروقان من صوانها ، فشمت حمرة الاسى القرمزية من خلال بياض وجهها المصنوع . القت نظرات لاهبة على الطائشة الشابة ، التي تظاهرت بانها لا تلاحظها ، مزجلة كل ايضاح الى وقت آخر .

جلسوا الى المائدة . وتابع الكسى تمثيله دور الساهم الفارق في افكاره . وتصنعت ليزا ، وتكلمت من خلال اسنانها ، بصوت مترنم ، وبالفرنسية فقط . وكان ابوها يطيل النظر اليها كثيرا ، غير فاهم بفيثتها ، ولكن يحسب ذلك كله مسليا جدا . واغتاط الانجليزية واعتصمت بالصمت . وكان ايفان بتروفيتش وحده مرتاحا ، وكأنه في بيته : اكل ما يشبع شخصين ، وشرب كفايته ، وضحك على ضحكه ، وبمرور الوقت صار يتحدث بود متزايد ويقهقه .

وفي نهاية الامر نهضوا من وراء المائدة ، وانصرف الضيفان . واطلق غريغوري ايفانوفيتش العنان للضحك والاسئلة . سال ليزا : «لماذا فكرت في مخاطبتهما ؟ اتعرفين؟ كانت البودرة ملائمة لك حقا ، لا اريد ان اتدخل في اسرار الزينة النسائية ، ولكن لو كنت في مكانك لمضيت

في البودرة ، وطبيعي ليس بذلك الافراط ، بل اخف» .
وكانت ليزا مفتونة بنجاح لمبتها . عانت اباهما ، ووعدت بان تفكر في نصيحته ، وركضت لتسترضى مس جاكسون التي وافقت بعد لاي ان تفتح بابها ، وتصفى الى تبريرها . انها خجلت ان تظهر امام اناس غرباء سمراء البشرة ؛ ولم تجرأ على ان تطلب . . . ولكنها كانت واثقة من ان مس جاكسون الطيبة اللطيفة ستسامحها . . . وهكذا ، وعلى هذا المنوال . ولما تاكدت مس جاكسون من ان ليزا لم تفكر في الضحك منها ، هدات ، وقبلت ليزا ، واهدت لها علبة من البودرة الانجليزية كإمارة على المصالحة ، فتقبلتها ليزا مع ابداء الشكر الصادق .

والقارى يحزر ان ليزا لم تتوان في ان تظهر في صباح اليوم التالى في حرش اللقاء . وسالت الكسى على الفور : «كنت ، يا سيد ، عند اسيادنا يوم امس ؟ ما رايك بالآنسة سيدتنا ؟» اجاب الكسى انه لم يلحظها . فردت ليزا : «مؤسف !» فسأل الكسى : «ولماذا ؟» - «لاننى اردت ان اسالك احق ما يقول الناس . . .» - «ماذا يقولون ؟» - «احق ما يقولون اننى اشبه الآنسة ابنة سيدنا ؟» - «هراء ! انها بالنسبة لك اقبح القبح» - «آه ، ايها السيد ، من الخطيئة ان تقول ذلك . ان آنستنا بيضاء عصرية ! فكيف اقارن بها !» اقسم الكسى لها بانها احسن جميع الاوانس البيضاء ، ولكي يطمئنها تماما راح يصف سيدتها باوصاف مضحكة جعلت ليزا تفرق في الضحك من كل قلبها . وقالت متنهدة : «ومع ذلك وان كانت الآنسة مضحكة ، فانا

بالنسبة لها بلها، امية». فقال الكسى : «آه ، وجدت ما يحزن عليه ! اذا كنت تريد ان علمتك القراءة والكتابة في الحال». قالت ليزا : «اذن لنحاول» - «تفضل ، يا عزيزتى ، عسى ان نبدأ من الآن». وجلسا . واخرج الكسى قلما من جيبه ، ودفتر جيب ، وحفظت اقولينا الابدية بسرعة مذهلة . واعجب الكسى اعجابا لا نهاية له بسرعة ادراكها . وفي اليوم التالى ارادت ان تكتب ايضا . وبدأ القلم لا يطاوعها ، ولكن بعد بضع دقائق اخذت ترسم الحروف الابدية على قدر كاف من الصحة . قال الكسى : «اية اعجوبة ! تدرسينا يسير اسرع مما يسير على نظام لانكستر». وفي واقع الامر قرأت اقولينا قصة «ناتاليا ، ابنة البيار» * مقطعة الكلمات الى مقاطع ، مبدية بين الحين والآخر ملاحظات اذهلت الكسى عن جد ، وكتبت صفحة كاملة من الحكم الماثورة الماخوذة من هذه القصة .

ومضى اسبوع ، وجرى بينهما تراسل . اقيمت دائرة بريد في تجويف شجرة بلوط عجوز . وقامت ناستيا سرا بواجب ساعى البريد . وكان الكسى يحمل الى هناك الرسائل المكتوبة بخط كبير ، ويجد كلمات محبوبته غير المستقيمة المكتوبة على ورق ازرق بسيط . والظاهر ان اقولينا تعودت اكثر على تقويم الصبارة ، وكان عقلها يتطور ويتهذب بشكل ملحوظ .
وخلال ذلك اخذت الصبارة الجديدة بين ايافان

* البيار - فنة اجتماعية عليا في روسيا القديمة .

(المترجم .)

بتروفيتش بيرستوف وغريغورى ايفانوفيتش مورومسكى تقوى شيئا فشيئا ، وسرعان ما تحولت الى صداقة ، وفق هذه الملابسات : كثيرا ما فكر مورومسكى بانه بوفاة ايفان بتروفيتش ستتقل ضيعته كلها الى يد الكسى ايفانوفيتش ؛ وعلى هذا النحو يصبح الكسى ايفانوفيتش من اغنى اصحاب الاراضى فى تلك الولاية ، ثم ليس هناك سبب يمنع الكسى من الزواج بليزا . اما بيرستوف المعجوز فعل الرغم من اقراره بوجود بعض الطيش فى جاره (او الحماقة الانجليزية ، على حد تعبيره) ، فانه لم ينكر فيه بعض الخصال الحميدة ، ومن ذلك حسن تدبير نادر . كان غريغورى ايفانوفيتش مورومسكى يمت بصلة قريبي قريبة للكونت برونسكى ، الرجل البارز والقوى الباس . وكان فى مقدور الكونت ان يكون مفيدا جدا للكسى ، اما مورومسكى فمن المحتمل (وهذا ما كان يفكر به بيرستوف) ان يسر بان يزوج ابنته بطريقة نافعة . كان كلا المعجوزين يفكر بذلك على انفراد ، حتى جاء وقت ، فى نهاية الامر ، تكاشفا فيه ، وتعانقا ، ووعد احدهما الآخر بان يعالج الامر معالجة مدروسة ، ثم اخذ كل واحد يسعى من جهته . وكانت امام مورومسكى صعوبة ، هى ان يقنع ابنته بتسى ان تتعرف عن قرب بالكسى الذى لم تراه منذ ذلك الغداء المشهود . وظهر ان احدهما لا يروق كثيرا للآخر ؛ او على اقل تقدير لم يعد الكسى الى بريلوتشينو ، بينما لزم ليزا غرفتها كلما تلطف ايفان بيتروفيتش بزيارتها . وفكر غريغورى ايفانوفيتش ؛ ولكن اذا كان الكسى سيداب على زيارتنا كل يوم ، فان بيتسى ستقع فى غرامه لا

محالة . . فان ذلك من طبيعة الاشياء . والزمن يسوى كل شيء .

كان ايغان بتروفيتش اقل قلقا من نجاح مقاصدهما . في ذلك المساء استدعى ابنه الى مكتبه ، واشتمل غليونه ، وقال بعد برهة من الصمت : «لماذا كفت منذ زمان عن التحدث عن الخدمة العسكرية ، يا الكسى ؟ ام لم تعد بزة الفارس تفتنك ؟ . . » اجاب الكسى باحترام : «لا ، يا ابي ، ارى انك لا تريد ان ادخل في سلك الفرسان ، وواجبي ان اطيعك» . رد ايغان بتروفيتش : «حسنا ، انا ارى انك ابن مطيع ، وهذا ما يسليني : ولكنى انا ايضا لا اريد ان اقف دون ارادتك ، ولا اقسرك على الدخول . . . الآن . . . في الخدمة المدنية ؛ ولكن انوى في الوقت الحاضر تزويجك» .

سال الكسى مندهشا :

- بمن ، يا ابي ؟

اجاب ايغان بتروفيتش :

- بليزافيتا غريفوريفنا مورومسكايا . عروسة

ممتازة ، اليس كذلك ؟

- يا ابي ، انا لا افكر بالزواج بعد .

- انت لا تفكر . ولكننى فكرت لك واطلت

التفكير .

- هذا شأنك . مع ان ليزا مورومسكايا لا تعجبني

البتة .

- ستمعجبك فيما بعد . اصبر تحب .

- انا لا اشعر باننى قادر على ان اهبها سعادتها .

- سعادتها ليست من شأنك . ماذا ؟ اذن ، على هذا النحو تحترم ارادة الوالد ؟ طيب !

- حسب ما تشاء ، ولكن انا لا اريد ان اتزوج ، ولن اتزوج .

- ستتزوج والا فستحل عليك لعنتي ، اما الضيعة ، فسأبيعهما ، والله ، وابذر النقود ، ولا يبقى لك شروى نقير ! سامهلك ثلاثة ايام للتفكير ، وحتى ذلك الحين لا تجرا على ان تقع امام بصرى .

كان الكسى يعرف ان اياه اذا عزم على شىء فلن تستطيع ان تقلعه من راسه على حد تعبير تاراس سكوتينين . ولكن الكسى فى طباعه كان شبيها بابيه . ومن الصعب جدا ان تشنيه عن مرامه . اوى الى غرفته ، وراح يفكر فى حدود سلطة الوالد ، وفى ليزافيتا غريغوريفنا ، وفى وعد ابيه علنا بان يجعله معدما ، واخيرا فى اكولينا . ولاول مرة رأى بوضوح انه متيم بها ؛ وخطرت فى باله الفكرة الروائية فى الزواج بفلاحة ، والعيش بكده ، وكلما اطال التفكير فى هذا المسلك الحازم رأى فيه المزيد من التبصير . وكانت اللقاءات فى الحرش قد انقطعت بعض الوقت بسبب الطقس الممطر . كتب لاکولينا رسالة باوضح خط ، وبالهب عبارة يعلمها بالدمار الذى يهددهما ، ويعرض لها يده فى الوقت ذاته . وقد حمل الرسالة فورا الى نقطة بريدهما فى شجرة البلوط ، واوى الى مضجعه راضيا عن نفسه كثيرا .

وفى بكرة الصباح التالى ذهب الكسى الى مورومسكى ثابتا على نيته ، ليكاشفه بصراحة . وامل ان يشير

نخوته ، ويستميله الى جانبه . اوقف حصانه امام مدخل قصر بريلوتشينو ، وسأل : «هل غريغوري ايفانوفيتش في البيت ؟» اجاب الخادم : «لا ، لقد خرج غريغوري ايفانوفيتش منذ الصباح» . وفكر الكسى : «يا للاسف !» وسأل : «على كل حال ، هل ليزافيتسا غريغوريفنا موجودة ؟» - «نعم» . وقفز الكسى من جواده ، وسلم المقود في يد الخادم ، ودخل دون تبليغ سابق .

وفكر ، وهو يقترب من غرفة الجلوس : «سيتقرر كل شيء . وسيكاشفها» . ودخل . . . وتوقف ! كانت ليزا . . . لا ، ليست ليزا بل اكولينا ، السمراء الحبيبة اكولينا ، تجلس امام النافذة مرتدية ثوبا صباحيا ابيض وليس سرفانا ، تطالع رسالته . كانت مستفرقة في القراءة حتى انها لم تسمع حركته وهو يدخل . ولم يستطع الكسى ان يكتفم اهتة الفرح . جفلت ليزا ، ورفعت رأسها ، وصرخت ، وهمت بالاختفاء . اندفع الكسى يمنعا . «اكولينا ، اكولينا ! . .» حاولت ليزا ان تحرر نفسها منه . . . كررت متنحية :

• « Mais laissez — moi donc, monsieur ;
mais êtes — vous fou ? »

وكرر هو مقبلا يدها : «اكولينا ، يا صديقتي ، اكولينا» . ولم تدر مس جاكسون التي شهدت هذا المنظر ماذا

• اتركني ايها السيد ، هل جنت ؟ (بالفرنسية .)

يحدث . وفي تلك اللحظة فُتح الباب ، ودخل غريغوري
ايفانوفيتش قال :
- اها ! يبدو ان قضيتكما منتهية تماما . . .
والقراء سيعفونني عن امر زائد هو وصف حل
العقدة .

نهاية قصص بيلكين

١٨٣٠

دوبروفسکی

الجزء الاول

الفصل الاول

منذ عدة اعوام خلت عاش النبيل الروسي العريق كيريلا بتروفيتش ترويكوروف في احدى ضيعه . وقد هيا له ثراؤه واصله العريق وعلاقاته مركزا مرموقا في المحافظات التي ضمت املاكه . وكان جيرانه على اسم الاستعداد لاشباع اقل نزوة من نزواته . اما موظفو المحافظة فكانوا يرتعدون لدى سماع اسمه . ولقد تقبل كيريلا بتروفيتش علامات الخنوع هذه كجزية واجبة . وكانت داره تفص دائما بالضيوف المستعدين لتملق لهوه الارستقراطي ، ومشاركته مرحة الصاحب ، بل والعاصف احيانا . ولم يكن احد ليجرؤ على رفض دعواته ، او التخلف عن الحضور الى قرية بكروفسكويه في ايام معينة لتقديم فروض الولاة . وفي حياة كيريلا بتروفيتش المنزلية تجلت كل رذائل الانسان الجاهل . لقد كان مدلا من قبل كل ما يحيط به فتعود ان يطلق العنان لنزوات طبعه العاصف وللمكائد التي يدبرها عقله المحدود . وبالرغم من امكانياته البدنية الخارقة ، فقد كان يمانى من التخمة مرتين في الاسبوع ويسكر كل مساء . وفي احد اجنحة داره كانت تقطن ١٦ وصيفة ،

يعملن في اشغال التطريز ، ذلك العمل المميز لجنسهن . وكانت النوافذ في الجناح تحجبها شبكة من العوارض الخشبية ، والابواب تقفل بالكوالين التي يحتفظ كيرىلا بتروفيتش بمفاتيحها . وفي ساعات معينة كانت السجينات الشابايات يخرجن الى الحديقة للتريض تحت رقابة امراتين عجوزين . ومن وقت لآخر كان كيرىلا بتروفيتش يزوج بعضهن ، ثم تحل وصيقات جديدات محل من تزوجن .

اما معاملته للفلاحين والخدم فكانت صارمة وتحكمها اهاوزه . ومع ذلك فقد كانوا يكتنون له الولاء ، ويتباهون ببراء ومجد سيدهم ويتناولون كثيرا على جيرانهم معتمدين على حمايته القوية .

كان العمل الدائم لترويكورف هو الطواف باملاكه الواسعة ، واقامة الولايم المستمرة ، وتديبر المكائد كل يوم ، والتي عادة ما يقع ضحيتها احد المعارف الجدد ، وان كان اصحابه القدامى لا يتقون شرها دائما ، باستثناء انرييه جافريلوفيتش دوبروفسكى فقط . وكان ملازم الحرس المتقاعد دوبروفسكى هذا اقرب جار اليه ، ويملك سبعين فلاحا . ومع ان ترويكورف كان متمجرفا في علاقاته مع ارفع الناس مقاما الا انه كان يحترم دوبروفسكى رغم ثروته المتواضعة . لقد كانا في وقت ما رفيقين في السلاح ، وعرف ترويكورف بتجربته مدى ضيق صدره وطبعه الحازم . ثم فرقتهما الظروف لمدة طويلة . واضطر دوبروفسكى بثروته المنهارة الى الاستقالة والاقامة في ضيعته الوحيدة الباقية . وعندما علم كيرىلا بتروفيتش بذلك ، عرض

عليه حمايته ، لكن دوبروفسكى شكره وظل فقيرا ومستقلا . وبعد عدة سنوات قدم ترويكورف الى ضيعته بعد ان اصبح جنرالا ، فالتقيا ، وفرح كل منهما بلقيا الآخر . ومن ساعتها وهما يتقابلان كل يوم ، وصار ترويكورف ، الذى لم يشرف احدا بزيارته يتردد ببساطة على دار صديقه القديم المتواضعة . ولما كانا من عمر واحد ، وابناء طبقة واحدة وتربية متشابهة ، فقد التقيا الى حد ما من حيث الطبع والهوايات . بل لقد كان مصيرهما ايضا متشابهاً من بعض النواحي . فقد تزوج كلاهما عن حب ، وترمل كلاهما بسرعة ، وتبقى لكل منهما مولود ، فتربى ابن دوبروفسكى فى بطرسبرج ، وشبت ابنة كيرىلا بتروفيتش فى منزل ابيها . وكثيرا ما كان يقول لدوبروفسكى : «اسمح يا اخى اندريه جافريلوفيتش . اذا ما شب ولدك فتى طيبا ، فسازوجه من ماشا ، فالفقير ليس عيبا» . ولكن اندريه جافريلوفيتش كان يهز رأسه ويردد عادة : «كلا يا كيرىلا بتروفيتش ، ان ابنى فولوديا لا يصلح زوجا لابنتك ماريا كيريلوفنا ، فمن الافضل لنبييل فقير مثله ان يتزوج من نبييلة فقيرة ويصبح سيد الدار ، على ان يكون خوليا لامرأة مدللة» .

كان الجميع يغبطون هذا الوفاق السائد بين ترويكورف المتفطرس وجاره الفقير ، ويدهشون لجرأة الاخير عندما كان يقول رايه بصراحة على مائدة كيرىلا بتروفيتش دون ان يعنيه ان كان يتعارض مع رأى رب الدار ام لا . وقد حاول البعض ان يقلدوه ويخرجوا عن حدود الاذعان الواجب ، ولكن كيرىلا بتروفيتش ارعبهم

لدرجة انه واد فيهم الرغبة في مثل هذه المحاولات ،
وظل دوبروفسكى وحده خارج حدود القانون العام . غير
ان حدثا عارضا افسد كل شيء ، وبدله .

فذات مرة في بداية الخريف ، استعد كيريللا
بتروفيتش للخروج الى الصيد . وصدرت الاوامر مسبقا
الى مدربى الكلاب وساسة الخيول بان يكونوا مستعدين
في الساعة الخامسة صباحا . وارسلت الخيمة والمطبخ
سلفا الى المكان الذى كان من المفروض ان يتناول فيه
كيريللا بتروفيتش غذاءه . وتوجه رب الدار وضيوفه
الى حظيرة الكلاب ، حيث كان يعيش اكثر من خمسمائة
من كلاب الصيد متمتع بالدفء والرفاهية ، مشيدة بكرم
كيريللا بتروفيتش بلفتها الخاصة . وكان هناك ايضا
مستشفى للكلاب المريضة تحت رعاية «الحكيم الرئيسى»
الفلاح تيموشكا وكذلك قسم للاناث الاصيلة لتلد فيه
وترضع صغارها . وكان كيريللا بتروفيتش يفخر بهذه
المؤسسة الرائعة ، ولم يترك مناسبة تمر الا وتباهى
بذلك امام ضيوفه ، الذين كان كل واحد منهم يراها
للمرة العشرين على الاقل . واخذ يتمشى فى الحظيرة يحف
به ضيوفه ويرافقه تيموشكا وكبار مدبرى الكلاب ،
ويتوقف امام بعض حظائر الكلاب سانلا تارة عن صحة
المرضى ، وتارة موجهها ملاحظات صارمة وعادلة الى هذا
الحد او ذاك ، وتارة اخرى مناديا بعض الكلاب المحببة
اليه فيتحدث اليها برقة . وكان الضيوف يرون من
واجبهم ان يثنوا على حظائر كيريللا بتروفيتش ، لكن
دوبروفسكى وحده ظل صامتا وعابسا . لقد كان صيادا
مولعا بالصيد ولم تمكنه ثروته من اقتناء اكثر من

كلبين من كلاب الصيد ومجموعة صغيرة من الكلاب السلوقية فلم يستطع ان يكتم بعض الحسد عندما رأى هذه المؤسسة الرائعة .

وسأله كيرىلا بتروفيتش :

- ما لك عابس يا اخسى ؟ ام ترى حظائرى لا

تعجبك ؟

فاجاب بجفاء : - كلا ، حظائرك خلافة ، وانى لاشك

ان رجالك يعيشون مثلما تعيش كلابك .

فانزعج احد مدبرى الكلاب وقال :

- اننا ، والحمد لله وللسيد ، لا نشكو من

عيشتنا ، ولكن الحقيقة تبقى حقيقة ، فان بعضا من

النبلاء لا يضيره ان يستبدل بضيعته حظيرة من حظائر

الكلاب هذه . فسيشعر هنا بشبع ودفء اكثر .

وقهقه كيرىلا بتروفيتش عاليا عندما سمع ملاحظة

تابعه الجريئة ، وقهقه الضيوف على اثره ، مع انهم

احسوا ان مزحة مدرب الكلاب يمكن ان تمسهم ايضا .

وشحب وجه دوبروفسكى ، ولم ينبس ببنت شفة .

وفى هذا الوقت جرى لكيرىلا بتروفيتش بالجراء

الوليدة ، فى سلة ، فانشغل بها ، واختار من بينها

جروين وامر باغراق الباقي ، بينما اختفى اندريه

جافريلوفيتش ، ولم يلحظ احد ذلك .

عندما عاد كيرىلا بتروفيتش وضيوفه من الحظائر ،

جلس لتناول العشاء ، وساعتها لاحظ تخلف دوبروفسكى

فسال عنه ، فاخبروه بانسه عاد الى داره . فامر

ترويكوروف ان يلحق به احد فورا ، ولا يعود الا به .

فلم يحدث ابدا ان خرج للصيد بدون دوبروفسكى

المقدّر الخبير والعالم بميزات كلاب الصيد والحلال الذي لا يخطئ لكل خلاقات الصيادين . وعاد الخادم الذي انطلق لاحضاره ولما انتهى العشاء ، فافضى الى سيده بان اندريه جافريلوفيتش لم يطع للامر ورفض ان يعود وغضب كيرىلا بتروفيتش ، وقد هيجبه الشراب كعادته ، فامر هذا الخادم نفسه بان يعود الى اندريه جافريلوفيتش ويبلغه بأنه اذا لم يعد حالاً ويقضى ليلته في بكروفسكويه فانه ، اى ترويكورف ، سيخاصمه الى الابد . وقفل الخادم راكضاً ، ونهض كيرىلا بتروفيتش من المائدة ، وصرف ضيوفه وتوجه للنوم .

وفي اليوم التالى كان اول سؤال وجهه هو : هل اندريه جافريلوفيتش موجود ؟ وبدلا من الجواب قدموا اليه رسالة مطوية على شكل مثلث ، فامر كيرىلا بتروفيتش كاتبه ان يقرأها جهرا ، فسمع التالى :

«سيدى الفاضل ، لقد عقدت العزم على الا اعود الى بكروفسكويه ما لم ترسلوا الىّ مدرب الكلاب باراموشكا ليقدّم اعتذاره . وسيكون لى الخيار ان اعاقبه او اعفو عنه ، فلست مستعدا ان اقبل مزاح اتباعكم ، بل ولا حتى مزاحكم انتم ، اذ انى لست مهرجا ، بل انا نبيل عريق . وتفضلوا بقبول فائق احترامى .

اندريه دوبروفسكى» .

ولو حكمنا على هذه الرسالة من خلال مفاهيمنا العالية عن المجاملة لاعتبرناها مجافية تماما للادب .

ولكن الذى اغضب كيرىلا بتروفيتش لم يكن كلماتها
واسلوبها الغريب بل محتواها .

زمجر ترويكورف وهو يقفز حافى القدمين من
الغراش :

- ماذا ؟ ارسل اليه اتباعى ليعتفروا له ، وله
الخيار ان يعفو عنهم او يعاقبهم ؟ ترى من يظن نفسه
حقا ؟ وهل يعرف ضد من يقف ؟ حسنا . . . سوف
اريه . . . سوف يندم كثيرا ، وسيعرف ما معنى
الوقوف بوجه ترويكورف !

وارتدى كيرىلا بتروفيتش ملابس له ورحل الى الصيد
تحوطه جميع مظاهر الابهة المعتادة ، ولكنهم لم يوفقوا
فى الصيد ، فلم يروا طوال اليوم الا ارنبا واحدا . وحتى
هذا لم يفلحوا فى اقتناصه ، كذلك لم يكن الغداء فى
الهواء الطلق تحت الخيمة موفقا ، او على الاقل لم يكن
حسب مزاج كيرىلا بتروفيتش ، الذى ضرب الطاهسى
وسب الضيوف ، وفى طريق العودة مرّ مع رهطه كله
عبر حقول دوبروفسكى عامدا .

مرت عدة ايام ولم تهدأ العداوة بين الجارين ، فلم
يعد اندريه جافريلوفيتش الى بكروفسكويه ، وشعر
كيرىلا بتروفيتش بدونه بالضجر ، فعبر عن اساء
باقذع الشتائم ، التى كانت ، بفضل جهود النبلاء
المحليين ، تصل الى دوبروفسكى منقحة ومزيدة . ثم
جد جديد قضى على الامل الاخير فى الصلح .

فقد اتفق ذات مرة ان كان دوبروفسكى يتفقد
ضيعته الصغيرة ، وعندما اقترب من غيضة اشجار
البتولا سمع ضربات فأس ثم بعد لحظة طقطقة شجرة

اجتنت ، فاسرع الى داخل الفيضة ففجا فلاحين من
بكروفسكويه يسرقون اشجاره بهدوء . وعندما راوه
حاولوا الهرب ، لكن دوبروفسكى استطاع بمساعدة
حوزيه ان يقبض على اثنين منهم وقادهما مقيدين الى
داره . واستولى المنتصر ايضا على ثلاثة من خيول العدو
غنيمة . وكان دوبروفسكى غاضبا الى اقصى حد ، فلم
يحدث من قبل ان اجترا رجال ترويكورف المشهورون
بيلطجتهم على العيب في حدود ممتلكاته لعلمهم بعلاقة
الصدقة التي تربط بينه وبين سيدهم . وقد رأى
الآن دوبروفسكى انهم استغلوا الجفوة التي حدثت ،
فقرر - مخالفا جميع قواعد قانون الحرب - ان يجلد
اسيريه بغصون الاشجار اللينة التي سرقاها من
غيضته ، ويبعث بالخيول للصل بعد ضمها الى مواشيه .

وطار نبا الواقعة الى كيريبلا بتروفيتش في نفس اليوم
فجن جنونه وفكر ، في فورة غضبه ، ان يتوجه مع كل
اتباعه ليشنوا هجوما على كيستنيوفكا (هكذا كانت
تسمى قرية جاره) فيدمرها عن آخرها ، ويحاصر
الاقطاعى نفسه في داره ، وما كانت هذه المآثر بجديدة
عليه ، لكن افكاره سرعان ما سارت في اتجاه آخر .

وبينما كان يروح ويجيء في الصالة بخطوات ثقيلة
مضت منه لفتة نحو النافذة فرأى عربة تجرها ثلاثة خيول
تتوقف عند البوابة ويخرج منها رجل صغير الجسم
يرتدى قبعة جلدية ومعطفا من قماش خشن متجها الى
جناح الخولى ، فتعرف فيه ترويكورف على المحلف
شامباشكين وأمر باستدعائه . وما هى الا لحظة حتى

كان شاباشكين مائلا بين يديه ، محييا بانحناءة تلو انحناءة ومنتظرا اوامره برهبة وخنوع .

وحياه ترويكورف قائلا :

- كيف حالك يا هذا . . . ماذا وراءك ؟

فاجاب شاباشكين :

- لقد كنت ذاهبا الى المدينة يا صاحب المعالي

فخرجت على ايفان دميانوف لأعرف ان كانت هناك اية اوامر من معاليكم .

- لقد جئت في الوقت المناسب يا هذا . . . اني

بحاجة اليك . خذ قدحا من الفودكا واصنع الى .

واصاب هذا الاستقبال الرقيق الموظف بذهول

محبب فاعتذر عن تناول الفودكا واستعد لسماع كيريل بتروفيتش بكل ما وسعه من انتباه .

وقال ترويكورف :

- يوجد لدى هنا جار ، اقطاعي صغير وقع ،

واريد ان استولى على ضيعته ، فما رأيك في هذا ؟

- اذا كانت لديكم يا صاحب المعالي اية مستندات

او . . .

- كفى هذا يا صاح . اية مستندات تريد ا

هذا امر معروف ، انما المقصود ان نستولى على الضيعة

بدون وجه حق . ولكن مهلا . . . لقد كانت هذه الضيعة

في وقت ما ملكنا ، اشتريناها من المدعو سبيتسين ، ثم

بيعت بعد ذلك الى والد دوبروفسكي . الا يمكن ان

نتمحك بذلك ؟

- امر عسير يا صاحب المعالي . اغلب الظن ان

البيع قد تم بطريقة قانونية .

- فكر يا صاح . . . ابحت جيدا .
- لو كان بإمكانكم مثلا يا صاحب المعالي ان تحصلوا باى وسيلة كانت من جاركم على العقد الذى ينبت ملكيته للضيعة لكان طبعاً . . .
- مفهوم ، ولكن المصيبة ان كل اوراقه احترقت عندما شبت بمنزله النار .
- ماذا تقول يا صاحب المعالي . . . احترقت اوراقه ! هذا اقصى ما تتمناه . فى هذه الحالة تصرف حسب القانون ، وستصل دون ادنى شك الى غاية ما تصبو اليه .
- هل تعتقد ذلك ؟ حسناً ، انى اعتمد على جهودك ، ولك ان تطمئن بخصوص المكافاة .
- وانحنى شاباشكين حتى كاد يلامس الارض ثم خرج ومن يومها اخذ يسمى فى هذا الامر ، وبفضل دهائه تلقى دوبروفسكى من المدينة بعد اسبوعين بالضبط دعوة بتقديم التفسيرات الضرورية فوراً بخصوص ملكيته لقرية كيستنيوفكا .
- وذهل اندريه جافريلوفيتش لهذا الطلب المفاجئ . فكتب فى نفس اليوم مذكرة شديدة اللهجة ، اعلن فيها ان قرية كيستنيوفكا آلت الى ملكيته بعد وفاة المرحوم والده ، وانه يملكها بحق الوراثة ، وليس لترويكورف اى دخل بذلك ، وائى تطلع الى ملكيته هذه لا يعدو ان يكون دسيسة واحتيالاً .
- وقد تركت هذه الرسالة اثراً طيباً فى نفس شاباشكين ، فقد عرف منها اولاً : ان دوبروفسكى لا يفقه كثيراً فى هذه الامور ، وثانياً : ان شخصاً بمثل

هذا الاندفاع والتهور لن يكون من الصعب زجه في اقصى
المواقف حرجا .

وبعد ان بحث اندريه جافريلوفيتش بتمعن اكبر
طلبات الموظف ، رأى من الضروري ان يرد ردا اكثر
اسهابا ، فكتب مذكرة مقنعة ومع ذلك ظهر فيما بعد
انها لم تكن كافية .

واخذ الامر يطول ، ولكن اندريه جافريلوفيتش ،
الواثق من عدالة قضيته ، لم يقلق كثيرا ، ولم تكن
لديه لا الرغبة ولا الامكانية ان يبعثر من حوله النقود ،
ومع انه كان دائما اول من يهزا بفئة الكتبة لضمايرهم
المرتشية ، الا انه لم يجلب بخاطره ابدا ان يصبح ضحية
للدسياسة . اما ترويكورف فلم يهتم هو الآخر كثيرا
بكسب القضية التي لفقها ، فقد كان شاباشكين يسمى
من اجله ، متحدثا باسمه ، مهددا وراشيا القضاة ،
ومتحايلا في تفسير مختلف القوانين والقراسيم . وعلى
اية حال فقد تلقى دوبروفسكى في التاسع من فبراير عام
الف وثمانئة و . . . عن طريق بوليس المدينة دعوة
بالمثول امام محكمة ناحية (. . .) لسماع قرار المحكمة
المذكورة في قضية النزاع على ملكية ضيعة بينه هو
الملازم دوبروفسكى ، وبين الجنرال ترويكورف
وللتوقيع على قبوله او عدم قبوله للقرار . وتوجه
دوبروفسكى في نفس اليوم الى المحكمة . وفي الطريق
لحق به ترويكورف وسبقه ، فنظر كل منهما الى الآخر
بانفة ، ولاحظ دوبروفسكى ابتسامة شريرة على شفطي
خصمه .

الفصل الثاني

عندما وصل اندريه جافريلوفيتش الى المدينة نزل ضيفاً على احد معارفه التجار ، ف قضى الليل عنده ، وفي الصباح توجه الى محكمة الناحية . ولم يعرف احد التفاتا ، ثم وصل بعده كيريل بتروفيتش فوقف الكتبة وقد دسوا الاقلام خلف آذانهم ، اما اعضاء المحكمة فاعربوا عن عميق امتنانهم لرؤيته وقدموا له كرسيًا بدافع الاحترام لرتبته وسنه وهيئته . فجلس امام الباب المفتوح . اما اندريه جافريلوفيتش فوقف ، مستندا الى الجدار وحل صمت عميق ، ثم بدا السكرتير يقرأ قرار المحكمة بصوت رنان .

وها نحن نورده هنا كاملا ، اعتقادنا منا بأن كل واحد سيسره ان يرى احدى الوسائل التي يمكن بها في روسيا ان نفقد املاكنا ، التي لنا في ملكيتها حق لا ينازع . *

صمت السكرتير ، ونهض المحلف فحيا ترويكورف بانحناءة كبيرة ودعاء للتوقيع على القرار ، فوقع ترويكورف الظاهر على قرار المحكمة بالقبول التام . وجاء دور دوبروفسكي ، فقدم اليه السكرتير

* وبعد ذلك يورد بوشكين تعريفا قضائيا تعدد ترجمته ، نموذجاً للغة المبصرة الركيكة للوثائق القانونية لذلك الزمن ، وفيها «بيرهن» من طريق مختلف الترويفات القانونية على ان آل ترويكوروف هم المالكون الشرعيون لضيعة آل دوبروفسكي . (الناشر .)

الورقة ولكنه مكث ساكنا بلا حراك منكس الرأس .
وكرر السكرتير دعوته له بالتوقيع اما بالقبول
التام او عدم القبول القاطع اذا كان يشعر - على غير
المتوقع - في قرارة ضميره بان الحق في جانبه وينوى
استئناف الحكم لدى الجهات المختصة وفي المدة التي
يحددها القانون . وظل دوبروفسكى صامتا . ولكنه رفع
راسه فجأة ، ولمعت عيناه ، ودق الارض بقدمه ، ودفع
السكرتير بقوة ، حتى سقط هذا الاخير ، ثم امسك
بالمحبرة وقذف المحلف بها . وروع الجميع ، وصرخ
دوبروفسكى : «كيف ! الا تحترمون بيت الله !» ثم
مخاطبا كيرىلا بتروفيتش : «هل سمعتم يا صاحب
المعالى ان مدربي الكلاب يسوقونها الى الكنيسة ؟ !
الكلاب تركز في الكنيسة ، بيت الله . . ساربيكم
جميعا . . .» وتجمع الحرس على الضجة وسيطروا عليه
بصعوبة ، ثم اخرجوه واجلسوه في الزحافة . وخرج
ترويكورف في اثره تحف به هيئة المحكمة كلها . لقد
اثر عليه جنون دوبروفسكى المفاجى' تأثيرا شديدا
وبدد نشوة النصر . اما القضاة الذين كانوا يطمعون في
كرمه فلم يحظوا منه بكلمة تحية واحدة . وتوجه في
اليوم نفسه الى بكروفسكويه ، بينما لزم دوبروفسكى
الفراش . وعاده طبيب الناحية الذي لم يكن لحسن
الحظ جاهلا تماما فحجمه وركب له دود العلق والذباب
الهندي فشعر بتحسن في المساء ، وعاد الى وعيه . وفي
اليوم التالي حملوه الى كيستينيوفكا التي لم تعد ملكه
تقريبا .

الفصل الثالث

مرت فترة من الزمن ولكن حالة دوبروفسكى المسكين ظلت سيئة . صحيح ان نوبات الجنون لم تعاوده ، ولكن قواه اخذت تهن بشكل ملحوظ . لقد نسى هواياته السابقة ولم يعد يغادر غرفته الا نادرا ، ويستغرق في التفكير اياما كاملة . واصبحت يجورفنا ، تلك العجوز الطيبة التي كانت تعنى بابنه فيما مضى ، مربيته هو الآن . كانت تعنى بشؤونه وكأنه طفل صغير ، وتذكره بمواعيد الاكل والنوم ، وتطعمه وتعد له الفراش . واستسلم لها اندريه جافريلوفيتش في هدوء ، ولم يعد يختلط باحد غيرها . لم يكن في مقدوره ان يفكر في اعماله واموره المالية ، فرأت يجورفنا ضرورة احاطة دوبروفسكى الابن بالامر كله . وكان الابن يخدم في احد افواج مشاة الحرس العرابط في ذلك الوقت في بطرسبرج . وهكذا انتزعت ورقة من دفتر الحسابات واملت على الطاهى خاريتون ، المتعلم الوحيد في كيستينيوفكا رسالة بعثت بها في نفس اليوم الى مكتب البريد في المدينة .

ولكن آن لنا ان نعرف القارىء بالبطل الحقيقى لقصتنا .

تربى فلاديمير دوبروفسكى في مدرسة التلاميذ العسكرية ثم تخرج منها ملازما في الحرس . ولم يبخل ابوه بشئ في سبيل تربيته تربية لائقة ، فكان الشاب يتلقى من المنزل اكثر مما ينتظر . ولما كان مسرفا ومغرورا ، فقد سمح لنفسه بنزوات مترفة ، فكان يلعب

القمار ويستدين دون أن يعنى بالمستقبل ، ومؤملا ان عاجلا ام آجلا بعروس غنية ، حلم الشباب الفقير .
وذات مساء ، عندما كان بعض الضباط مضطجعين على الارائك في منزله يدخنون من غلاينه الكهرمانية ، قدم له خادمه جريشا رسالة ، ما ان رأى الشاب ختمها وخطها حتى اصابه الذهول وفضها بعجلة وقرا التالي :

«سيدنا ومولانا فلاديمير اندرييفيتش ، قررت انا مربيته العجوز ان احيطك علما بصحة والدك . ان حالته سيئة جدا واحيانا ينطق كلمات لا معنى لها ويجلس طول اليوم كالطفل الغبي ، والله بيده امور الحياة والموت . احضر الينا ايها الغالى وسوف نرسل الخيول لاستقبالك في محطة بيسوتشنويه . يقولون ان المحكمة ستحضر الينا هنا لوضعنا تحت يد كيريل بتروفيتش ترويكورف لاننا كما يزعمون نتبعه ، ولكننا لكم وحدكم ، ولم نسمع بمثل هذا ابدا . ربما يمكنك وانت في بترسبرج ان تتشفع لدى مولانا القيصر فلن يتركنا للهوان . عبادتك المخلصة ومربيته .

ارينا يجورفنا بوزيريلما .

ابعث ببركات الام الى جريشا . هل يخدمك جيدا ؟
المطر عندنا يسقط للاسبوع الثانى . وقد مات الراعى روديا قرب عيد القديس نيقولا» .

قرا فلاديمير دوبروفسكى هذه السطور المشوشة

للفاية عدة مرات متتالية وبقلق بالغ . لقد فقد امه منذ صغره ، وفي الثامنة من عمره ارسلوه الى بطرسبرج وهو لا يكاد يعرف اياه ، ومع ذلك كان متعلقا به بصورة رومانسية . وازداد حبه للحياة العائلية بقدر ما فاته ان يتمتع بمباهجها المتواضعة .

لقد عصرت قلبه فكرة ان يفقد اياه ، وافزعته حالة المريض المسكين التي استطاع ان يستشفها من رسالة مربيته . وتخيل اياه مهملا في قرية نائية بين يدي امرأة عجوز بلهاء وخدم ، تهدده كارثة ما ويدوى دون عون تعذبه آلام الجسد والروح . واتهم فلاديمير نفسه باللامبالاة الاجرامية . فمنذ مدة طويلة لم تصله من ابيه اية رسالة ، ومع ذلك لم يفكر هو في السؤال عنه معتقدا انه مشغول بالتنقل او الامور المتعلقة بادارة ضيعته .

وقرر ان يذهب اليه ، بل وحتى يستقيل اذا تطلب مرض ابيه ان يكون بجانبه . وانصرف رفاقه عندما لاحظوا قلقه . ولما اصبح فلاديمير وحده كتب طلب اجازة ، واشعل غليونه وراح في تفكير عميق . وفي نفس اليوم اخذ يسعى للحصول على اجازة ، وبعد يومين سافر على الخيول يصحبه تابعه المخلص جريشا .

اقترب فلاديمير اندرييفيتش من المحطة التي كان عليه ان ينعطف عندها الى كيستينيوفكا . وكان قلبه مفعما بالتكهنات العزينة . لقد كان يخشى الا يجد اياه على قيد الحياة ، وتخيل نمط الحياة الكئيب الذي ينتظره

في القرية : المناى والفراغ والفقر والسمى لترتيب امور لا يفقه فيها شيئا . وعندما وصل الى المحطة دخل الى الناظر وطلب منه جيادا اخرى . واستعلم منه الناظر عن الوجهة التي يقصدها ، ثم اخبره ان الجياد التي ارسلت من كيستينيوفاكا في انتظاره منذ اربعة ايام . وسرعان ما تقدم نحو فلاديمير اندرييفيتش الحوذى العجوز انطون ، الذى كان يتجول معه في الاصطبل فيما مضى ويعنى بمهره الصغير . وعندما رآه انطون دمعت عيناه وانحنى حتى لامس الارض ، واخبره ان السيد العجوز ما زال حيا ، ثم هرول ليشد الجياد الى عربة . واعتذر فلاديمير اندرييفيتش عن قبول الدعوة للافطار واسرع بالرحيل . وقاده انطون في الطريق المار عبر القرى ، وجرى بينهما الحديث التالى :

- خبرنى من فضلك يا انطون ، ماذا حدث بين ابي وبين ترويكورف ؟

- الله اعلم يا سيدى فلاديمير اندرييفيتش . الظاهر ان السيد اختلف مع كيرىلا بتروفيتش فرفع هذا ضده قضية ، مع انه هو الامر والناهى فى معظم الاحوال . ما لنا نحن الاقنان نناقش امور السادة ، ولكن ، والله العظيم ، والدك ما كان عنده حق فى وقوفه ضد كيرىلا بتروفيتش ، فما الفائدة من نطح الصخر .

- يبدو ان كيرىلا بتروفيتش هذا يفعل هنا ما يشاء ؟

- صحيح يا سيدى . هو لا يعير القاضى ابدا ، ورئيس الشرطة كخادم عنده . والسادة يزورونه احتراماً له ، وكما يقال : الذباب يحط على الحلوى .

- هل صحيح انه سينتزع منا الضيمة ؟
- آه يا سيدي ، نحن ايضا سمعنا . من يومين
قال راعي كنيسة بروفيسكويه في حفلة التعميد عند
عمدتنا : كفاكم لعبا ، سيشدد كيرىلا بتروفيتش قبضته
عليكم ، فقال له العداد ميكيئا : كفى يا سافيليتش ،
لا تحزن قريبك ولا تزعج الضيوف . كيرىلا بتروفيتش
شيء ، واندرية جافريلوفيتش شيء آخر ، وكلنا عبيد
الله والقيصر ، ولكنك لا تستطيع ان تغلق فم احد .
- اذن فانتسم لا تريدون ان تصبحوا ملكا
لترويكورف ؟

- ملك لترويكورف ا اعوذ بالله . ان فلاحيه
يعانون من قسوته ، فاذا ما انتقل الى ملكيته غرباء
فلن يسلم جلداهم فقط ، بل ولحمهم ايضا . كلا ،
فليهب الله العمر الطويل لاندريه جافريلوفيتش ، ولو
اختاره الى جواره ، فلا نريد احدا غيرك راعيا لنا . لا
تسلمنا لاحد وسنقف من خلفك .

قال انطون هذه الكلمات وهو يلوح بالسوط ثم
هز العنان فركضت الخيل خيبا .

وصمت دوبروفسكى وقد اثر فيه اخلاص الحوذى
العجوز ، واستغرق في افكاره . ومضى اكثر من ساعة
عندما استيقظ فجأة على صياح جريشا : «ها هي
بروفيسكويه !» ورفع دوبروفسكى رأسه . كانوا
يسيرون على شاطئ بحيرة كبيرة ، نبع منها نهر اخذ
يتعرج في البعد بين التلال . وفوق اكمة خضراء كثيفة على
احد هذه التلال ارتفعت سقيفة خضراء لمنزل حجري
ضخم . وعلى التل الآخر انتصبت كنيسة ذات خمسة ابراج

وبرج اجراس من الطراز القديم . ومن حولها تناثرت بيوت
الفلاحين بحدائقها وآبارها . وعرف دوپروفسكى هذه
الاماكن ، وتذكر انه على ذلك التل كان يلعب مع ماشا
ترويكورفا الصغيرة التي كانت تصغره بعامين ، وتبشر
في ذلك الوقت بحسنا . واراد ان يسأل انطون عنها ،
لكن شعورا بالخجل منعه من ذلك .

وعندما اقترب من منزل رب الضيعة رأى ثوبا
ابيض يلوح بين اشجار الحديقة . وفي هذه اللحظة
الهب انطون ظهر الجياد وقد استبد به الغرور ، ذلك
الشعور المشترك بين حوزية القرى وسائقي العربات في
المدن ، وانطلق باقصى سرعة فعبر الجسر مارا بجوار
القرية . وبعد ان خلفا القرية وراءهما صعدا مرتفعا ،
فراى فلاديمير غيضة اشجار البتولا ، وفي الناحية اليسرى
في مكان مكشوف منزلا رماديا ذا سقف احمر ، فدق
قلبه بشدة . لقد رأى امامه كيستينيوفكا ومنزل ابيه
المتواضع .

وبعد عشر دقائق دلفوا الى فناء المنزل ، فاخذ ينظر
حوله بتأثر لا يوصف ، فمنذ اثنتي عشرة سنة لم ير
مسقط رأسه . لقد نمت شجيرات البتولا التي شهد
غرسها بجوار السور واصبحت الآن اشجارا طويلة
وارفة . اما الفناء الذي كانت تزيينه في وقت ما ثلاثة
احواض من الزهور يتخللها طريق نظف بعناية ، فقد
تحول الآن الى مرج لم تجتث حشائشه واخذ يرعى فيه
حصان مقيد . وشرعت الكلاب تنبح ، لكنها صمتت عندما
رات انطون واخذت تهز ذيولها المشعثة . وخرج الخدم
والحاشية من منازلهم واحاطوا بالسيد الشاب معربين عن

فرحتهم بصخب . وبصعوبة تمكن من شق طريقه وسط زحامهم وهروا الى السلامك المتداعي . وفي المدخل قابلته بجورفنا وهي تبكي ، ثم عانقت ربيبها .
- مرحبا ، مرحبا يا دادة - ردد هذه التحية وهو يضم العجوز الطيبة الى صدره - ماذا حدث لابي ؟ اين هو ؟ وكيف حاله ؟

وفي هذه اللحظة دلف الى الصالة شيخ طويل القامة ، يخطو متحاملا ، شاحبا ، هزيلا في رداء منزلي وطاقية .
وقال بصوت ضعيف :

- مرحبا يا فولوديا • .
وعانق فلاديمير اياه بحرارة .
وهزت فرحة اللقاء المريض بشدة فاصابه الضعف وخارت ساقاه ، وكاد يسقط لولا ان تلقاه ابنه على يديه .

وقالت له بجورفنا :

- لماذا نهضت من الفراش ؟ ان ساقيه لا تحملانه ، ومع ذلك يندفع الى حيث يندفع الناس .
وحملوا العجوز الى غرفة نومه ، وحاول ان يتحدث الى ابنه ، غير ان افكاره اختلطت في رأسه ، وفقدت كلماته كل رابطة فلزم الصمت ، ثم استغرق في النوم .
وذهل فلاديمير لحالته فقرر ان ينام معه في الغرفة ، وطلب ان يتركوه مع ابيه على انفراد . واذعن الخدم لطلبه ، وعندئذ انتبهوا الى جريشا فقادوه الى غرفة الخدم ، حيث اكرموه على طريقة اهل الريف وهم يبدون كل انواع السرور ، ويرهقونه بالاسئلة والتحيات .

• فالوديا هو اسم التديل من فلاديمير . (المترجم •)

الفصل الرابع

حيث كانت الوليمة حافلة
كان يرقد التابوت .

(درجافين)

بعد عدة ايام من وصوله اراد دوبروفسكى الا
ان يهتم بالاعمال ، غير ان ابيه لم يكن في حالة تسمح
بتقديم التفسيرات اللازمة ، كذلك لم يكن لدى اندريه
جافريلوفيتش وكيل اعمال . وعندما كان فلاديمير يفتش
في اوراق ابيه وجد رسالة المحلف الاولى ومسودة الر
عليها ، ولم يستطع ان يصل منها الى مفهوم واضح
القضية ، فقرر ان ينتظر ما تاتي به الايام ، معتمدا
عدالة القضية ذاتها .

وفي الوقت نفسه اخذت صحة اندريه جافريلوفيتش
تسير من سييء الى اسوا ، واستشف فلاديمير النها
القريبة فلم يبارح العجوز الذى تحول الى طفل صغير .
وانتهت الفترة القانونية ولم يقدم الاستثناء
فاصبحت كيستينيوفكا ملكا لترويكورف . وجاء اليه
شماباشكين يقدم التحية والتهنئة ، ورجاه ان يحدد الوق
الذى يناسب معاليه للقيام باجراءات استلام الضيم
الجديدة بنفسه او بواسطة من يسمح معاليه بتوكيل
عنه . وارتبك كيرىلا بتروفيتش ، فلم يكن بطبه

مغرضاً ، لكنه انساق وراء ، رغبة الانتقام ، فأخذ ضميره يؤنبه . كان يعرف حالة غريمه ورفيق صباه القديم ، فلم يدخل النصر السرور على قلبه . وصوب الى شاباشكين نظرة رهيبة محاولاً ان يجد علة ليسبه ، فلما لم يجد العلة المناسبة قال بغضب :

- اغرب عن وجهي ، فلا وقت عندي لك .

ورأى شاباشكين انه غاضب فانحنى واسرع بالانصراف . اما كيريل بتروفيتش ، فبعد ان اصبح وحده ، اخذ يروح ويجي وهو يصفر لحن : زهجر يا زعد النصر ، الامر الذي كان يدل دائماً على انه يعاني من اضطراب غير عادي في الافكار .

واخيراً امر ان تسرج الجياد الى عربة خفيفة ، وارتدى ملابس ثقيلة (كان ذلك في اواخر سبتمبر) وغادر المنزل يقود العربة بنفسه .

وسرعان ما لاح امام ناظره منزل اندريه جافريلوفيتش ففاضت نفسه بالمشاعر المتناقضة . لقد طفى حب الانتقام وشهوة السلطة الى حد ما على المشاعر النبيلة ، ولكن الاخيرة انتصرت في النهاية ، فقرر ان يصلح جاره القديم ويقضى على آثار العداوة بينهما بأن يعيد اليه ممتلكاته . واطمأنت نفسه لهذا الغرض النبيل ، فانطلق بالجياد خبياً نحو ضيعة جاره ، ودخل مباشرة الى فناء المنزل .

في هذه اللحظة كان المريض يجلس الى النافذة في غرفة نومه ، وعرف في القادم كيريل بتروفيتش فارتسم على وجهه اضطراب فظيع ، وحلت حمرة قانية محل الشحوب العادي في وجنتيه ، ولمعت عيناه وتغوه

بالفاظ غير مفهومة . ورفع ابنه راسه عن دفاتر الحسابات والمالية فراعته حالة ابيه . كان المريض يشير باصبعه نحو الفناء وقد استبد به الرعب والغضب . وجمع اطراف ردايه على عجل واراد ان ينهض من كرسيه ، فنهض قليلا . . . ثم سقط فجأة . . . واسرع ابنه اليه فوجده ممتدا فاقد الوعي والتنفس . لقد اصابه الشلل .

وصرخ فلاديمير :

- اسرعوا ، اسرعوا ، استدعوا طبيبا من المدينة .
وقال الخادم الذى دخل الغرفة :

- كيرىلا بتروفيتش يريد مقابلتكم .

ونظر فلاديمير الى الخادم نظرة رهيبة وقال :

- قل لكيرىلا بتروفيتش ان يغور من هنا حالا قبل ان أمر بطرده . . . هيا .

واسرع الخادم مسرورا لتنفيذ اوامر سيده ، اما يجورفنا فقد اشاحت بيديها ذعرا ، وقالت بصوت يائس :

- يا سيدنا . . . ستقضى على نفسك ! سيدمرنا كيرىلا بتروفيتش .

فقال فلاديمير بانفعال :

- اسكتي يا دادة . ابعثى انطون الى المدينة لياتي بالطبيب .

وخرجت يجورفنا . لم يكن هناك احد فى المدخل فقد خفوا جميعا الى الفناء ليروا كيرىلا بتروفيتش . وخرجت هى الى السلامك فسمعت رد الخادم الذى كان يتحدث باسم السيد الشاب . واصفى كيرىلا بتروفيتش

اليه وهو جالس في العربة ، واربدت سحنته حتى غدت
اشد سوادا من الليل ، وابتسم بازدراء وهو يصوب
الى الخدم نظرة وعيد ، ثم سار بالعربة على مهل بجوار
الفناء . ونظر الى النافذة التي كان يجلس اليها منذ
لحظة اندريه جافريلوفيتش وحيث لم يعد هناك الآن .
وظلت المربية واقفة على السلامك وقد نسيت اوامر
السيد . واخذ الخدم يناقشون الحادث بصخب . وفجأة
ظهر فلاديمير بينهم وقال باقتضاب :

- لا داعى للطبيب . . . ابي توفي .

وعم الاضطراب ، وانطلق الناس الى غرفة السيد
العجوز ، حيث كان ممددا في الكرسي الذي وضعه فيه
فلاديمير . وتدلت يده اليمنى حتى لامست الارض ،
وسقط رأسه على صدره . لم تكن هناك علامة على
الحياة في هذا الجسد الذي لم يبرد بعد ، ولكنه كان قد
تشوه بفعل الموت . وصرخت يجورفنا ، واحاط الخدم
بالجسد الذي ترك لرعايتهم ، ففسلوه والبسوه حلتته
العسكرية التي كانت قد خيطة في عام ١٧٩٧ ، ثم
وضعوه على نفس المائدة التي كانوا يعدونها لسيدهم
سنوات طوال .

الفصل الخامس

تم الدفن في اليوم الثالث . وتمدد جسد العجوز
المسكين على المائدة ملفوفا في الكفن ، تحيط به
الشموع . واكتظت غرفة المائدة بالخدم ، الذين كانوا
يستعدون للخروج به . وحمل فلاديمير التابوت

بمساعدة ثلاثة من الخدم ، وتقدمهم القسيس يصحبه
السادن وهو ينشد الحانا جنازية . وعبر سيد
كيستينيوفكا عتبة داره لآخر مرة . ثم ساروا بالتابوت
عبر الفيضة ، التي تقع خلفها الكنيسة . كان النهار
صحوا وباردا ، وتساقطت الاوراق الخريفية من
الاشجار .

وعندما خرجوا من الفيضة شاهدوا كنيسة
كيستينيوفكا الخشبية والمقابر التي تظللها اشجار
اليزفون العجوز . هناك رقد جسد ام فلاديمير ، وهناك
بالقرب من قبرها اعدت مسبقا حفرة حديثة .
كانت الكنيسة غاصة بفلاحى كيستينيوفكا ، الذين
جاءوا ليودعوا سيدهم الوداع الاخير .

ووقف دوبروفسكى الشاب بجوار جوقة المرتلين .
لم يبك ولم يصل ، غير ان وجهه كان فظيما .
وانتهت الطقوس الحزينة ، فكان فلاديمير اول من
تقدم لوداع الجسد ، ومن خلفه سار الخدم كلهم . ثم
جاءوا بغطاء التابوت ودقوه بالمسامير . وانتحبت
النسوة بصوت عال ، ومسح الرجال دموعهم بقبضات
ايديهم من حين الى آخر . ثم حمل فلاديمير والخدم الثلاثة
التابوت الى المقابر بصاحبهم اهل القرية كلهم . وانزلوا
التابوت الى القبر ، ثم القى فيه كل فرد من الحاضرين
قبضة من رمل . ثم هالوا التراب في الحفرة فردموها
وانحنوا امامها ، ثم تفرقوا . وانصرف فلاديمير بسرعة
قبل الجميع ، ثم اختفى في غيضة كيستينيوفكا .

ووجهت يجورفنا الدعوة باسمه الى القسيس وجميع
سدنة الكنيسة الى وليمة الماتم ، معلنة ان السيد

الشباب لن يحضرها . وهكذا توجه الاب انطون وزوجته فيدوتوفنا والسادن الى منزل السيد سيرا على الاقدام وهم يتحدثون مع يجورفنا عن حسنات المرحوم ، وعمما ينتظر وريثه (كان وصول ترويكورف ، والاستقبال الذى استقبل به معروفا لدى اهل الناحية كلهم ، وتوقع الساسة المحليون نتائج هامة لذلك الاستقبال) .

قالت زوجة القس :

- ليكن ما يكون . ولكن من المؤسف الا يصبح فلاديمير اندرييفيتش سيدنا . انه رائع بلا جدال . وقاطعتها يجورفنا :

- ومن غيره يمكن ان يصبح سيدنا . عبثا يتوعد كيرىلا بتروفيتش ، فلن يجد امامه جبانا . ان صقري يعرف كيف يدافع عن نفسه . وان شاء الله لن يتخلى عنه رعاته . . كم هو متعجرف كيرىلا بتروفيتش ، ولكن تراه ثنى ذيله بين فخذيته عندما صاح فيه جريشا ابنى : اغرب ايها الكلب العجوز . . ارحل من هنا !

وقال السادن :

- اوه يا يجورفنا . كيف طاوعه لسانه ان يقول ذلك ! انى مستعد ، على ما اعتقد ، ان اشتم اسقفا من ان اصوب نظرة غضب الى كيرىلا بتروفيتش ، فما ان يراه المرء حتى يدفعه الخوف الى الانحناء والظهر يتقوس من تلقاء نفسه .

قال القس :

- باطل الاباطيل ! وكيرىلا بتروفيتش سيحل اجله ايضا كما حدث الآن لاندريه جافريلوفيتش ، والفرق

الوحيد ان جنازته ستكون افخم والمدعويين الى الوليمة اكثر . . ولكن اليس كل ذلك سيان عند الرب ! ؟

- آه يا ابتاه ، لقد اردنا نحن ايضا ان ندعو كل الناحية ، لكن فلاديمير اندرييفيتش لم يشأ . الخير لدينا كثير ، وعندنا ما تقدمه للضيوف ، ولكن ما باليد حيلة . وما دام ليس هناك ضيوف ، فهيا على الاقل اطعمكم انتم يا ضيوفنا الاعزاء .

هذه الوعود الرقيقة ، والامل في وليمة حافلة حث خطى المتحدثين ، فوصلوا بسلام الى منزل السيد ، حيث وجدوا المائدة معدة ، والفودكا موضوعة .

وفي ذلك الوقت توغل فلاديمير في قلب الغابة ، محاولا عن طريق الحركة والتعب اخماد حزن قلبه . كان يسير على غير هدى ، واخذت الاغصان كل لحظة تحتك به وتخدشه ، وقدماه تفوصان باستمرار في المستنقع ، لكنه لم يعر اى شيء انتباها . واخيرا وصل الى وهدة صغيرة تحوطها الغابة من جميع الجهات . وكان هناك غدير يتلوى في صمت بجوار الاشجار التي كاد ان يعريها الخريف . وتوقف فلاديمير ، ثم جلس على العشب البارد ، واخذت الافكار تترى في نفسه ، كل فكرة اشد سوادا من سابقتها ، واحس بوحدته احساسا ممضا ، وبدا له المستقبل ملفعا بالضيوم القاتمة ، وعداوة ترويكورف تنبىء بمصائب جديدة ، ومن الجائز ان تنتقل ملكيته الضئيلة الى ايد غريبة ، وعندئذ لن ينتظره الا الفقر . وجلس طويلا بلا حراك في نفس المكان متأملا جريان الغدير الهادى ، الذى كان يجرف معه عدة اوراق ذابلة ، وبدا له بوضوح ان هذا صورة صادقة للحياة ،

صورة جد عادية . واخيرا لاحظ ان الفسق بدا يهبط ،
فنهض ، ومضى يبحث عن الطريق الى المنزل ، لكنه ضل
طويلا في الغابة المجهولة قبل ان يجد في النهاية الدرب
الذي قاده مباشرة الى بوابة بيته .

وفي طريقه قابله القس مع بقية السدنة . وجالت
بخطره فكرة عن نذير الشؤم ، فأسرع لا اراديا يتنحى
عن الطريق واختبا خلف الاشجار . ولم يلحظوه فمضوا
يتحدثون بحرارة وهم يمرون بجواره . وقال القس
لزوجته :

- تجنبى الشر واصنعى الخير ، لا حاجة لبقائنا
هنا . مهما كانت النهاية ، فهذا الامر لا يخصك . .
وردت الزوجة بشيء ما ، ولكن فلاديمير لم يستطع
ان يسمع .

وعندما اقترب رأى جمعا غفيرا من الفلاحين والخدم
محتشدين في الفناء . وعلى البعد سمع فلاديمير ضجعة
ولغطا غير عاديين . وكانت هناك عربتان من ذوات
الخيول الثلاثة تقفان الى جوار الحظيرة . وعلى السلامك
وقف عدة اشخاص غرباء ، في ملابس رسمية ، يتحدثون
فيما يبدو عن شيء ما .

وسأل فلاديمير بغضب انطون الذي ركض نحوه :
- ما معنى هذا ؟ من هؤلاء ، وماذا يريدون ؟
فاجاب العجوز وهو يلتقط انفاسه :
- آه يا سيدى فلاديمير اندرييفيتش . . المحكمة
جاءت ، سيسلموننا لترويكورفي . . يريدون انتزاعنا
من رحمتك ! . .

ونكس فلاديمير راسه ، واحاط الناس بسيدهم
البانس ، وصاحوا وهم يقبلون يديه :
- يا مولانا ، لا نريد سيدا آخر غيرك . مر يا
مولانا ان نفتك بالمحكمة وسنغفل . . . سنموت ولكننا
لن نسلم . . .

ونظر فلاديمير اليهم واحس بمشاعر غريبة تثور في
نفسه ، فقال لهم :

- احتفظوا بهدوئكم ، وساتحدث انا الى الموظفين .
وصاحت به اصوات من الجمع :

- تحدث يا مولانا ، ووبخ هؤلاء الملاعين .
واقترب فلاديمير من الموظفين . كان شاباشكين
يقف مرتديا قبعته ، واضعا يديه في خاصرته ، وينظر
حوله بكبرياء ، اما رئيس الشرطة ، وهو شخص طويل
القامة ، بدين ، في حوالى الخمسين من عمره ، احمر
الوجه ، ذو شوارب ، فعندما رأى دوبروفسكى يقترب
صرخ قائلا بصوت ابع :

- وهكذا فاننى اكرر لكم ما سبق ان قلته : طبقا
لقرار محكمة الناحية اصبحتم منذ الآن ملكا لكيريلا
بتروفيتش ترويكورف ، والذي يمثله هنا السيد
شاباشكين . اطيعوه في كل ما يامركم به ، اما انتن
ايتها النسوة فاحبينه واحترمنه ، اذ انه من كبار
المفرمين بجنسكن .

وقهقه الرئيس لمزحته هذه البارعة ، وتبعه
شاباشكين وبقية الموظفين .

اما فلاديمير فكان يغلى من الغضب ، وسأل الرئيس
المرح وهو يتصنع البرود :

- هلا اخبرتنى ما معنى هذا ؟

فاجاب الضابط المتعجرف :

- هذا يعنى اننا جننا لتسليم الضيعة لكيرىلا

بتروفيتش ترويكورف ، ونرجو من الآخرين ان يغربوا
عن هنا بالاحسان والمعروف .

- ولكن كان بوسعكم ، فيما اعتقد ، ان تتوجهوا

الى قبل ان تتوجهوا الى فلاحى ، وتعلنوا الاقطاعى عن
انتزاع ملكه .

وقال شاباشكين وهو يوجه اليه نظرة صلف :

- ومن تكون انت ؟ لقد توفى الاقطاعى السابق

اندرىه جافريلوفيتش ابن دوبروفسكى ، اما انت فنحن
لا نعرفك ، ولا نريد حتى ان نعرفك .

وقال صوت من الجمع :

- هذا سيدنا الشاب فلاديمير اندرييفيتش يسا

صاحب السعادة .

فقال الرئيس متوعدا :

- من ذا الذى جرؤ على فتح فمه ؟ اى سيد ؟

اى فلاديمير اندرييفيتش ؟ سيدكم هو كيرىلا بتروفيتش
ترويكورف ، اتسمعون يا اغبياء ؟

- هذا لن يكون !

- ان هذا تمرد ! - صرخ الرئيس - تعال هنا يا

عمدة !

وتقدم العمدة الى الامام .

- اقبض الآن فورا على من جرؤ على معارضتى ،

وسوف اريه !

وتوجه العمدة الى الجمع يساله عن تحدث ، ولكن

احدا لم يتكلم ، ثم سرعان ما ترددت همهمة في الصفوف الخلفية واخذت تملو ، ثم تحولت في لحظة الى صراخ مرعب . وخفض الرئيس صوته محاولا تهدئتهم .

وصرخ رجال العاشية :

- دعوكم منه ، يا فتيان هيا اهجموا عليهم .
وتقدم الجمع كله .

واسرع شاباشكين وبقية الاعضاء الى المدخل واغلقوا الباب خلفهم .

وصرخ الصوت نفسه :

- هيا نقيدهم يا فتيان .
وبدا الجمع يتقدم .

- قفوا ! - صرخ دوبروفسكى - ماذا تفعلون ايها الحمقى ؟ انكم تلقون بانفسكم وبى الى الهلاك . ليذهب كل الى بيته ودعوني لشانى . لا تخافوا ، ان القيصر رحيم ، وسوف اتشفع اليه ، ولن يتركنا للهوان فنحن جميعا ابناءؤه ، ولكن كيف يدافع عنكم اذا ما اخذتم تمردون وتثورون .

واتى حديث دوبروفسكى الشاب ، وصوته الرنان ، وطلعته المهيبه بالاثر المرجو ، فهذا الناس ثم تفرقوا ، وخلا الفناء ، بينما جلس الموظفون في المنزل . واخيرا فتح شاباشكين الباب خلصة وخرج الى السلاملك ، واخذ يشكر دوبروفسكى وهو ينحنى بذلة ، على حمايته الرحيمة لهم .

واصفى فلاديمير اليه باحتقار ولم يقل شيئا .
وواصل المحلف قائلا :

- لقد قررنا ان نبني هنا اذا سمحتم ، لان الظلام

قد هبط ، وربما يهجم علينا فلاحوكم في الطريق . ارجوك ان تتفضل فتامر بان يفرشوا لنا ولو قشا في غرفة الاستقبال ، وما ان يلوح النور حتى نعود من حيث اتينا .

واجاب دو بروفسكى بجفاء :

- اقلوا ما يحلو لكم ، فلم اعد السيد هنا .

قال هذا واتجه الى غرفة والده واغلق خلفه الباب .

الفصل السادس

«وهكذا فقد انتهى كل شيء ، - قال لنفسه - في الصباح كان لا يزال لدى ركن آوى اليه وكسرة خبز ، اما غدا فلي ان اترك المنزل الذي فيه ولدت ، وفيه مات ابي ، اتركه لمن تسبب في وفاته وفقرى» . وتوقفت نظرتة وجمدت على صورة امه . لقد رسمها الفنان مرتكزة الى حاجز ، في ثوب صباحى ابيض ووردة حمراء في شعرها . «وهذه الصورة ايضا ستصبح ملكا لعدو اسرتى ، - فكر فلاديمير ، - وسوف يلقي بها في المخزن مع الكراسى المحطمة ، او يعلقها في المدخل لتكون مادة لسخریات وتعليقات مدربى كلابه ، اما غرفة نومها . . . الغرفة التي مات فيها والدى ، فسيشغلها وكيل اعماله ، او حريمه . كلا ! كلا ! لن ادعه يمتلك هذا المنزل العزيز الذي يطرذنى منه» . وصر فلاديمير على اسنانه ، فقد انبثقت في راسه افكار رهيبه . كانت تصل الى سمعه اصوات الموظفين الذين كانوا يتصرفون

كأسياد ، تارة يطلبون هذا الشيء ، وتارة يطلبون ذلك ، مشوشين على افكاره العزينة بصورة كريهة . ثم اخيرا هذا كل شيء .

فتح فلاديمير الدوايب الصغيرة وانشغل بالتنقيب في اوراق المرحوم والده . كان معظمها عبارة عن اوراق حسابات ومراسلات لشتى الاغراض ، فمزقها فلاديمير دون ان يقرأها . ثم عثر بينها على حافظة كتب عليها : رسائل زوجتي ، فانكب عليها فلاديمير وقد هاجت مشاعره هياجا شديدا . كانت مكتوبة في ايام الحملة التركية ومعنونة من كيستينيوفا الى الجيش . وقد وصفت له فيها حياتها الخاوية واعمالها المنزلية ، وشكت من الفراق ودعته ان يعود الى المنزل ، الى احضان شريكة حياته الطيبة . وفي احداها عبرت عن قلقها بخصوص صحة الصغير فلاديمير . وفي رسالة اخرى اظهرت فرحتها بمواهبه المبكرة ، وتنبأت له بمستقبل باهر سعيد . وانهمك فلاديمير في القراءة ناسيا كل شيء في العالم ، وغاب في دنيا السعادة العائلية ، دون ان يلحظ مرور الوقت ، حتى دقت ساعة الحائط معلنة الحادية عشرة ، فوضع فلاديمير الرسائل في جيبه وتناول الشمعة وخرج من الغرفة . كان الموظفون نائمين في الصالة على الارض . وعلى المنضدة اصطفت الاكواب الفارغة بعد شرابهم ، بينما عبت الغرفة برائحة الروم الشديدة . ومر فلاديمير بجوارهم باشمزاز متوجها الى المدخل . كانت الابواب مغلقة ، ولم يجد المفتاح فعاد الى الصالة حيث وجده على المائدة . فتح فلاديمير الباب فاصطدم بشخص منزو في الركن ،

لمع في يديه فأس . وعندما قرب فلاديمير الشمعة الى وجهه عرف فيه الحداد ارخيب . فسأله :

- ما الذى جاء بك الى هنا ؟

فاجاب ارخيب هامسا :

- آه ! اهو انت يا فلاديمير اندرييفيتش !

رحماك يا رب ! حسنا انك كنت حاملا شمعة .

واخذ فلاديمير ينظر اليه بذهول . ثم سأله :

- لماذا تختبئ هنا ؟

فاجاب ارخيب بصوت خفيض متلعنا :
- لقد اردت . . . لقد جئت . . . لاتأكد هل الجميع

هنا ام لا .

- ولماذا تحمل فاسا ؟

- لماذا الفاس ؟ وكيف يمكن ان يسير الانسان

الآن دون فاس . . هؤلاء الموظفون قوم مشاكسون . .

وربما حدث شيء . . .

- انك ثمل . . دع عنك الفاس واذهب لتاخذ

قسطك من النوم .

- انا ثمل ؟ يا سيدى فلاديمير اندرييفيتش . .

يشهد الله اننى لم اضع قطرة فى فمى . . وهل

يخطر الشراب على بال الآن . . . وهل يمكن ان نصدق

ان هؤلاء الموظفون يريدون اخذنا ويطردون اسيادنا من

بيوتهم . . انظر كيف يشخرون ، هؤلاء الملاعين . .

آه لو ضربتهم جميعا ضربة واحدة . . . ثم لا دليل ولا

اثر . . .

وقطب دوبروفسكى حاجبيه ، وصمت قليلا ، ثم

قال :

- اسمع يا ارخيبي . . ان ما فكرت فيه لا يصلح ،
فليس الذنب ذنب الموظفين . هيا اضي المصباح
واتبعني .

وتناول ارخيبي الشمعة من يد سيده ، وبحث عن
المصباح حتى وجده خلف الفرن فاشعله ، ثم هبط
كلاهما من السلمك بهدوء ، وسارا بحذاء الفناء . فدق
العارس على اللوح الحديدي للانذار ونبحت الكلاب .

وسأل دوبروفسكي :

- من يقوم بالحراسة ؟

فاجابه صوت رفيع :

- نحن يا سيدي . . فاسيليسا ولوكيريا .

- انصرفا . - قال دوبروفسكي - . لسنا بحاجة

اليكما .

- خلاص . . - قال ارخيبي .

- شكرا يا سيدي . . - ردت المرأتان وانصرفتا

توا الى منزليهما .

وتابع دوبروفسكي سيره ، واقترب منه شخصان

ونادياه فعرف دوبروفسكي صوت انطون وجريشا .

سألها دوبروفسكي :

- لماذا انتما مستيقظان ؟

فاجاب انطون :

- وهل يمكننا ان ننام ؟ هل قدر لنا ان نعيش

حتى نرى هذا ؟ من كان يظن . . .

قاطعها دوبروفسكي :

- صه . . اين يجورفنا ؟

- في بيت السيد ، في غرفتها - اجاب جريشا .
- اذهب وات بها ، واخرج جميع اتباعنا من المنزل
بحيث لا يبقى هناك احد . . الا الموظفون . اما انت يا
انطون فجهز العربة .

انصرف جريشا وعاد بعد دقيقة مع امه التي لم
تخلع ملابسها هذه الليلة ، ولم يغمض جفن احد في
المنزل باستثناء الموظفين .

وسأل دوبروفسكى :

- هل الجميع هنا ؟ الم يبق احد في المنزل ؟
فاجاب جريشا :

- لم يبق سوى الموظفين .
فامر دوبروفسكى :

- احضروا دريسا او قشا .

فاسرعوا الى الاصطبل وعادوا يحملون دريسا .

- ضعوه تحت السلامك . هكذا ! . . والآن الى

بالنار يا فتيان !

وفتح ارخيبي المصباح فاشتعل دوبروفسكى شظية
خشبية ، ثم قال لارخيبي :

- انتظر ، يبدو اننى في عجلتى اغلقت ابواب
المدخل . اذهب بسرعة وافتحها .

وهرول ارخيبي نحو المدخل . كانت الابواب غير
مغلقة ، فاغلقها ارخيبي بالمفتاح وهو يهمس : يطلب
منى ان افتحها . . هذا لن يكون ! - ثم عاد الى
دوبروفسكى .

وقرب دوبروفسكى الشظية من الدريس فاشتعل ،
وارتفع اللهب فاضاء الفناء كله .

وصرخت يجورفنا بتوسل :

- آه يا فلاديمير اندرييفيتش ، ما الذى تفعله ؟
فقال دوبروفسكى :

- اسكى . حسنا يا اولادى ، وداعا ، سارحل الى
حيث يشاء الله . اتمنى لكم السعادة مع سيدكم
الجديد .

فاجاب الواقفون :

- يا سيدنا ومولانا ، نموت ولا نتركك ، سنأتى
معك .

وجاءوا بالعريّة فجلس فيها دوبروفسكى وجريشا ،
وحدد لهم مكان اللقاء فى غيضة كيستينيوفكا . وضرب
انطون الخيول فانطلقت العربّة مغادرة الفناء .

وهبت الريح ، وفى لحظة كان اللهب قد احاط
بالمنزل ، وتصاعد دخان احمر فوق السقف ، وقرقع
زجاج النوافذ ثم انهار ، واخذت القوائم المشتعلة
تتداعى ، وترددت صرخات وعويل مستجير : « اننا
نحترق ، النجدة ! النجدة ! » .

قال ارخيبيج : - هذا لن يكون ! - وابتسم ابتسامة
حاقدة وهو ينظر الى الحريق .
وقالت له يجورفنا :

- ارخيبيج ، انقذ هؤلاء الملاعين ، وستنال ثوابا من
الله .

فاجاب الحداد :

- هذا لن يكون !

وفى هذه اللحظة ظهر الموظفون امام النافذة وهم

يعاولون كسر الاطار المزدوج . ولكن السقف انهار
محدثا ضجيجا ، ثم سكن العويل .
وسرعان ما تجمع الناس في الفناء . واسرعت النسوة
ينقذن سقط متاعهن ، واخذ الاطفال يقفزون متلذذين
بمشهد الحريق ، وتطاير الشرر كعاصفة نارية ،
واشتعلت بيوت الفلاحين .

وقال ارخييب :

- كل شيء على ما يرام الآن . انظروا كيف تحترق ؟
لا بد ان المشهد يبدو رائعا لو نظرت اليه من ضيعة
بكروفسكويه .

وفي هذه اللحظة جذبت انتباهه ظاهرة اخرى ، فقد
ركضت قطة على سطح الحظيرة المشتعلة وهي لا تدرى
الى اين تقفز ، فقد احاط بها اللهب من كل جانب . واخذ
الحيوان المسكين يموء بتوسل طالبا النجدة ، بينما ضج
الاطفال بالضحك وهم يشهدون ياسها .

- ما الذى يضحككم ايها الملاعين ، - قال لهم
الحداد بغضب . - الا تخشون ربكم ؟ هذه دابة من
مخلوقات الله تموت وانتم تفرحون ، يا حمقى !

ثم وضع سلما على السقيفة المشتعلة ، وصعد الى
القطعة التى فهمت غرضه فتعلقت بكمه ، وقد ارتسم على
وجهها مظهر العرقان المقرون باللهفة . وهبط الحداد
بغنيمة ، وقد كاد يحترق .

- والآن وداعا يا فتيان ، - قال مخاطبا العاشية
المرتبكة . - لم يعد لى عمل هنا . وداعا واذكرونى
بالخير .

ورحل الحداد . واستمر الحريق مضطرا بعض

الوقت ، ثم اخيرا هدا . واخذت اكوام من الفحم المتاجج تشتعل دون لهيب في ظلام الليل ، ومن حولها كان يتجول اهل كيسستينيوفاكا الذين احترقت ديارهم .

الفصل السابع

في اليوم التالي كان خبر الحريق قد ذاع في الناحية كلها . وكان كل واحد يتحدث عنه واضعا شتى الافتراضات والظنون . فالبعض يؤكد ان اتباع دوبروفسكى شربوا حتى ثملوا في وليمة التابين فاحترق المنزل نتيجة اهمالهم وعدم حرصهم ، واتهم البعض الآخر الموظفين الذين سكروا محتفلين بالمكان الجديد ، بينما اعلن الكثيرون ان دوبروفسكى نفسه احترق ايضا مع من في المنزل من هيئة المحكمة والحاشية . وهناك من فطن الى الحقيقة واكد ان سبب هذه الكارثة الفظيعة هو دوبروفسكى نفسه ، دفعه الى ذلك الحقد والياس . ووصل ترويكورف في اليوم التالي مباشرة الى مكان الحريق واجرى التحقيق بنفسه . وقد اتضح ان رئيس الشرطة والمحلف والوكيل المفوض والكاتب ، وكذلك فلاديمير دوبروفسكى والمربية يجورفنا والخادم جريشا والحوذى انطون والحداد ارخيبي قد فقدوا ولا يعرف لهم مكان . . . وادلى جميع افراد الحاشية بما يفيد ان الموظفين احترقوا عندما انهار السقف ، وقد امكن استخراج عظامهم المحترقة . اما الفلاحتان فاسيليسا ولوكيريا فقد قالتا انهما شاهدتا دوبروفسكى والحداد ارخيبي قبل الحريق بمدة دقائق . وقد اتفق الجميع

على ان الحداد ارخيّب على قيد الحياة ، ويحتمل ان يكون
الفاعل الاساسى ، ان لم يكن المسبب الوحيد للحريق .
واتجهت الى دوبروفسكى شكوك قوية . وارسل
ترويكورف الى المحافظ وصفا تفصيليا بما حدث ،
وفتحت قضية جديدة .

وسرعان ما جاءت الاخبار بوقود جديد للفضول
والاشاعات . ففي ناحية (. . .) ظهر قطاع طريق فنشروا
الرعب فى جميع الضواحي المجاورة . واتضح ان
الاجراءات التى اتخذتها الحكومة ضدهم لم تكن كافية .
وتوالى حوادث السطو ، وكانت كل حادثة تفوق
سابقتها . ولم يعد هناك امن لا على الطرق ولا فى القرى .
وكانت عدة عربات من ذوات الثلاثة خيول مملوءة بقطاع
الطريق تتجول فى وضع النهار فى جميع انحاء المحافظة ،
فتعرض طريق المسافرين والبريد وتحل بالقرى ،
فتنهّب منازل الاقطاعيين ثم تشعل فيها النار . واشتهر
زعيم العصاة بذكائه وشجاعته وشهامته ، وحكوا عنه
العجائب . وكان اسم دوبروفسكى على جميع الشفاه ،
والكل متأكدون انه هو ولا احد غيره زعيم الاشرار
الشمجان . ولكن الذى ادهش الجميع شىء واحد : وهو
ان ممتلكات ترويكورف لم تمتد اليها يد العبث . فلم
يسط قطاع على حظيرة واحدة من حظائره ، ولم ينهبوا
عربة من عرباته . وبعنجهيته المعهودة عزا ترويكورف
هذا الاستثناء الى الخوف الذى استطاع ان ينشره فى ارجاء
المحافظة ، وكذلك الى الشرطة اليقظة التى نظمها فى قراء .
وفى البداية ضحك الجيران فيما بينهم من عنجهيته ،
وتوقعوا ان يحل الضيوف الثقال بين يوم وآخر

ببكر وفسكويه التي سيجدون فيها ما يشبع شهواتهم .
غير انهم اضطروا الى ان يوافقوه ويعترفوا بان قطاع
الطرق ايضا احبوه باحترام غير مفهوم . . . وانتشى
ترويكورف ، وفي كل مرة يسمع عن حادثة سطو جديدة
قام بها دوبروفسكى كان يكيل السخريات للمحافظ
وضباط الشرطة وقادة السرايا ، الذين كان دوبروفسكى
يفلت منهم سليماً في كل مرة .

ثم حلّ اول اكتوبر : عيد قديس كنييسة
ترويكورف . . . ولكن قبل ان نبدا في وصف هذا
الاحتفال والاحداث التي تلته ، يجب علينا ان نعرف
القارى بالوجوه الجديدة عليه او التي المحنا اليها في
مطلع قصتنا هذه .

الفصل الثامن

لا شك ان القارى قد فطن إلى ان ابنة كيرىلا
بتروفيتش التي لم نشر إليها إلا ببضع كلمات ، هي
بطلة قصتنا . وفي العهد الذي نقص عنه كانت في
السابعة عشرة من عمرها وجمالها في اوج ازدهاره .
وكان والدها يحبها لدرجة الجنون ، لكنه كان يعاملها
بطبعه المعهود ، فتارة يحاول ان يلبي آتفه رغباتها ،
وتارة اخرى يرهبها بمعاملته الصارمة ، بل والقاسية
احيانا . وبالرغم من انه كان واثقاً من تعلقها به ، الا
انه لم يوفق ابداً في كسب ثقتها ، فقد تعودت ان تخفى
عنه مشاعرها وافكارها ، لانها لم تكن تعرف مطلقاً على
وجه التحديد كيف سيتقبلها . ولم يكن لديها صاحبات
فشبت في جو من الوحدة . ونادراً ما كانت زوجات

وبنات الجيران يزرن كيرىلا بتروفيتش ، الذى كانت
 احاديثه وملاهيه العادية تتطلب صحبة الرجال لا
 النساء . وقليل ما كانت حسناؤنا تظهر وسط ضيوف
 كيرىلا بتروفيتش . وكان تحت تصرفها مكتبة ضخمة ،
 معظم كتبها من مؤلفات الكتاب الفرنسيين فى القرن
 الثامن عشر . ولم يستطع والدها الذى لم يقرأ قط
 شيئا عدا كتاب «الطاهية المنالية» ان يوجهها فى اختيار
 الكتب ، لذا كان من الطبيعى بالنسبة لماشيا ، بعد ان
 قلبت شتى انواع المؤلفات ان يتجه اهتمامها الى
 الروايات . وهكذا اتمت تربيتها التى بدأت فى زمن ما
 تحت اشراف المادموازيل ميمى ، التى اولاهها كيرىلا
 بتروفيتش ثقته وعطفه الكبيرين ، ثم اضطر اخيرا الى
 نفيها بهدوء الى ضيعة اخرى ، عندما اصبحت آثار هذه
 العلاقة واضحة للعيان وخلفت المادموازيل ميمى ذكرى
 عطرة فقدت كانت فتاة طيبة ، لها فيما يبدو تأثير على
 كيرىلا بتروفيتش لم تحاول ابدا ان تستغله لاغراض
 شريرة ، الامر الذى ميزها عن المربيات اللواتى كان
 يغيرهن باستمرار . وبالنسبة لكيرىلا بتروفيتش نفسه
 فقد احبها فيما يبدو اكثر من الاخريات . اما الصبى
 الشقى ذو العينين السوداوين والاعوام التسع ، والذى
 تشبه ملامحه ملامح المادموازيل ميمى الجنوبية ، فقد
 تربي تحت رعايته واعترف به ترويكورف ابنا له ،
 بالرغم من ان كثرة من الاطفال الحفاة والذين يشبهون
 كيرىلا بتروفيتش تماما ظلوا يركضون تحت نوافذه
 باعتبارهم من الخدم .

وقد استحضر كيرىلا بتروفيتش لصغيره ماشيا

من موسكو مدرسا فرنسيا وصل الى بكروفسكويه في زمن هذه الاحداث التي نتكلم عنها الآن .

وقد راق هذا المدرس لكيرىلا بتروفيتش لمظهره الطيب ومعاملته البسيطة . ثم قدّم لكيرىلا بتروفيتش شهاداته ورسالة من احد اقرباء ترويكورف الذى كان هذا المدرس يعمل لديه وصيفا اربع سنوات . وفحص كيرىلا بتروفيتش كل ذلك ، والشئ الوحيد الذى لم يعجبه هو صفر سن هذا الفرنسى ، لا لانه كان يعتقد ان هذا العيب الطيب لا يتفق والصبر والخبرة اللازمين لمهنة المدرس البائسة ، وانما كان لديه شكوكه الخاصة ، التى قرر ان يوضحها له فى التو واللحظة . ولهذا الغرض امر باستدعاء ماشا (لم يكن كيرىلا بتروفيتش يعرف الفرنسية ، ولهذا كانت ماشا بمثابة مترجم له) .

- تعالى هنا يا ماشا ، وقولى لهذا المسيو اننى قد قبلته . . . على خيرة الله . . . ولكن بشرط الا يجرؤ على رفع عينيه الى فتياتى ، والا فاننى سوف اريه . . . ابن الكلب هذا . . . ترجمسى له ما قلت ، يا ماشا .

واحمرت ماشا ، ثم استدارت نحو المدرس وقالت له بالفرنسية ان اباهما يأمل فى تواضعه وسلوكه المهدب .

وانحنى لها الفرنسى ، واجاب بانه يأمل ان يحوز الاحترام ، حتى وان رفضوا ان يولوه العطف . وترجمت ماشا اجابته بالحرف الواحد . فقال كيرىلا بتروفيتش :

- حسنا ، حسنا ، انه ليس بحاجة لا الى الاحترام ولا الى العطف . . . ان عمله هو العناية بساشا وتعليمه النحو والجغرافيا . ترجمى هذا له .

وخفت ماريا كيريلوفنا في ترجمتها من الفاظ ابياها الخشنة ، وبعدها صرف كيريلا بتروفيتش الفرنسى الى الجناح الذى خصصت له غرفة فيه .

ولم تعر ماشا الفرنسى الشاب ادنى التفات ، فتربيتها الارستقراطية المتحيزة جعلتها تضع المدرس في زمرة الخدم او الاسطوات ، والخدام او الاسطى لم يكن في نظرها رجلا . كذلك لم تلاحظ الانطباع الذى خلفته لدى مسيو ديفورج ولا خجله او اضطرابه او صوته المتهدج . ثم بعد ذلك ، ولعدة ايام متوالية ، راته مرات عديدة دون ان توليه اهتماما اكبر . ثم تكوّن لديها بطريقة غير متوقعة تصور جديد للمغاية عنه .

كان كيريلا بتروفيتش كالعادة يربى في داره عدة دبية صغيرة ، وكانت تعتبر لونا من اهم الوان لهو اقطاعى بكروفسكويه . وكانت الدبية - وهى بعد صغيرة جدا - تساق كل يوم الى غرفة الجلوس ، حيث يلهو بها كيريلا بتروفيتش ساعات متواصلة ، محرّشا بينها وبين الجراء والقطط . وبعد ان تكبر الدبية كانت تربط في سلسلة في انتظار التحريش الحقيقى . وكانوا احيانا يقودونها امام نوافذ البيت ثم يدرجون امامها برميل خمر فارغ مزروع بالمسامير ، فكان الدب يشمشمه قليلا ثم يلمسه بحذر فيخز يديه ، فيغضب ويدفعه بشدة ، فيشتمد عليه الالم . وعندئذ يصيبه سعار فلا يزال ينقض على البرميل وهو يزمجر حتى

ينتزعوا من الوحش المسكين مادة غضبه الذي لا طائل منه . وكان يحدث احيانا ان يسرجوا زوجا من الدببة في عربة ويجلسو فيها الضيوف طوعا او كراهية ، ثم يطلقونهم مع الدببة لتركض الى حيث يشاء الله . اما المزحة المفضلة لدى كيريل بتروفيتش فكانت التالية .

كانوا يجلسون الدب الجائع في غرفة خاوية ويقيدون به بجل مربوط الى حلقة مثبتة في الحائط . وكان الجبل بطول الغرفة تقريبا ، بحيث لا يظل في الغرفة مكان آمن من بطش الوحش المرعب الا الركن المقابل . وفي العادة كانوا ياتون بشخص لا علم له بالامر الى باب الغرفة ، ثم يدفعونه فجأة عبر الباب الى الدب ، ثم يغلون الباب ، ويتركون الضحية البائسة وجها لوجه مع وحش البراري الاشمع . وكان الضيف المسكين ، بعد ان تتمزق اطراف ردايه ويسيل الدم من جروحه ، يجد بسرعة الركن الآمن ، ولكنه احيانا يضطر الى الوقوف ثلاث ساعات كاملة ، ملتصقا بالجدار ، يرقب الوحش الهائج على قيد خطوتين منه وهو يزار ويشب ويشب على رجليه الخلفيتين ، ثم ينقض محاولا الوصول اليه . تلك هي صورة اللهو النبيل للاقطاعي الروسي ! وبعد عدة ايام من وصول المدرس تذكره ترويكورف ، وقرر ان يقدم له فروض الضيافة في غرفة الدب ، ومن اجل ذلك دعاه ذات صباح ، وسار به عبر اروقة مظلمة ، ثم انفتح فجأة باب جانبي ، وظهر خادمان دفعا بالفرنسي خلال الباب ، ثم اغلقاه بالمفتاح . وما ان افاق المدرس من المفاجأة حتى رأى الدب المقيد . بدأ الوحش

ينفخ في منخاريه وهو يشمشم ضيفه على البعد ، ثم وقف فجأة على رجليه الخلفيتين وهجم عليه . ولم يرتبك الفرنسي او يهرب ، بل انتظر الهجوم . واقترب الدب ؛ فاخرج ديفورج من جيبه فردا صغيرا ، دسه في اذن الوحش الجائع واطلق النار ، فخر الدب صريعا . واسرع الجميع الى هناك وفتحوا الباب ، ودخل كيريلا بتروفيتش مصعوقا لهذه النهاية التي انتهت اليها مزحته .

وطلب كيريلا بتروفيتش باصرار توضيحا للامر كله ، فمن ذا الذي حذر ديفورج من المزحة التي دبرت له ، او لماذا كان معه فرد محشو في جيبه ، وارسل يستدعى ماشا . وجاءت ماشا مهرولة وترجمت للفرنسي اسئلة ايها .

- اننى لم اسمع شيئا عن الدب ، - اجاب ديفورج ، - ولكنى دائما احمل معى فردا ، لاننى لست مستعدا ان اتحمل اهانة ، لا يسمح لى وضمى ان اطلب اعتذارا عنها .

ونظرت اليه ماشا مبهورة ، ثم ترجمت اجابته لكيريلا بتروفيتش الذى لم ينبس ، ثم امر بحمل الدب وسلخ فروته ، وبعد ذلك التفت الى اتباعه وقال : - ارايتم هذا الهمام ؟ ! لم يجبن اى والله لم يجبن ! ومنذ تلك اللحظة احب ديفورج ، ولم يفكر ان يختبره بعد ذلك .

ولكن هذا الحادث ترك انطباعا اقوى لدى ماريسا كيريلوفنا واثار خيالها . لقد رات الدب الصريع ، وديفورج يقف فوق راسه هادنا ويتكلم معها باطمئنان . وعرفت ان الشجاعة والاعتزاز الابى بالنفس ليست

قاصرة على طبقة واحدة . ومن يومها اصبحت تولى المدرس الشاب احتراماً اخذ يزداد ساعة بعد ساعة . ونشأت بينهما شبه علاقة ، فقد كان لماشا صوت رائع ومواهب موسيقية كبيرة ، فتطوع ديفورج باعطائها دروساً . وبعد ذلك ليس من الصعب على القارى، ان يخمن ان ماشا وقعت في حبه ، ولما تعترف بذلك بينها وبين نفسها بعد .

الجزء الثاني

الفصل التاسع

قبيل العيد بدأ الضيوف يتوافدون ، فنزل بعضهم في منزل السيد والاجنحة الخارجية ، وبعضهم نزل عند الوكيل ، والبعض الثالث عند القس ، والبعض الرابع عند اغنياء الفلاحين . وكانت الاصطبلات غاصة بجياد السفر ، والافنية والحظائر مزدحمة بالعربات المختلفة . وفي الساعة التاسعة صباحا رنت الاجراس داعية الى القداس ، فتقاطر الجميع نحو الكنيسة الجديدة المشيدة من الحجر على نفقة كيريلا بتروفيتش والمزدانة بهباته التي كان يقدمها كل عام . وتجمع جمهور ضخم من المصلين الموقرين ، حتى ان بسطاء الفلاحين لم يجدوا لهم مكانا داخل الكنيسة فوقفوا على سلمها وفي الفناء . ولم يبدأ القداس فقد كانوا ينتظرون وصول كيريلا بتروفيتش ، ثم جاء ممتطيا عربة تجرها ستة خيول ، وتقدم ليشغل مكانه تحفه المهابة وتصحبه ماريا كيريلوفنا التي كانت محط انظار الرجال والنساء ، فاعجب الفريق الاول بجمالها ، اما الفريق الثاني فتفحص ملابسها باهتمام . وبدأ القداس ، واصطف المرتلون

المنزليون جوقة ، وحتى كيريلا بتروفيتش نفسه ردد مقاطع الترتيل ، وصلى دون ان يتلفت يمنا او يسرة ، ثم طأطا راسه في خشوع متكبر عندما دعى الشماس بصوت عالٍ لهشيد هذا المهيد .

وانتهى القداس فكان كيريلا بتروفيتش اول من اقترب من الصليب ثم تبعه الجميع ، وبعد ذلك تقدم الجيران نحوه ليحيوه ، واحاطت السيدات بماشا . وفي طريقه الى خارج الكنيسة دعا كيريلا بتروفيتش الجميع الى تناول الغداء في داره ، ثم جلس في العربة متوجها الى المنزل ، فانطلق الجميع في اثره . وامتلات الغرف بالضيوف . وكانت تفد وجوه جديدة كل لحظة ، وتشق طريقها الى السيد بمنتهى الصعوبة . وجلست السيدات في شبه حلقة موقرة ، في ازياء مستعملة وغالية متأخرة عن الموضة ، ومزينات بالجواهر واللائي ، وتكدس الرجال بالقرب من الفودكا والكافيار وتحدثوا فيما بينهم مثيرين ضجة متعددة الاصوات . وفي الصالة اعدوا مائدة لثمانين شخصا . وجرى الخدم هنا وهناك وهم يرصون زجاجات الخمر والدوارق ويمدون المفارش . واخيرا اعلن الوصيف : المائدة معدة . . فكان كيريلا بتروفيتش اول من نهض ليجلس الى المائدة ، ثم سارت خلفه السيدات ، واحتلن مقاعدهن بعظمة مراعات نوعا من الاقدمية ، اما الانسات فتلاصقن ببعضهن ببعض كقطيع خجول من الماعز ، واختارت كل منهن مقعدها بجوار الاخرى . وفي الجانب المقابل لهن جلس الرجال . وفي طرف المائدة جلس المدرس بجوار الصغير ساشا . واخذ الخدم يوزعون الاطباق حسب رتب الضيوف

مسترشددين في حالة الضوضى بتخمينات لافايتير • فلم يخطئوا تقريبا في معظم الاحوال . واختلط رنين الاطباق والملاعق بحديث الضيوف الصاخب . واستعرض كيرىلا بتروفيتش مائدته بنظرة مرحة واستمتع تماما بسعادة المضيف الكريم وفي هذه اللحظة دخلت الفناء، عربة تجرها ستة خيول .

وسال رب الدار :

- من هذا ؟

- انه انطون بافوتيتش ، - اجابته عدة

اصوات . . .

وفتح الباب واندفع الى غرفة الطعام انطون بافوتيتش سبيتسين ، رجل بدين ، في الخمسين من عمره ، ذو وجه مستدير مجدور ، وذقن تتدلى تحتها طبقتان من الشحم ، واخذ ينحنى ويبتسم وقد استعد لتقديم اعتذاره . ولكن كيرىلا بتروفيتش صاح :

- احضروا الاطباق . . . على الرحب والسعة يا

انطون بافوتيتش ، اجلس وخبرنا لماذا تغيبت عن قداسى وتاخرت على الغداء . ان هذا ليس من شيمك ، فانت رجل متعبد ومولع بالاكل ايضا .

واجاب انطون بافوتيتش وهو يشبث المنشفة في عروة القفطان الاصفر بلون العسل :

- مذنب ، مذنب يا سيدى كيرىلا بتروفيتش . لقد

خرجت مبكرا ، ولكن لم اكذ اقطع عشر فراسخ حتى انفلق

• لافايتير (١٧٤١-١٨٠١) كاتب سويسرى ، حاول في

كتابه وعلم تعابير الوجوه ، تحديد طباع الشخص على اساس ملامح وجهه . الناشر .

إطار العجلة الامامية ، فماذا افعل ؟ لحسن الحظ لم تكن بعيدين عن القرية ، ولكن الى ان وصلنا اليها ، ثم الى ان وجدنا الحداد ، ثم الى ان اصلحناها كيفما اتفق مرت ثلاث ساعات . ما باليد حيلة . ولم اجزؤ على اختيار اقصر الطرق عبر غابة كيستينيوفكا ، فلجأت الى الدوران حولها

وقاطعه كيرىلا بتروفيتش :

- ايه يبدو انك لست من معشر الشجعان

ماذا تخاف ؟

- ماذا اخاف ؟ كيف ؟ ودوبروفسكى ؟ قد اقع فى قبضته بين لحظة واخرى ، وهو فقى محنك لا يدع احدا يفلت من يديه ، اما انا بالذات فسيسلخ جلدى مرتين .

- ولماذا يا اخى يخصك بهذا التمييز ؟

- كيف لماذا يا سيدى كيرىلا بتروفيتش ؟ بسبب قضية المرحوم اندريه جافريلوفيتش . الست انا الذى اثبت لاجل خاطرک ، اعنى وفقا للضمير والعدالة ، ان دوبروفسكى يملك كيستينيوفكا عن غير وجه حق فقط بسبب تسامحك . وقد وعد المرحوم (اسكنه الله فسيح جناته) ان يصفى حسابه معى بطريقته الخاصة ، وسيصفى ابنه على الارجح بوعد ابيه . وحتى هذه اللحظة سترها الله ، فلم ينهاوا منى غير مخزن الحبوب ، وما يدريك لعلهم ينقضون على دارى بالذات . وقال كيرىلا بتروفيتش ملاحظا :

- وسيجدون فى الدار كنزهم . . . لا بد ان العلبة الحمراء ملأى حتى آخرها .

- رحماك يا سيدي كيرىلا بتروفيتش . . كانت
ملأى والآن فارغة !

- كفاك كذباً يا انطون بافنوتيتش ، لن
تخدعنا . . . اين تنفق نقودك ، اذا كنت تعيش في
منزلك عيشة الخنازير ولا تدعو احدا ، وتنهب
فلاحيك . . طبعا ليس امامك الا ان تكنز النقود لا اكثر .
ودمدم انطون بافنوتيتش وهو يبتسم :

- انت دائماً تحب المزاح يا سيدي كيرىلا
بتروفيتش ، غير اننا افلسنا ، اي والله ، - وابتلع
انطون بافنوتيتش مزحة رب الدار وغطى عليها بقطعة
دسمة من شطيرة .

وانصرف عنه كيرىلا بتروفيتش والتفت الى رئيس
الشرطة الجديد الذى حل في ضيافته للمرة الاولى
والجالس على الطرف الآخر للمائدة بجوار المدرس :
- وانت ، هل ستقبض على الاقل على دوبروفسكى
يا حضرة الرئيس ؟

وجبن الرئيس وانحنى وابتسم وتعلم ثم اخيرا
قال :

- سنبذل جهدنا يا صاحب المعالي .
- احم ! سنبذل جهدنا ! منذ امد بعيد وهم
يبذلون جهودهم ، ومع ذلك لا فائدة . ثم حقا ، لماذا
القبض عليه ؟ ان جرائم دوبروفسكى نعمة لضباط
الشرطة ، اذ بسببها يسافرون هنا وهناك ، ويجرون
التحقيقات ويستغلون العربات . وبعد ذلك يضمنون
النقود في جيوبهم ، فكيف يقضون على رب النعمة هذا ؟
اليس كذلك يا حضرة الرئيس ؟

واجاب الرئيس المرتبك للنهاية :
- عين الحقيقة يا صاحب المعالي .
وقهقه الضيوف .

وقال كيرىلا بتروفيتش :

- احب فيك الصراحة . ولكنى آسف على رئيسنا
المرحوم تاراس اليكسييفيتش . لو لم يحرقوه لكانت
الاحوال فى ناحيتنا اهدا . ما هى اخبار دوبروفسكى ؟
اين شوهد آخر مرة ؟

واجاب صوت نسانى غليظ :

- عندى يا كيرىلا بتروفيتش . . لقد تناول عندى
الغدا، يوم الثلاثاء الماضى . . .

واتجهت انظار الجميع الى اثنا سافيشنا جلوبوفا ،
تلك الارملة البسيطة ، والمحبوبة من الجميع لشخصيتها
الطيبة المرحمة . واستعدوا لسماع قصتها وقد استحوذ
عليهم الفضول .

- اريد ان اخبركم باننى ارسلت وكيلى منذ ثلاثة
اسابيع الى البريد ليرسل نقودا لابنى فانوشا . اننى
لا ادلل ابنى ، بل لا استطيع ان ادلله وان كنت ارجب
فى ذلك لكنكم تعلمون ان ضابط الحرس يجب ان يحيا
حياة لائقة به ، ولذلك اعطى لفانوشا كل ما استطيع
من دخل القليل . وهكذا ارسلت اليه الفى روبل . ومع
ان دوبروفسكى طرا على ذهنى اكثر من مرة ، الا اننى
قلت لنفسى : المدينة ليست بعيدة ، فالمسافة لا تزيد
على سبعة فراسخ وربما يعر الامر على خير . واذا بوكيلى
يعود فى المساء شاحبا ، ممزق الثياب وبدون العربة ،
فسهقت : «ما هذا ؟ ماذا حدث لك ؟» فقال : سيدتى

انثا سافيشنا ، نهبنى اللصوص وكادوا يقتلوننى .
دوبروفسكى نفسه كان هناك ، واراد ان يشنقنى ثم
راف بى واطلق سراخى ، ولكنه اخذ كل شىء ، حتى
الحصان والعربة . وصعقت : يا الهى ، ماذا سيفعل ابنى
فانيوشا ؟ ولم يكن بيدي حيلة ، فكتبت له رسالة
شرحت له فيها كل شىء ، وبعثت اليه بركاتى دون
درهم واحد .

ومر اسبوع ثم آخر ، واذا بعربة تصل الى فناء
دارى ويخرج منها جنرال يطلب مقابلتى . اهلا وسهلا .
ودخل رجل فى حوالى الخامسة والثلاثين ، اسمر ، اسود
الشعر ، ذو شوارب ولحية ، نسخة طبق الاصل من
كولنيف * ، وقدم نفسه على انه صديق المرحوم زوجى
ايفان اندريفيتش وزميله فى الخدمة . وحسبما قال فقد
كان مارا بالمكان ، ولما علم اننى هنا لم يستطع الا ان
يزور ارملة . واكرمه مما رزقنى الله . وتحدثنا فى
شتى الامور ، واخيرا وصلنا الى دوبروفسكى . وهنا
حكيت له عن مصيبتى . وتجهم جنرالى ثم قال : هذا امر
غريب ، لقد سمعت ان دوبروفسكى لا ينهب كل الناس
بل الاغنياء المعروفين فقط ، وحتى هؤلاء لا ينهبهم تماما ،
بل يترك لهم نصيبا . وليس هناك من يتهمه بارتكاب
جرائم القتل . يبدو ان هناك خداعا فى هذه الواقعة .
استدعى وكيلك لو سمحت . وارسلت استدعيه فجاء .
وما ان راى الجنرال حتى جمد فى مكانه . «خبرنى يا اخى

* هو جنرال روسى احرز عدة الانتصارات رائعة ابان
الحرب ضد السويديين فى سنتى ١٨٠٨-١٨٠٩ . **الناشر** .

كيف سطا عليك دوبروفسكى وكيف اراد ان يشنقك؟» . ارتعش وكيلى ثم ارتقى على قدمى الجنرال : «مذنب يا سيدى ، الشيطان اغوانى . لقد كذبت» . فقال الجنرال : «ما دام الامر كذلك ، فلتقص على السيدة الحادثة كما وقعت ، وسوف استمع اليك» . ولم يستطع الوكيل ان يسيطر على نفسه ، فواصل الجنرال : «حسنا ، قل : اين قابلت دوبروفسكى؟» - «عند شجرتى الصنوبر يا سيدى ، عند شجرتى الصنوبر» . - «وماذا قال لك؟» - «سالتى : من انت ، والى اين ذاهب ، ولماذا؟» - «حسنا ، وبعد ذلك؟» - «بعد ذلك طلب الرسالة والنقود» - «ثم؟» - «اعطيته الرسالة والنقود» - «وهو ، ماذا فعل هو؟» - «مذنب يا سيدى» - «وهو ، ماذا فعل؟» - «اعاد إلى الرسالة والنقود وقال : «اذهب فى رعاية الله ، وسلم ما معك فى مكتب البريد» - «ثم؟» - «مذنب يا سيدى» - «سأصفى الحساب معك يا هذا - قال الجنرال بصوت رهيب - اما انت يا سيدتى فلتأمرى بتفتيش صندوق هذا النصاب ، ثم سلميه لى وسألقنه درسا . عليك ان تعلمى ان دوبروفسكى نفسه كان ضابطا فى الحرس ، ولا يحب الاساءة الى رفيق» . وخمنت من يكون معاليه ، فلم يكن الامر يحتاج الى كلام . وربط الحوذية وكيلى الى مقعد السائق ، ثم وجدنا النقود . وتغدى الجنرال عندى ثم رحل بسرعة واخذ معه الوكيل . وفى اليوم التالى وجدنا وكيلى مقيدا الى شجرة بلوط . ومجردا من كل شىء .

واستمع الجميع فى صمت الى قصة اثنا سافيشنا ،

وخاصة الأنسات ، وشعرت الكثيرات منهن بالميل نحو
دوبروفسكى ووجدن فيه صورة البطل الرومانسى ،
وخاصة ماريا كيريلوفنا ذات الخيال الجامع والمشبعة
بروايات رادكليف المليئة بالرعب الغامض .

وسال كيريلا بتروفيتش :

- واذن فأنت تعتقدين يا اثنا سافيشننا ان
دوبروفسكى نفسه كان عندك . انك مخطنة تماما .
لست ادري من زارك ، ولكنه ليس دوبروفسكى .
- ومن اذن يا سيدى غير دوبروفسكى يخرج الى
الطرق ويستوقف المارة ويفتشهم ؟

- لست ادري ، ولكنه ليس دوبروفسكى
بالتاكيد . اننى اذكره عندما كان طفلا ، ولست ادري هل
اسود شعره ام لا ، ولكنه كان ايامها صبيا ذا شعر
اشقر مجعد ، واعلم بالتاكيد ان دوبروفسكى اكبر من
ابنتى ماريا بخمس سنوات ، وبالتالي فعمره الآن حوالى
٢٣ سنة وليس ٣٥ .

- بالضبط تماما يا صاحب المعالى - قال
الرئيس - معى الآن فى جيبى اوصاف فلاديمير
دوبروفسكى ، ومكتوب فيها بالضبط ان عمره ٢٣
سنة .

- آ . . . - قال كيريلا بتروفيتش - اقراها لنا
بالمناسبة ، وسوف نصفى اليك ، فلن يضيرنا ان نعرف
اوصافه ، ربما تقع عليه ابصارنا ، وساعتها لن
يفلت .

واخرج الرئيس من جيبه ورقة قذرة للغاية وبسطها
بعظمة ، واخذ يقرأ بصوت منمغ :

- «اوصاف فلاديمير دوبروفسكى طبقا لرواية رجال حاشيته السابقين .

«العمر : ٢٣ سنة ، الطول : متوسط ، الوجه : نظيف ، اللحن : حليق ، العينان : عسليتان ، الشعر : فاتح ، الالف : مستقيم . علامات مميزة : لا يوجد» .
- هل هذا فقط كل ما لديك ؟ - قال كيريل بتروفيتش .

- فقط . . . - اجاب الرئيس وهو يطوى الورقة .

- اهنتك يا حضرة الرئيس . يا لها من مستندات ! يمثل هذه الاوصاف لن يصعب عليكم العثور على دوبروفسكى ! من ذا الذى طوله ليس متوسطا ، ومن ذا الذى شعره غير فاتح ، او انفه غير مستقيم ، او عيناه غير عسليتين ! اقسم انك قد تتكلم ثلاث ساعات مع دوبروفسكى نفسه دون ان تخمن مع من جمعت القدر . ما اذكى ادمغة الموظفين !

ووضع الرئيس ورقته فى جيبه بخنوع ، وبدأ فى صمت ياكل الاوزة مع ورق الكرنب ، بينما كان الخدم قد داروا عدة مرات على الضيوف مالئين لكل منهم كاسه . وفتحت عدة زجاجات من خمر «جورسكى» و«تسيمليانسكى» بلرقعة ، فقبلت بارتياح على انها شمبانيا . وبدأت الوجوه تحمر ، واصبحت الاحاديث اكثر رنيئا واضطرابا ومرحا .

وواصل كيريل بتروفيتش :

- كلا ، لن نرى رئيسا مثل المرحوم تاراس اليكسييفيتش ! لم تكن تنقصه الحنكة او الدراية . من

المؤسف انهم احرقوه ، والا لما اقلت احد من العصابة .
لو كان حيا لامسك بهم جميعا . حتى دو بروفسكى نفسه
ما كان ليستطيع ان يقلت او يفدى نفسه ، فان تاراس
اليكسييفيتش كان سياخذ منه الفدية ، ولكنه لا يطلق
سراحه . تلك كانت طبيعة المرحوم . ليس هناك حل
آخر سوى ان اتدخل في الامر واهجم على العصابة مع
رجالى . وفي البداية ساسلح عشرين رجلا وانظف بهم
غابة اللصوص . ان رجالى شجعان ، كل منهم يصطاد
الدب بمفرده ، ولم يجبنوا امام قطاع الطريق .

- هل دبك بخير يا سيدي كيرىلا بتروفيتش ؟ -
سال انطون بافنوتيتش وقد تذكر عند هذه الكلمات
صاحبه الاشعث وكذلك بعض المزحات التى كان هو
ايضا ضحيتها في وقت ما .

- ميشا • اسلم روحه لبارئها - اجاب كيرىلا
بتروفيتش - لقد مات ميتة مجيدة على يد العدو ، وها
هو المنتصر هناك - واشار كيرىلا بتروفيتش الى
ديفورج - لقد انتقم لك ، اتذكر ؟

- كيف لا اذكر - قال انطون بافنوتيتش وهو يحك
جلده - اذكر جيدا . . اذن فميشا قد مات . . انى
اسف عليه ، اى والله اسف ! كم كان مضحكا ! كم
كان ذكيا ! ادب لا مثيل له . ولماذا قتله المسيو ؟

واخذ كيرىلا بتروفيتش يقص بتلفذ عظيم ماثرة
رجله الفرنسى ، فقد كان يمتاز بموهبة سعيدة وهى ان
يتباهى بكل ما يحيط به . وسمع الضيوف باهتمام
• يطلقون في روسيا اسم «ميشا» على الدب تدليلا .

(المترجم .)

قصة مصرع ميسا واخذوا ينظرون مبهورين الى ديفورج الذي ظل جالسا في مكانه هادئا ، يوجه لتلميذه الجدل الملاحظات الاخلاقية وهو لا يتحدث ان الحديث كان يدور عن شجاعته .

وانتهى الغداء الذي استمر حوالى ثلاث ساعات ، ووضع المضيف منشفته على المائدة ، فنهض الجميع وتوجهوا الى غرفة الاستقبال حيث كان في انتظارهم القهوة وورق اللعب والشرب المتواصل ، الذي كانت بدايته المجيدة في غرفة الطعام .

الفصل العاشر

في حوالى السابعة مساء اراد بعض الضيوف ان يرحلوا ، ولكن رب الدار وقد انتشى من الخمر اعطى اوامره باغلاق البوابة واعلن انه لن يدع احدا يرحل قبل الصباح . وسرعان ما صدحت الموسيقى ، وفتحت ابواب القاعة وبدأت حفلة الرقص . وجلس رب الدار وضيوفه المقربون في الركن واخذ يشرب الكاس تلو الكاس ويرقب مرح الشباب ببغطة . وجلست العجائز يلعبن الورق . وكان الراقصون من الرجال اقل من النساء كما هو الحال دائما في اى مكان لا تصمك فيه احدى فرق الفرسان ، فوجد جميع من يصلح من الرجال لهذا الغرض . وتميز المدرس بين الجميع ورقص اكثر الكل ، واختارته جميع الانسات مراقصا ، واكتشفن انه من السهل تادية رقصة الفالس معه ، ودار عدة دورات وهو يراقص ماريا كيريلوفنا ، وراقبتها اعين الفتيات

الساخرة . وقرب منتصف الليل انهى رب الدار حفلة الرقص اذ شعر بالتعب ، وامر بتقديم العشاء بينما انصرف هو لينام .

واعطى غياب كيربلا بتروفيتش للجميع مزيدا من الحرية والحركة فتجرا الراقصون على شغل اماكنهم بجوار السيدات ، وضحكت الفتيات وتبادلن الهمس مع جاراتهن ، وتحدثت السيدات بصوت عال عبر المائدة . اما الرجال فكانوا يشربون ويتناقشون ويقهقهون ، وباختصار كان العشاء مرحا للغاية وخلّف في النفوس ذكريات طيبة كثيرة .

لكن واحدا فقط لم يشترك في هذه الفرحة الجماعية الا وهو انطون بافنوتيتش ، فقد جلس في مكانه عابسا صامتا ، واكل وهو شارد الذهن ، وبدا قلقا للغاية . لقد اثارت مشاعره تلك الاحاديث التي دارت عن قطاع الطرق . وسنرى حالا انه كان هناك سبب وجيه لخوفه منهم .

لم يكذب انطون بافنوتيتش او يرتكب اثما عندما دعا ربه ليكون شاهدا على ان علبته الحمراء كانت خاوية . فقد كانت العلبة الحمراء خاوية فعلا ، اذ انتقلت النقود التي كانت في وقت ما مخبأة فيها الى حقيبة جلدية ربطها على صدره تحت القميص . و فقط بفضل هذا الاجراء الاحتياطي استطاع ان يطمئن شكه في كل انسان وخوفه الدائم . ولما كان مضطرا الى المبيت في دار غريبة ، فقد خشى ان ينحصوا له مكانا في غرفة منعزلة يسهل على اللصوص اقتحامها . واخذ يفتش بعينيه عن رفيق يعتمد عليه ، فوقع اختياره اخيرا على ديفورج .

والذي حدد هذا الاختيار هو مظهر ديفورج الدال على القوة ، والاكثر من ذلك شجاعته التي تجلت عند لقائه مع الدب ، هذا الدب الذي لم يكن انطون بافنوتيتش المسكين يتذكره الا ويشعر بالقشعريرة تسرى في بدنه . وعندما غادر الضيوف المائدة اخذ انطون بافنوتيتش يحوم حول الفرنسي الشاب ، ويتنحسح ويسعل ، واخيرا خاطبه موضحا :

- احم . . احم . . الا يمكن يا مسيو ان ابيت في غرفتك الصغيرة لانه ، اذا اردت الحقيقة . . . فسأله ديفورج وهو ينحنى له باحترام :

— Que désire monsieur ?*

- اوه ، يا للمصيبة ، لم تتعلم الروسية بعد يا مسيو . جى فى مواشى فو كوشيه * * ، هلى تفهمنى ؟ اجاب ديفورج :

— Monsieur, très volontiers, veuillez donner des ordres en conséquence.***

وفي الحال انطلق انطون بافنوتيتش لعمل الترتيبات اللازمة ، وهو مسرور للغاية لمعلوماته في مجال اللغة الفرنسية .

ودع الضيوف بعضهم بعضا ، واتجه كل الى الغرفة المخصصة له . وذهب انطون بافنوتيتش مع المدرس الى الجناح . كانت الليلة مظلمة ، فاضاء ديفورج طريقتهما

* ماذا تريد يا سيدي ؟

** اريد ان ابيت في غرفتك .

*** بكل سرور يا سيدي . اصدر الاوامر المناسبة لو

سمحت .

بمصباح ، وسار خلفه انطون بافنوتيتش في غاية النشاط . وكان احيانا يضم الى صدره الحقيبة المخبأة لكي يتأكد ان النقود ما زالت موجودة .

وعندما دخلا الى الجناح اضاء المدرس شمعة ، وبدا كلاهما يخلعان ملابسهما . وفي هذه الاثناء اخذ انطون بافنوتيتش بجوس في الغرفة ويفحص الاقفال والنوافذ ويهز راسه لنتيجة الفحص غير المطمئنة . لقد وجد الباب لا يغلقة سوى مرتاج ، وليس للنوافذ اطر مزدوجة . وحاول ان يشتكى لديفورج من هذا الامر ، غير ان معرفته للفرنسية كانت اضيق من ان تتسع لمثل هذا الحديث المعقد فلم يفهمه الفرنسي ، واضطر انطون بافنوتيتش الى الكف عن شكواه . وكان فراشاهما متقابلين . وعندما استلقيا عليهما اطفأ المدرس الشمعة .

- بوركوا فو توشى ، بوركوا فو توشى * - صرخ انطون بافنوتيتش وصرف الفعل الروسى (تشتيت) كيفما اتفق على الطريقة الفرنسية - اننى لا استطيع دورمير * * في الظلام .

ولم يفهم ديفورج صرخته فتمنى له ليلة سعيدة .

ودمدم سبببتسين وهو يتلغلف بالغطاء :

- كافر ملعون . . لماذا اطفأ الشمعة . . هذا

* لماذا اطفأها ، لماذا اطفأها ؟ - فعل (توشيت) الروسى يعنى اطفأ ، اما فعل (توشير) الفرنسى فمعناه : لمس . (المترجم .)

* * ان انام . (المترجم .)

اسوا بالنسبة له ، فانا لا نستطيع النوم دون ضوء . .
يا مسيو ، يا مسيو - ردد سبييتسين - جى فى افيك
فو بارلى * . - ولكن الفرنسى لم يجب وسرعان ما علا
شخيره .

وفكر انطون بافنوتيتش : «هذا الفرنسى الوغد
يشخر ، بينما لا يخطر النوم لى على بال . . اخشى ان
يدخل اللصوص خلال الباب المفتوح او ينفذوا عبر
النوافذ ، ولن يستيقظ هذا الوغد ولو اطلقت المدافع» .
- مسيو . . يا مسيو . . - فلتذهب الى
الشیطان !

وصمت انطون بافنوتيتش ، فقد تغلب التعب ونشوة
الخمر شينا فشيننا على خوفه وبدا ينفو ، وسرعان ما
راح فى سبات عميق .

كان القدر يخبى له يقظة غريبة . فلقد شعر خلال
النوم بشخص ما يشده بهدوء من ياقة قميصه . وفتح
انطون بافنوتيتش عينيه وفى الضوء الشاحب لصباح
خريفى راى امامه ديفورج : كان الفرنسى ممسكا فى
احدى يديه بمسدس صغير ، ويفك باليد الاخرى
الحقيبة الغالية . وشل الذهول انطون بافنوتيتش . .
ثم تتم بصوت متهدج :

- كسكى سى مسيو ، كسكى سى ؟ . .

- صه ، اخرس - اجاب المدرس بلغة روسية

صرفة - اخرس والا هلكت . . اننى دو بروفسكى .

* اريد ان اتحدث معك .

* * ما هذا يا سيدى ، ما هذا ؟

الفصل العاشر عشر

فليسمح لنا القارىء الآن ان نفسر له الاحداث الاخيرة في قصتنا وذلك بشرح الظروف السابقة ، والتي لم يسعفنا الوقت للكلام عنها من قبل .

في محطة (. . .) ، وفي منزل ناظر المحطة الذى اشرنا اليه سابقا جلس في الركن احد المسافرين . وكان مظهره يدل على الخضوع والصبر ، وعلى ان صاحبه اما رجل من غير طبقة النبلاء ، واما اجنبى ، اى رجل ليست له كلمة مسموعة على الطرق البريدية . وكانت عربته تقف في الفناء في انتظار التشحيم وفيها حقيبة صغيرة ، دليل ضعيف على ثروة ضئيلة للغاية . ولم يطلب المسافر شايًا او قهوة ، بل اخذ يتطلع خلال النافذة ويصفر ، مما اثار سخط زوجة الناظر ، التى كانت تجلس خلف العاجز .

- هل قد بلانا الله بصفرائى - قالت هامسة - انظر كيف يصفر . . . فلتخطفه مصيبة ، هذا الكافر الملعون .

فقال الناظر :

- وماذا هناك ؟ فليصفر كما يحلو له .
- ماذا هناك ؟ ! - قالت الزوجة الغاضبة معارضة - الا تعرف نذير الشؤم ؟
- اى نذير شؤم ؟ ان الصغير يذهب بالنقود ؟ ايه يا باخومفنا . . ماذا يهمننا من الصغير او عدمه ما دمنا بلا نقود على اى حال .

- دعه يرحل يا سيدوريتشى . . ما مصلحتك من ابقائه . اعطه خيولا وليذهب الى الشيطان .

- فلينتظر قليلا يا باخومفنا . ليس لدينا فى الاصطبل الا ثلاثة اطقم خيول ، والطاقم الرابع يستريح . لا اريد ان اجر على نفسى المتاعب بسبب هذا الفرنسى ، فربما وصل الآن مسافرون من الاعيان . ها ! بالضبط ، ها هم يركضون . . او - وه . . يركضون بسرعة . . ربما يكون جنرال ؟

وتوقفت العربية عند السلامك ، وقفز خادم من مقعد الحوذى وفتح الباب ، وما هى الا لحظة حتى دخل الى الناظر شاب يرتدى معطفا عسكريا وعمرة بيضاء ، ودخل خلفه خادم يحمل علبة ، وضعها على النافذة . وقال الضابط للناظر بلهجة آمرة :

- اعطنى خيولا !

فاجاب الناظر :

- حالا . . اعطنى لو سمحت بطاقة السفر . . .

- ليس معى بطاقة . . . اننى مسافر فى طريق

فرعى . . . الا تعرف من انا ؟

وارتبك الناظر ، ثم انطلق يستعجل الحوزية . واخذ

* يتكون الطاقم من ثلاثة خيول ، والعربة التى تجرها ثلاثة خيول تسمى (ترويك) وكانت وسيلة الانتقال شائعة فى روسيا فى ذلك العهد . (المترجم .)

* قبل مد السكك الحديدية كان الانتقال من مكان الى آخر يتم فى روسيا القيصرية بواسطة عربات تحمل البريد والمسافرين وتسير على طرق رئيسية محددة . ويجرى استبدال الجياد المتعبة عند كل محطة بعد تقديم بطاقة السفر اللازمة . (المترجم .)

الشباب يروح جيئة وذهابا في الغرفة ، ثم عبر الحاجز
وسأل زوجة الناظر بصوت خافت : من هذا المسافر ؟
واجابت زوجة الناظر :

- الله وحده يعلم . . انه احد الفرنسيين . . وها
هو ينتظر الخيول خمس ساعات ويصفر . . لقد اضجرني
هذا الملعون .

وتوجه الشاب إلى المسافر وسأله بالفرنسية :
- الى اين تنوى الذهاب ؟
فاجاب الفرنسي :

- الى اقرب مدينة ، ومنها سأتجه الى احد
الاقطاعيين ، الذى استأجرني غيابيا كمدرس . وقد ظننت
اننى ساصل اليوم الى مقصدي ، ولكن يبدو ان لسيادة
الناظر رايًا آخر . من الصعب الحصول على الخيول في
هذه البقعة يا سيدى الضابط .

وسأل الضابط :

- وعند اى إقطاعى ستعمل هنا ؟
فاجاب الفرنسي :

- عند السيد ترويكورف .

- عند ترويكورف ؟ من هذا الترويكورف ؟

- Ma foi, monsieur . . . لقد سمعت عنه

اشياء غير طيبة كثيرة . يقولون إنه سيد صلب الراس
وقاس في معاملته لمستخدميه ، وان احدا لا يستطيع
معاشرته ، وان الجميع يرتعدون عند سماع اسمه ،
وانه مع المدرسين يرفع الكلفة ، بل لقد جلد اثنين منهم
حتى الموت .

* في الحقيقة يا سيدى . . .

- حنانيك . . . ومع ذلك قررت ان تعمل لدى هذا
الوحش ؟

- وماذا افعل يا سيدي . . انه يقترح راتباً
مغرياً ، ثلاثة آلاف روبل في السنة وكل ما يلزم . ربما
كنت اسعد حظاً من الآخرين . ان لي اما عجوزاً سوف
ارسل لها نصف الراتب لتعيش به ، ومن الباقي يمكنني
خلال خمس سنوات ان ادخر راسملاً صغيراً يكفى
لاستقلالي في المستقبل ، وساعتها • bonsoir سأرحل
إلى باريس وانخرط في التجارة .
وسأله الضابط :

- هل يعرفك احد من منزل ترويكورف ؟
- لا احد - اجاب المدرس - لقد استأجرني هو
من موسكو عن طريق احد معارفه الذي رشحنى اليه
بدوره طاهيه الفرنسي اخي في الجنسية . وينبغي ان
اخبرك بأنه لم يكن في نيتي ان اصير مدرساً ، بل
حلوانياً ، ولكنني علمت ان مهنة المدرس في بلادكم
اربح بكثير . . .
واستغرق الضابط في التفكير ، ثم قاطع الفرنسي
قائلاً :

- اسمع . . ما رأيك لو اقترحت عليك عشرة آلاف
روبل عدا ونقداً بدلاً من عملك هذا بشرط ان تعود في
التو واللحظة إلى باريس ؟
ونظر الفرنسي الى الضابط مذهولاً ثم ابتسم وهز
راسه .

• وداعاً .

- الخيول معدة - قال الناظر وهو يدخل .
واكد الخادم نفس الامر .

- لحظة واحدة - قال الضابط - اخرجنا وانتظراني
دقيقة . . . - وخرج الناظر والخادم فواصل كلامه
بالفرنسية . - انا لا امزح . . استطيع ان اعطيك عشرة
آلاف ولا اريد منك سوى رحيلك واوراقتك .
وما ان قال هذا حتى فتح العلبة واخرج عدة رزم من
الاوراق المالية .

وجحظت عينا الفرنسي ، ولم يعرف حتى فيم يفكر .
واخذ يكرر في ذهول :

- رحيلي . . اوراقى . . ها هي اوراقى . . ولكنك
تمزح . . ما حاجتك الى اوراقى ؟

- لا دخل لك بذلك انى اسألك : هل توافق ام
لا ؟

ومد الفرنسي وهو لا يصدق ما يسمع اوراقه الى
الضابط الشاب الذى فحصها بسرعة .

- جواز سفرك . . حسنا - خطاب تزكية . .
سنرى . . شهادة الميلاد . . رائع والآن خذ نقودك وعد

من حيث اتيت . . وداعا .

وظل الفرنسي واقفا كالمقيد .
وعاد الضابط .

- كدت انسى اهم شيء . . عدنى بشرفك ان هذا
الامر كله سيبقى سرا بيننا . . اعطني كلمة شرف .

- اعدك بشرفى . . ولكن اوراقى . . ماذا افعل
بدونها ؟

- اعلن فى اول مدينة ان دوبروفسكى سطا عليك

وسوف يصدقونك ويعطونك الشهادات اللازمة .
وداعا . . ارجو من الله لك عودة سريعة الى باريس وان
تجد والدتك بصحة طيبة .

وخرج دوبروفسكى من الغرفة وجلس في العربة
ورحل .

وكان الناظر يتطلع في النافذة ، وعندما رحلت العربة
قال لزوجته بانفعال :

- اتعرفين يا باخومفنا من كان هنا ؟ انه
دوبروفسكى !

واندفعت زوجة الناظر نحو النافذة ، ولكن بعد فوات
الايوان ، اذ ان دوبروفسكى كان قد رحل ، فاخذت
تسب زوجها :

- انك لا تخشى الله يا سيدوريتش . . لماذا لم
تخبرني منذ البداية ، كنت على الاقل القيت نظرة عليه ،
فما اظنه سيأتى مرة اخرى . . يا عديم الضمير . .
نعم . . عديم الضمير . .

وظل الفرنسى واقفا كالمقيد ، وخيل اليه ان الاتفاق
الذى ابرمه مع الضابط والنقود ، كل ذلك مجرد حلم .
غير ان رزم البنكنوت كانت معه في جيبه ، وكانت اقوى
دليل على واقعية هذه الحادثة العجيبة .

وقرر ان يستأجر خيولا حتى المدينة . وقاد الحوذى
العربة ببطء ، فوصلا المدينة ليلا .

وقبل ان يصلا إلى نقطة الحراسة التي كانت تنتصب
بقربها صومعة حراسة مهدمة بدلا من الحارس ، امر
الحوذى ان يوقف العربة ثم نزل منها وسار على قدميه
بعد ان اخبر الحوذى بواسطة الإشارات انه يهدى اليه

العربة والحقيبة ليشرّب بثمرهما فودكا . وكما ذهل هو لاقتراح دوبروفسكى ، كذلك ذهل الحوذى لكرمه ، ولكنه استنتج من هذا ان الفرنجى اصابه الجنون ، فشكره بانحناءة شديدة ، ثم قرر انه من الاصوب الا يذهب الى المدينة وانطلق الى احد اماكن اللهو التى يعرفها جيدا كما يعرف صاحبها . وهناك قضى ليلته . وفى اليوم التالى قفل راجعا فى عربة خالية تجرها ثلاثة جياذ بدون الحقيبة والعربة وبوجه منتفخ وعينين حراوين .

وبعد ان استولى دوبروفسكى على اوراق الفرنسى ذهب بجراة الى ترويكورف كما راينا ، واقام فى داره . وايا كانت نواياه الخافية (والتي سنعرفها فيما بعد) الا ان سلوكه لم تشبه شائبة . صحيح انه لم يشغل نفسه كثيرا بتربية الصغير ساشا ، بل اعطاء مطلق الحرية فى اللهو ولم يتشدد فى محاسبتها على استذكار الدروس التى كان يعطيها له محافظة على المظهر ، ولكنه ابدى اهتماما وعناية كبيرين بنجاح تلميذته فى الموسيقى . وكثيرا ما كان يجلس معها بالساعات الى البيانو . واحب الجميع المدرس الشاب ، احبه كيرىلا بتروفيتش لمهارته وجسارته اثناء الصيد ، واحبته ماريا كيريلوفنا لعنايته الفائقة واهتمامه الخجول ، واحبه ساشا لتسامحه ازاء عبثه ، واحبه اهل الدار لطيبته ولكرمه الذى لم يكن يتناسب على ما يبدو ووضعها المالى . اما هو فقد بدا انه متعلق بالعائلة كلها واعتبر نفسه بالفعل احد افرادها .

ومر حوالى شهر منذ حمله لقب المدرس حتى ذلك

الاحتفال المشهور ، ولم يدرك بخلد احد انه في ذلك الشاب الفرنسي المتواضع كان يكمن قاطع طريق رهيب ، يلقي اسمه بالفزع في قلوب جميع الملاك المحليين . وطوال هذا الوقت لم يفادر دوبروفسكى ضيعة بكروفسكويه ، غير ان الشائعات عن حوادث سطوه لم تنقطع بفضل خيال اهالي القرى الخصب ، وفضلا عن ذلك فمن الجائز ان تكون عصابته قد واصلت نشاطها في غياب القائد .

وعندما بات دوبروفسكى في غرفة واحدة مع شخص كان يوسعه اعتباره عدوه الشخصى واحد المتسببين الرئيسيين في مأساته ، لم يستطع مقاومة الاغراء ، فقد كان على علم بوجود الحقيبة ، وقرر ان يستولى عليها . وقد رأينا كيف اذهل انطون بافنوتيتش المسكين بتحوله المفاجىء من مدرس الى قاطع طريق .

في الساعة التاسعة صباحا توافد الضيوف الذين قضوا ليلتهم في بكروفسكويه الواحد تلو الآخر إلى غرفة الجلوس حيث كانت غلاية الشاي (السماور) تغلي ، بينما جلست امامها ماريا كيريلوفنا في ثوب صباحى . اما كيريلو بتروفيتش فكان يرتدى حلة من الكستور وحذاء منزليا ويشرب الشاي من كوبه الواسع الذى يشبه وعاء الفسيل . وكان انطون بافنوتيتش آخر من وصل . كان شاحبا للغاية ، وبدا حزينا حتى ان مظهره اذهل الجميع ودفع كيريلو بتروفيتش الى السؤال عن صحته . واجاب سببتيسين اجابة لا معنى لها ، واسترق النظر برعب إلى المدرس الذى كان يجلس هنا وكان لم يحدث شئ . وبعد عدة دقائق دخل الخادم واعلن ان

عربة سبيتسين معدة ، فاسرع انطون بافنوتيتش ينحنى مودعا ، وبالرغم من الحاح رب الدار عليه بالبقاء غادر الغرفة على عجل ورحل من فوره . ولم يفهم احد ماذا حدث له ، وقرر كيريل بتروفيتش انه افرط في الاكل . وبعد الشاي وافطار الوداع بدا الضيوف يرحلون ، وسرعان ما اصبحت بكروفسكويه خاوية ، وعاد كل شئ الى ما كان عليه .

الفصل الثاني عشر

مرت عدة ايام ولم يحدث ما يلفت النظر في حياة سكان بكروفسكويه الرتيبة ، فكان كيريل بتروفيتش يخرج كل يوم للصيد ، اما ماريا كيريلوفنا فشغلت وقتها بالقراءة والترييض ، وبدروس الموسيقى بصفة خاصة . لقد بدأت تفهم قلبها ، واعترفت - بضيق لا ارادى - ان هذا القلب لم يعد يشعر باللامبالاة نحو فضائل الفرنسى الشاب ، الذى لم يتعد من جانبه ، حدود الاحترام والادب الشديد ، مما طمان كرامتها وشكوكها وخوفها ، فاستسلمت بثقة متزايدة لهذه العادة الجذابة . كانت في غياب ديفورج تستوحش له ، وفي حضوره تنشغل به طوال الوقت ، وتحاول معرفة رايه في كل شئ ، ودائما تتفق معه . ربما لم تكن قد وقعت في غرامه بعد ، ولكن لهيب العاطفة كان مستعدا لان يتأجج في قلبها لدى اول عقبة تصادفها او اول مفاجاة يخبئها لها القدر .

وذات مرة ، عندما دخلت ماريا كيريلوفنا القاعة حيث كان المدرس بانتظارها ، لاحظت بدهشة الحيرة على

وجهه الشاحب . وفتحت البيانو وغنت بعض الالغان ، ولكن دوبروفسكى اعتذر بحجة صداع اصابه فقطع الدرس واغلق النوتة الموسيقية ، ودس في يدها خلسة ورقة مكتوبة . وقبل ان تفيق ماريا كيريلوفنا من المفاجأة تناولتها منه وفي نفس اللحظة ندمت على ذلك ، غير ان دوبروفسكى كان قد اختفى من الصالة . وذهبت ماريا كيريلوفنا الى غرفتها وفتحت الورقة فقرات التالى : «تعالى اليوم فى الساعة السابعة الى العريش عند الجدول ، من الضرورى ان اتحدث معك» .

وثار فضولها بشدة . لقد كانت تنتظر منه اعترافا بالحب منذ مدة طويلة ، وتتمناه وفى نفس الوقت تخشاه . كان يسرها ان تسمع تأكيدا لظنونها ، ولكنها احست انه لن يكون من اللائق سماع مثل هذا الاعتراف من شخص لا يسمح له وضعه ان يأمل ابدا فى الزواج منها . وقررت ان تذهب للموعد ، غير انها ترددت امام شىء واحد : كيف ينبغى عليها ان تتقبل اعتراف المدرس : بفضب ارستقراطى ، ام بوعد بالصداقة ، ام بمزاح مرح ، ام بعطف صامت . وفى هذه الاثناء كانت تتطلع الى الساعة كل لحظة . ثم حل الظلام فاوقدت الشموع ، وجلس كيرىلا بتروفيتش يلعب البوستون مع ضيوفه من الجيران . ودقت الساعة فى غرفة الطعام معلنة السابعة الا ربعا ، فخرجت ماريا كيريلوفنا بهدوء الى السلامك وتلفتت حولها فى جميع الجهات ، ثم ركضت الى الحديقة .

كانت الليلة مظلمة ، والسماء مملعة بالضيوم ، ولا يمكنك رؤية شىء على بعد خطوتين . لكن ماريا كيريلوفنا

سارت في الظلمة على الدروب المعروفة ، وبعد دقيقة وصلت الى العريش . وهناك توقفت لتلتقط انفاسها وتقابل ديفورج بمظهر اللامبالاة والثاني ، بيد ان ديفورج كان امامها بالفعل .

- اشكرك - قال بصوت هادي حزين - على عدم رفضك لرجائي . لو لم توافق لتملكني الياس .

واجابت ماريا كيريلوفنا بعبارة اعدتها من قبل :

- آمل الا تجعلني اندم على تسامحي .

وصمت دوبروفسكي وبدا وكأنه يللمم اطراف شجاعته واخيرا قال :

- الظروف تقتضي . . . يجب ان اتركك . . ربما تسمعين عما قريب . . . ولكن قبل الفراق اريد ان ابوح لك بسر . .

ولم تجب ماريا كيريلوفنا . لقد رات في هذه الكلمات مقدمة للاعتراف المنتظر .

وواصل دوبروفسكي مطاطي الراس :

- انني لست ما تظنين ، لست الفرنسي ديفورج . انا دوبروفسكي .

وندت عن ماريا كيريلوفنا صرخة .

- لا تخافي ارجوك ، لا يجب ان تخافي من اسمي . نعم انني ذلك التعميس الذي حرمه والدك كسرة الخبز وطرده من بيت ابيه ودفعه الى نهب المسافرين في الطرق . ولكن لا داعي للخوف مني على نفسك او عليه . لقد انتهى كل شيء . سامحته . اسمعي ، انت التي انتقدته . . فقد قدر له ان يكون ضحية اول مائة دموية اقوم بها . . كنت اسير بجوار منزله محمدا من اين

سأبدأ الحريق ، ومن اين ادخل غرفة نومه وكيف اسد عليه جميع سبل الهرب . وفي تلك اللحظة مررت انت بجوارى كطيف سماوى ، فاطمان قلبى وادركت ان المنزل الذى تعيشين فيه مقدس ، وان اى إنسان تربطه بك روابط الدم لا يمكن ان تحل به لعنتى . عدلت عن الانتقام باعتباره جنونا . واخذت اطوف اياما كاملة بجوار حدائق بروففسكويه آملا ان ارى على البعد ثوبك الابيض ، وراقبتك فى جولاتك الجريئة متلصصا من خميلة الى خميلة سعيدا لفكرة انى احميك ، وانه لا خطر عليك فى المكان الذى اوجد انا فيه سرا . واخيرا سنحت الفرصة فكنت فى منزلكم . لقد كانت هذه الاسبوع الثلاثة بالنسبة لى اسعد ايامى ، وستكون ذكراها سلوى حياتى الحزينة واليوم تلقيت نبا يجعل بقائى هنا بعد الآن مستحيلا اننى افارقك اليوم الآن ولكن رايت من واجبى قبل ذلك ان اكشف لك عن نفسى كيلا تلعنينى وتحقرينى . تذكرى دوبروفسكى احيانا ، واعرفى انه ولد لحياة غير هذه ، وان قلبه عرف كيف يحبك ، وانه ابدا لن وهنا تردد صفير ضعيف فصمت دوبروفسكى ثم تناول يدها وضمها الى شفثيه الملتهبتين . وتكرر الصفير .

قال دوبروفسكى :

- اعذرينى ، إنهم يدعوننى ، ودقيقة تأخير قد تقضى على
وابتعد ، وظلت ماريما كيريلوفنا واقفة بلا حراك ، فعاد دوبروفسكى مرة ثانية وامسك بيدها .

- لو مسك في اى وقت سوء - قال لها بصوت رقيق مؤثر - ، لو مسك في اى وقت سوء ولم تتوقى من احد معونة او حماية ، فهل تعديننى في هذه الحالة ان تلجأى الى وتطلبى منى كل ما تريدين من اجل انقاذك ؟ هل تعديننى الا ترفضى اخلاصى ؟

وبكت ماريا كيريلوفنا في صمت . وتكرر الصفير للمرة الثالثة فصرخ دوبروفسكى :

- إنك تقضين على ! لن اتركك الا اذا اجبتنى . . هل تعديننى ام لا ؟

- اعدك ! - همست الحسناء المسكينة .

وعادت ماريا كيريلوفنا من العديقة وقد هزها لقاء دوبروفسكى . وخيل اليها ان الناس في هرج ومرج ، فقد كان المنزل يضحج بالحركة ، وتجمع في الفناء خلق كثير ووقفت بجوار السلامك عربية ، وعلى البعد سمعت صوت كيرىلا بتروفيتش فسارعت بدخول المنزل خشية ان يلحظوا تغيبها . وقابلها في الصالة كيرىلا بتروفيتش ، وكان الضيوف يحيطون برئيس الشرطة الذى تعرفنا عليه من قبل ويمطرونه بالاسئلة . كان مرتديا لباس سفر ومسلحا من قمة راسه حتى اخصم القدم ، واجاب على الاسئلة متخذاً سيماء الضموض والعجلة .

وسأل كيرىلا بتروفيتش :

- اين كنت يا ماشا ؟ الم تقابلى مسيو ديفورج ؟ وبصعوبة استطاعت ماشا ان تجيب بالنفى .

فواصل كيرىلا بتروفيتش قائلاً :

- تصورى . . لقد جاء الضابط للقبض عليه
مؤكد انه هو دوبروفسكى بعينه .

فقال الضابط باحترام :

- بكل اوصافه يا صاحب المعالى .

فقاطعه كيرىلا بتروفيتش :

- ايه يا اخى . . اذهب باوصافك هذه الى . . .

لن اسلمك رجلى الفرنسى حتى احقق فى الامر بنفسى .

كيف يمكن تصديق كلام انطون بافوتيتش ، هذا

الجبان الكذاب ؟ لقد خيل اليه ان المدرس اراد نهبه .

ولماذا لم يقل لى كلمة واحدة عن هذا فى ذلك الصباح ؟

اجاب الضابط :

- لقد ارهبه الفرنسى يا صاحب المعالى . . .

وانزع منه قسما بالصمت . . .

- كذب - قرر كيرىلا بتروفيتش - ساكشف الآن

كل شىء . . . اين المدرس ؟ - سال كيرىلا بتروفيتش

الخدام الداخل .

- لا نستطيع ان نجده فى اى مكان - اجاب

الخدام .

فصرخ ترويكورف وقد بدأ يراوده الشك :

- ابحثوا عنه . . . ارنى ما لديك من الأوصاف

الرائعة - قال للرئيس الذى قدم له الورقة فى الحال .

- احم . . احم . . ثلاثة وعشرون عاما . . هو

كذلك فعلا ، ولكن هذا لا يثبت شيئا . . ماذا عن

المدرس ؟

- غير موجود ، - جاءته الاجابة .

وبدا كيرىلا بتروفيتش يقلق ، اما ماريلا كيريلوفنا
فكانت بين الحياة والموت .
وقال والدها ملاحظا :

- انك شاحبة يا ماشا . لقد افزعوك .
فردت ماشا :

- كلا يا بابا . . مجرد صداع .

- اذهبى يا ماشا الى غرفتك ولا تقلقى .

فقبلت ماشا يده واسرعت الى غرفتها فارتمت على
الفرش وانفجرت فى بكاء هستيرى . وهبت إليها
خادوماتها فنزعن عنها ثيابها ، وبجهد جهيد هدأنها
بالماء البارد وشتى المنبهات ، ثم مددنها على الفرش
فغابت فى النوم .

وطوال هذا الوقت لم يعثروا على الفرنسى فاخذ
كيرىلا بتروفيتش يسير فى الصالة جيئة وذهابا وهو
يصفر بغضب لحن : «زمجى يا رعد النصر» . وتهامس
الضيوف فيما بينهم ، واسقط فى يد الرئيس اذ لم
يجدوا الفرنسى . وربما يكون قد تمكن من الهرب بعد
ان حذره شخص ما ، ولكن من الذى حذره ، وكيف ؟
ظل هذا لغزا .

كانت الساعة قد بلغت العادية عشرة ولم يفكر
احد فى النوم . واخيرا قال كيرىلا بتروفيتش للضابط
بغضب :

- ماذا إذن ؟ ليس من المعقول ان تبقى هنا حتى
الصباح . ان دارى ليست «تكية» ، وليس بمثل
مهارتك يا اخى ان تقبض على دوبروفسكى ، اذا كان هذا
دوبروفسكى حقا . عد من حيث اتيت ، وفى المرة القادمة

كن اكثر همة . ثم قال مخاطبا الضيوف : - وانتم
ايضا آن لكم ان تنصرفوا . هيا دعوا الخدم يجهزون
العربات ، اما انا فاريد ان انام .
بمثل هذا الجفاء ودع ترويكورف ضيوفه !

الفصل الثالث عشر

مر بعض الوقت دون ان يحدث شيء هام ولكن في
بداية الصيف التالى حدثت تغيرات كثيرة في حياة كيريل
بتروفيتش العائلية .

على بعد ثلاثين فرسخا منه كانت تقع ضيعة غنية
يملكها الامير فير ينسكى . وعاش هذا الامير مدة طويلة
في الخارج وكان يدير شؤون ضيعة راند متقاعد ، ولم
تنشأ اية علاقة بين ضيعتى بكروفسكويه وارباتوفو .
لكن الامير عاد من الخارج في نهاية شهر مايو وجاء الى
قريته التى لم يرها طوال حياته . ولما كان متعودا على
الاختلاط فقد ضاق بالوحدة ، وفي اليوم الثالث لوصوله
رحل لتناول الغداء عند ترويكورف الذى كان قد تعرف
عليه منذ امد بعيد فيما مضى .

كان الامير فى حوالى الخمسين من عمره ، ولكنه
بدا اكبر من ذلك بكثير ، فقد اضعفت مختلف ضروب
الافراط صحته وخلفت فيه آثارها التى لا تمحى .
وبالرغم من ذلك كان مظهره لطيفا ، رائعا ، كما
اكسبه تعوده على الحياة دائما فى المجتمع بعض اللطف ،
وخاصة مع النساء . كان يشعر بحاجة دائمة الى الاختلاط
ويضجر باستمرار . وسر كيريل بتروفيتش بزيارته

للفاية معتبرا اياها دليل احترام من شخص خبر المجتمع
 الارستقراطي . وكعاداته اخذ يضيفه بعرض مؤسساته
 عليه ، فقاده الى حظائر الكلاب ، ولكن الامير كاد
 يخنق من رائحتها واسرع خارجا وهو يضع على انفه
 منديلا مضمخا بالعطور ، كذلك لم تعجبه الحديقة
 العتيقة بأشجار الزيزفون المقصوصة والبركة المستطيلة
 والممرات المنتظمة ، فقد كان يحب الحدائق الانجليزية
 وما يدعى بالطبيعة . وبالرغم من ذلك اثنى على ما
 شاهده وابدى اعجابه به . ثم جاء الخادم ليعلن
 ان المائدة معدة ، فعادوا لتناول الغداء . وسار الامير
 وهو يعرج متعبا من النزهة ونادما على هذه الزيارة .
 ولكن ماريا كيريلوفنا قابلتهما في الصالة فصعق
 زير النساء العجوز لجمالها . واجلسه ترويكورف
 بجوارها فانتمش الامير لوجودها وصار مرحا ،
 واستطاع جذب اهتمامها عدة مرات بحكاياته الشيقة .
 وبعد الغداء اقترح عليه كيريل بتروفيتش نزهة على
 ظهور الجياد ، ولكن الامير اعتذر مشيرا الى حدائه
 العالي المصنوع من القטיפه وساخرا من مرض النقرس ،
 وفضل النزهة في العربة حتى لا يفترق عن جارته الرقيقة .
 فاعدت العربة ، وجلس العجوزان والحسناء ثم انطلقوا .
 ولم ينقطع حبل الحديث ، وكانت ماريا كيريلوفنا تصفي
 باستمتاع الى تعيات رجل المجتمع المرحه والمتملقة ،
 عندما تحول هذا فجأة نحو كيريل بتروفيتش وساله
 عن ذلك المبنى المحترق وهل هو ملكه ؟ وتجهم كيريل
 بتروفيتش فقد كانت الذكريات التي اثارتها هذه الضيعة
 المحترقة بغيضة الى نفسه . واجاب بان الضيعة اصبحت

ملكه الآن ولكنها كانت من قبل ملكا لدوبروفسكى .
- دوبروفسكى . . . - ردد فيريسكى - كيف ؟
ملك لهذا الشقى المعروف ؟
فاجاب ترويكوروف :
- لاييه . . . وحتى ابوه كان ايضا شقيا بما فيه
الكفاية .

- واين بطلنا رينالدو هذا ، هل هو على قيد
الحياة ؟ وهل قبض عليه ؟
- على قيد الحياة ومطلق السراح ، ولن يقبض
عليه ما دام رؤساء الشرطة عندنا شركاء للصوص .
وبالمناسبة ايها الامير ، لقد سطا دوبروفسكى على
ضيقتك اربا توفرف ، اليس كذلك ؟

- بلى ، فى العام الماضى ، ويبدو انه احرق او
نهب شيئا ما . اليس من الطريف يا ماريا كيريلوفنا
ان يتعرف المرء بهذا البطل الرومانسى عن قرب ؟
- اى طرافة فى ذلك ! - قال ترويكوروف - لقد
تعرفت به ، وظل يعلمها الموسيقى ثلاثة اسابيع
كاملة ، والحمد لله ، لم ياخذ شيئا لقاء الدروس .

وهنا اخذ كيرىلا بتروفيتش يحكى قصة مدرسة
الفرنسى ، وجلست ماريا كيريلوفنا على احر من الجمر ،
واصغى فيريسكى باهتمام كبير ، واعتبر كل ذلك غريبا
للغاية فغير موضوع الحديث . وعندما عادوا امر باعداد
عربته ورحل بعد تناول الشاى مباشرة بالرغم من
إلحاح كيرىلا بتروفيتش عليه بالمبيت . وقبل رحيله
دعا كيرىلا بتروفيتش وماريا كيريلوفنا لزيارته ،
فوعده ترويكوروف الفخور بالمجيء ، لانه اعتبر الامير

فيريسكى ندا له الى حد ما ، آخذا بعين الاعتبار لقب الامارة والوسامين والثلاثة آلاف نفس التي يمتلكها الامير .

وبعد يومين من زيارة الامير فيريسكى توجه كيرىلا بتروفيتش مع ابنته لزيارته . ولم يستطع وهم يقتربون من ضيعة ارباتوفو الا ان يملى ناظره من منازل الفلاحين النظيفة البهيجة ومنزل السيد الحجرى المشيد على طراز القصور الانجليزية . وامام المنزل امتد مرج كثيف الخضرة كانت ترعى فيه ابقار سويسرية بينما تصلصل اجراسها الصغيرة . واحاطت بالمنزل من جميع الجهات حديقة واسعة . وقابل السيد ضيوفه على السلامك وقدم ذراعه لتعتمد عليها الحسناء الشابة . ثم دلفوا الى صالة رائعة مدت فيها مائدة لثلاثة اشخاص . وقاد المضيف ضيوفه الى النافذة فشاهدوا منها منظرا خلابا . كان نهر الفولجا يجرى امام النوافذ وسارت فيه صنادل محملة تملأ الريح اشرعتها ، ولاحت قوارب الصيادين التي اطلقوا عليها اسما جد معبر : «مهلكة الارواح» . وخلف النهر امتدت التلال والحقول ، وبعثت عدة قرى الحياة فى المكان . وبعد ذلك اخذوا يستعرضون مجموعات الصور التي اشترها الامير فى الخارج . وشرح الامير لماريا كيريلوفنا مضامينها المختلفة وتاريخ الفنانين الذين رسموها مشيرا الى ميزاتهم وعيوبهم . كان يتحدث عن الصور لا بلسان المتحلقين المعروف بل بعاطفة وخيال فاصغت اليه ماريا كيريلوفنا باستمتاع . ثم جلسوا الى المائدة ، فائى كيرىلا بتروفيتش على خمور صاحبه ومهارة

طاهيه ، اما ماريا كيريلوفنا فلم تشعر بأى حرج او تكلف فى الحديث مع شخص كانت تراه للمرة الثانية فقط . وبعد الغداء اقترح المضيف على ضيوفه ان يذهبوا الى الحديقة . وهناك تناولوا القهوة فى عريش على شاطئ بحيرة واسعة تزدهم بالجزر . وفجأة صدحت موسيقى صادرة عن آلات نفخ ، ورسا قارب ذو ستة مجاذيف بجوار العريش مباشرة فاستقلوه ، وسبح بهم فى البحيرة بجوار الجزر ، فنزلوا فى بعضها . ووجدوا فى احداها تمثالا من الرمر ، وفى جزيرة اخرى مغارة منعزلة ، وفى الجزيرة الثالثة نصبا عليه نقش غريب ، اثار فى ماريا كيريلوفنا فضول العذارى الذى لم تشبعه تماما تلميحات الامير الوقورة . ومر الوقت بسرعة وبدا الضمق يهبط ، فتعلل الامير بالبرودة والندى واسرع عائدا بهم الى المنزل حيث كانت غلاية الشاى بانتظارهم . وطلب الامير من ماريا كيريلوفنا ان تقوم بدور ربة البيت فى دار الاعزب العجوز ، فصبت الشاى وهى تصفى الى قصص الثرثار الودود التى لا تنفد . فجأة دوى طلق نارى واضاء السماء صاروخ ، فقدم الامير شالا لماريا كيريلوفنا ودعاها هى وترويكورف الى الشرفة . وامام المنزل اندلعت فى الظلام اضواء متعددة الالوان كانت تدور ثم تصعد الى اعلى بهيئة سنابل ونخيل وناقورات ثم تسقط كالمطر والنجوم وتنطفى لتندلع من جديد . وابتهجت ماريا كيريلوفنا كالطفل . وسر الامير فيريسكى لاجابها ، اما ترويكورف فكان فى غاية الرضى عنه لانه اعتبر

tous les frais • الأمير دليلا على احترامه له ومحاولته
خطب وده .

ولم يكن العشاء اقل بذخا من الغداء . ثم توجه
الضيوف بعده الى الغرف المخصصة لهم ، وفي الصباح
ودعوا المضيف الفاضل وقد تواعدوا على ان يروا بعضهم
البعض قريبا .

الفصل الرابع عشر

جلست ماريا كيريلوفنا في غرفتها امام النافذة
المفتوحة تطرز بواسطة اطواق التطريز . ولم تخلط
بين الوان الحرير كما فعلت حبيبة «كونراد» • • عندما
طرزت الوردة بحريير اخضر وقد شنت الحب ذهنها .
لقد كانت الابدرة في يدها تكرر دون خطأ نفس الخطوط
المرسومة في الاصل ، وبالرغم من ذلك لم تكن افكارها
تتابع عملها هذا ، بل حلت في مكان بعيد .

وفجأة امتدت يد الى النافذة بهدوء ، ووضع
صاحبها رسالة فوق اطواق التطريز ، ثم اختفى قبل ان
تفيق ماريا كيريلوفنا من المفاجأة . وفي هذه اللحظة
بالذات دخل الخادم غرفتها ودعاها الى كيريلو بتروفيتش .
فخبأت الرسالة باضطراب خلف منديل راسها واسرعت
لمقابلة ابيها في مكتبه .

• كل نفقات .

• • وكونراد فالينرود ، قصيدة للشاعر البولوني آدم
ميتسكيفيتش (١٧٩٨-١٨٥٥) . وكانت بطلة القصيدة قد
طرزت الوردة بالحريير الاخضر والاوراق بالاحمر لان الفراق عن
حبيبها جعلها تشعر بالحنين وشتت ذهنها .

لم يكن كيرىلا بتروفيتش بمفرده ، بل كان معه الامير فيريسكى . وعندما دخلت ماريا كيريلوفنا وقف الامير ، وانحنى لها بصمت واضطراب غير عادى بالنسبة له .

وقال كيرىلا بتروفيتش :

- تعالى هنا يا ماشا . . سازفَ اليك نبا أمل ان يسعدك . ها هو عريسك . . لقد تقدم الامير لخطبتك .

وجمدت ماشا واكتسى وجهها بصفرة الاموات . ووقفت صامته . واقترب منها الامير فأمسك بيدها وسالها بنبرة تنم عن التأثر هل توافق على ان تسعده . وصمتت ماشا .

فقال كيرىلا بتروفيتش :

- انها موافقة ، طبعاً موافقة ، ولكن اتدرى ايها الامير ، يصعب على الفتاة ان تتفوه بهذه الكلمة . . هيا يا اولاد ، تبادلوا القبلات ، ولتنعما بالسعادة . ووقفت ماشا جامدة ، وقبل الامير العجوز يدها ، وفجأة انهمرت الدموع على خديها الشاحبين ، فتجهم الامير قليلاً .

قال كيرىلا بتروفيتش :

- هيا ، هيا ، اذهبى وجففى دموعك ، وعودى إلينا مرحة . - ثم قال مخاطباً الامير : - كلهن يبكين عند الخطبة . . تلك عاداتهن . . والآن ، فلنتحدث عن المهم يا امير . . اعنى عن البائنة * .

* البائنة هي والدوطة ، التى تقدمها العروس .
(المترجم .)

واسرعت ماريا كيريلوفنا تستغل الاذن بالانصراف ،
 فهرولت الى حجرتها ، واغلقت عليها الباب ، واطلقت
 لدموعها العنان . وعندما تخيلت نفسها زوجة للامير
 العجوز ، بدا لها منغرا وبغيضا . وافزعها الزواج وكأنه
 مقصلة او قبر . « كلا ، كلا - رددت وقد غلبها الياس -
 من الافضل ان اموت ، او اهب نفسى للدير ، او اتزوج
 من دوبروفسكى » . وهنا تذكرت تلك الرسالة فبدات
 تقرأها بنهم ، وهى تحدىس انها منه . وفعلا كانت رسالة
 منه ، لم تتضمن غير الكلمات التالية :
 « فى العاشرة مساء ، فى نفس المكان » .

الفصل الخامس عشر

تألق القمر - فقد كانت ليلة هادئة من ليالى شهر
 يوليو - واحيانا كانت تهب الريح ، فيتردد حفيف رقيق
 فى الحديقة كلها .
 وكطيف رقيق اقتربت الحسناء الشابة من مكان
 الموعد المضروب ، ولم يكن هناك احد بعد ، وفجأة ظهر
 امامها دوبروفسكى من خلف العريش .
 وقال لها بصوت هادى حزين :
 - اننى اعرف كل شىء . تذكرى وعدك لى .
 فأجابت ماشا :
 - انت تعرض علىء الحماية ، ولكن لا تغضب ،
 انها تفرعنى ، كيف يمكنك ان تقدم لى المعونة ؟
 - بوسعى ان اخلصك من الرجل البغيض .
 - استحلحك بالله الا تمسه ، اياك ان تمسه

بسوء اذا كنت تحبني . لا اريد ان اكون سببا في عمل
فظيح .

- لن امسه ، فرغبتك عندي مقدسة . انه مدين
بحياته لك ، ولن ارتكب باسمك اية جريمة ، اذ يجب
ان تظلي طاهرة لا تلتطخك حتى جرائمى . ولكن كيف
اخلصك من ابيك القاسى ؟

- ما زال هناك امل . ارجو ان اوثر فيه بدموعى
وياسى . انه عنيد ، ولكنه يحبني جدا .

- لا تتعلقى بأمال زائفة ، ففى هذه الدموع لن
يرى ابوك غير الخوف والنفور الطبيعى المميز لكل
الفتيات الشابات عندما يتزوجن لا عن حب ، بل عن
منفعة تملئها الحكمة . فما العمل اذا اصر على بنا ،
سعادتك رغما عنك ودفعك عنوة إلى تسليم مصيرك
الى الابد لسلطان زوج عجوز . . .

- عندئذ ، عندئذ لا مفر . . . تعال خذنى وساصبح
زوجتك .

واضطرب دو بروفسكى ، وغطت وجهه الشاحب
حمرة قانية ، وفى نفس اللحظة عاد اكثر شحوبا
من ذى قبل ، وظل صامتا فترة طويلة ، مطاطا
الراس .

- استجمعى كل قواك الروحية وتوسلى الى ابيك ،
ارتعى على قدميه ، صورى له كل بشاعة المستقبل ،
وشبابك الذى سيدبل مع عجوز منحل داعر . استعدى
لمصارحة قاسية . قولى له انه اذا لم يستجب
فانك . . . فانك ستلجئين الى حماية فظيعة . . . قولى له
ان الثروة لن تجلب لك دقيقة واحدة من السعادة ، وان

البذخ لا يطمئن الا الفقر ، ولا يطمئنه الا للوهلة الاولى
وللحظة واحدة . لا تتركه ، ولا تغشى غضبه او
وعيده . وما دام هناك ولو ظل امل استحلفك بالله لا
تتركه . . . اما اذا لم تبق هناك وسيلة اخرى . . .
وهنا غطى دوبروفسكى وجهه بيديه ، وبدا وكأنه
يختنق . . . وبكت ماشا . . .

وقال بمرارة وهو يشهق :

- يا لحظى التعيس . . . اننى مستعد ان اضحى
بحياتى من اجلك ، وكانت قمة نشوتى ان اراك على
البعد او المس يدك . وعندما لاحت امامى الفرصة لكى
اضمك الى قلبى الخافق واقول : يا ملاكى ، معا حتى
الموت ! - اجد من واجبى - ويالى من يائس - ان
اتجنب النعمة ، اجد لزاما على ان ابعدها عنى بكل
قوى . اننى لا اجرؤ على الارتماء على قدميك لاشكر
السماء على هبتها التى لا استحقتها . اوه ، كم يجب على
ان اكره ذلك الشخص ، ولكنى اشعر انه لم يعد فى
قلبي مكان للكراهية .

واحاط بقدها المشوق بخفة وضمها الى قلبه .
فوضعت راسها بامان على كتف قاطع الطريق الشاب .
وصمت كلاهما .

ومر الوقت بسرعة .

واخيرا قالت ماشا :

- آن لى ان انصرف .

وبدا كما لو ان دوبروفسكى استيقظ من غفوة . ثم
تناول يدها ووضع فى إصبعها خاتما وقال :
- اذا قررت اللجوء إلى مساعدتى ، فاحمل هذا

الخاتم الى هنا ، وضعيه في تجويف شجرة البلوط هذه ،
وساعتها ساعرف ماذا ينبغي ان افعل .
وقبل دوبروفسكى يدها واختفى بين الاشجار .

الفصل السادس عشر

لم تعد خطبة الامير فير ينسكى لماشيا سرا بالنسبة
للجيران ، فانهاالت التهاني على كيرىلا بتروفيتش ، بينما
كان يجرى الاستعداد للعرس . وكانت ماشيا تؤجل
قرارها الحاسم من يوم الى آخر . وفي الوقت نفسه كانت
معاملتها للعريس العجوز باردة ومتكلفة . ولم يهتم
الامير بذلك ، فلم يكن يطمح في حبها ، بل كان قانعا
بموافقتها الصامتة .

غير ان الوقت كان يمر ، فقررت ماشيا اخيرا ان
تتحرك ، فكتبت رسالة للامير فير ينسكى . وحاولت ان
تثير فيه الحروءة ، واعترفت له بصراحة انها لا تشعر
بأى ميل نحوه ، وتوسلت اليه ان يعدل عن طلب يدها
بل ويحميها من سلطان ابيها . ودست الرسالة سرا في
يد الامير فيريسكى ، فقراها عندما خلا الى نفسه ولم
تؤثر فيه مطلقا صراحة عروسه ، على العكس ، لقد
ارتأى ضرورة الاسراع بالزفاف ولهذا اعتبر من المفيد
ان يطلع حماه المقبل على الرسالة .

وجن جنون كيرىلا بتروفيتش ، وبعد لاي تمكن
الامير من اقناعه بالألا يظهر لماشيا علمه بأمر الرسالة
فوافق كيرىلا بتروفيتش على ذلك ، ولكنه قرر الا

يضيع الوقت وحدد اليوم التالي مباشرة موعدا للزفاف .
واعتبر الامير هذا القرار جد حكيم ، فذهب إلى عروسه
واخبرها أن رسالتها احزنته كثيرا ، ولكنه يأمل ان
يكسب ميلها بمرور الزمن ، وان فكرة فقدانها شديدة
الوقوع عليه ، وليس في إمكانه ان يوافق على مثل هذا
الحكم باعدامه . وبعد ذلك لثم يدها في وقار ، ثم رحل
دون ان يقول لها كلمة واحدة عن قرار كيريل
بتروفيتش .

وما كاد يرحل عن المنزل حتى دخل اليها والدها
وامرها دون مقدمات ان تكون مستعدة غدا . وكانت
ماريا كيريلوفنا مضطربة بعد حديث الامير فيريسكي ،
فانخرطت في البكاء ، وارتمت على قدمي والدها ، وصرخت
بصوت ضارع :

- بابا ، بابا ، لا تقض عليّ ، انا لا احب الامير ،
لا اريد ان اكون زوجة له .

فقال كيريل بتروفيتش مهددا :

- ما معنى هذا ؟ لقد كنت حتى الآن موافقة ولا
تتكلمين ، والآن ، عندما تقرر كل شيء ، عننت لك هذه
النزوة وهذا الرفض . دعيك من هذه الحماقة فلن يجدي
هذا معي .

- لا تقض عليّ - رددت ماشا المسكينة - لماذا
تطردني بعيدا عنك وتسلمني لشخص لا احبه ، هل
مللتني ؟ اريد ان ابقى معك كما كنا . بابا ، ستشعر
بالحزن بدوني ، وستحزن اكثر عندما تفكر بانسي
تعيسة . بابا ، لا تكهني على الزواج ، فانا لا
اريد . . .

وتأثر كيرىلا بتروفيتش ، لكنه اخفى اضطرابه ،
ودفعها عنه قائلا بصرامة :

- كل هذا هراء ، اتسمعين ؟ انا اعرف احسن منك
ما هو المطلوب لسعادتك ، لن تنفك الدموع ، زفافك
بعد غد .

فصرخت ماشا :

- بعد غد ، يا الهى ! كلا ، كلا ، مستحيل ،
هذا لن يكون . اسمع يا بابا . . اذا كنت قد قررت
القضاء على ، فسوف الجأ لحماية شخص لا يخطر لك
ببال ، سوف ترى ، وسيصيبك الفزع عندما تعرف إلى
اى حد دفعتنى . .

- ماذا ، ماذا ؟ - قال ترويكورف - اتهدديننى ؟
يا لك من بنت جسورة ! اتدريين اننى سأصنع بك ما
لا تتصورين ؟ اتجروؤين على ارهابى بشخص يحميك ؟
سنرى من يكون هذا الحامى !

فاجابت ماشا وقد غلبها اليأس :

- انه فلاديمير دوبروفسكى .

وظن كيرىلا بتروفيتش انها جننت ، ونظر اليها
مصعوقا .

ثم قال بعد فترة من الصمت :

- حسنا ، انتظرى ما شئت من مخلصين ، ولكنك
ستبقين فى هذه الغرفة ، ولن تخرجى منها الا يوم
الزفاف .

وبعد ان قال كيرىلا بتروفيتش هذه الكلمات خرج ،
واغلق خلفه الباب .

وبكت الفتاة المسكينـة طويلا وهى تتخيل ما

ينتظرها ، غير ان هذه المصارحة العنيفة هدات من روعها ، فاصبح بوسمها ان تفكر بهدوء اكثر في مستقبلها وفيما ينبض عليها ان تفعله . كان اهم شي . عندها ان تتخلص من هذا الزواج البغيض . وبدا لها ان مصيرها كزوجة قاطع طريق جنة اذا ما قيس بما اعده لها القدر . ونظرت الى الخاتم الذي اعطاه لها دوبروفسكى . وتملكتها رغبة عارمة في رؤيته على انفراد لتستشيريه طويلا مرة اخرى قبل اللحظة الحاسمة . وراودها شعور داخلي بانها ستجد دوبروفسكى مساء في الحديقة قرب العريش ، فقررت ان تذهب الى هناك بعد حلول الظلام وتنتظره . وحل الظلام فاستعدت ماشا ، لكن باب غرفتها كان مقفلا بالمفتاح ، واخبرتها الخادمة عبر الباب ان كيريل بتروفيتش امرهم بعدم السماح لها بالخروج . لقد كانت معتقلة . وجلست الى النافذة ، وقد شعرت باهانة عميقة ، ولم تخلع ملابسها الى وقت متأخر وظلت تحديق جامدة في السماء المظلمة . واغفت عند الفجر ، غير ان الاحلام الحزينة اقلقت نومها الخفيف ، ثم ايقظتها اشعة الشمس المشرقة .

الفصل السابع عشر

وعندما استيقظت ، كان اول ما خطر على ذهنها هو فظاعة الوضع الذي وجدت نفسها فيه . ودقت الجرس فدخلت خادمتها وردت على اسئلتها ، قائلة ان كيريل بتروفيتش ذهب الى ارباتوفو مساء وعاد في ساعة متأخرة ، واعطى اوامر مشددة بعدم السماح لها بالخروج

من الغرفة او الاتصال باى انسان ، كما ذكرت انها لم تلحظ اية استعدادات معينة لحفل الزفاف ، سوى الامر الذى صدر الى القس بعدم مغادرة الضيعة لاي سبب من الاسباب . وبعد هذه الانباء انصرفت الخادمة عن ماريا كيريلوفنا واوصدت خلفها الباب من جديد .

لكن كلماتها اثارت السجينة الشابة فكاد رأسها ينفجر واخذ دمها يفور ، وقررت ان تحيط دوبروفسكى علما بالامر كله ، وراحت تبحث عن وسيلة لوضع الخاتم فى تجويف شجرة البلوط المنشودة . وفى هذه اللحظة ارتطمت حصوة بنافذتها ورن الزجاج ، فنظرت ماريا كيريلوفنا إلى الغناء ورات ساشا الصغير وهو يوجه لها إشارات سرية ، ففتحت النافذة وقالت :

- كيف حالك يا ساشا ؟ لماذا تدعوني ؟
- لقد جئت يا اختى لاعرف إن كنت بحاجة الى شىء . ان ابانا غاضب ، وقد منع الجميع من الاتصال بك ، ولكن اطلبى منى اى شىء ، وسافعله من اجلك .
- شكرا يا ساشا العزيز . . اسمع . . هل تعرف شجرة البلوط ذات التجويف والتي بجوار العريش ؟
- اعرفها يا اختى .

- حسنا ، اذا كنت تحبنى اسرع الى هناك وضع فى التجويف هذا الخاتم ، واحذر ان يراك احد .
ثم القت اليه بالخاتم واغلقت النافذة .

والتقط الصبى الخاتم وانطلق يعدو بكل قواه ، فوصل الى الشجرة المطلوبة فى ثلاث دقائق . وهناك توقف وهو يلهث ، ثم تلفت حوله ، وبعد ذلك وضع الخاتم فى التجويف . وبعد تأدية المهمة بنجاح اراد ان

يبلغ ماريا كيريلوفنا بذلك في الحال ، غير انه ظهر
فجأة من خلف العريش صبسى احمر الشعر ، احول
العينين ، ممزق الثياب ، وانقض على الشجرة ، ودس
يده في التجويف ، فاندفع ساشا نحوه بأسرع من
السنباب وامسكه بكلتا يديه .

وقال متوعدا :

- ماذا تفعل هنا ؟

- وما دخلك انت ؟ - اجاب الصبي وهو يحاول

التخلص منه .

فصرخ ساشا :

- دع هذا الخاتم ايها الارنب الاحمر ، والا اعطيتك

درسا لن تنساه .

وبدلا من الاجابة سدده اليه الصبي لكمة في وجهه ،

لكن ساشا لم يدعه يفلت ، وصرخ بأعلى صوته :

- حرامى ، حرامى . . . اسرعوا . . اسرعوا . .

وحاول الصبي ان يتخلص منه ، وكان فيما يبدو

اكبر من ساشا بعامين وااقوى منه بكثير ، لكن ساشا

كان امهر منه .

وتصارعا بضع دقائق ، ثم تغلب الصبي عليه في

النهاية ، فطرحه ارضا واطبق بيديه على رقبته .

ولكن في تلك اللحظة امتدت يد قوية ، فامسكت

بشعره الاحمر الخشن ، ورفعه البستاني ستيبان فوق

الارض بنصف ذراع . . .

وقال البستاني :

- آه ، ايها الشيطان الاحمر . . كيف تجرؤ على

ضرب السيد الصغير . . .

واستطاع ساشا ان ينهض ويتأهب من جديد ، ثم قال :

- لقد امسكتنى من تحت ابطى والا لما طرحتنى ابدأ . اعطنى الخاتم واغرب عن هنا .

- مستحيل ! - اجاب الصبى الاحمر ، واستدار فجأة فى مكانه ، فحرر شعره من يد ستيبان .

وانطلق يركض ، لكن ساشا لحق به ودفعه فى ظهره فسقط بشدة . وقبض عليه البستاني مرة اخرى واوقفه بحزامه .

وصرخ ساشا :

- هات الخاتم !

- انتظر يا سيدى - قال ستيبان - فلناخذه الى الوكيل ليعاقبه .

وقاد البستاني اسيره الى فناء منزل السيد ، وصاحبه ساشا وهو ينظر بقلق الى سرواله الذى تمزق ولوثة العشب . وفجأة وجدوا انفسهم امام كيرىلا بتروفيتش الذى كان ذاهبا لتفقد اصطبله .

ووجه السؤال الى ستيبان :

- ما هذا ؟

وشرح له ستيبان ما حدث فى كلمات قليلة . واصفى اليه كيرىلا بتروفيتش باهتمام . ثم قال مخاطبا ساشا :

- لماذا اشتبكت مع ايها الشقى ؟

- لقد سرق الخاتم من التجويف . . مره' ان يعطينى الخاتم يا بابا .

- اى خاتم ؟ ومن اى تجويف ؟

- خاتم مارييا كيريلوفنا . . . ذلك الخاتم . . .
واضطرب ساشا وارتيك ، وتجهم كيريليا بتروفيتش
وهو يهز رأسه :
- ان لمارييا كيريلوفنا ضلعا في هذا الامر . . .
هيا اعترف بكل شيء ، والا الهبت ظهرك بعود اخضر ،
لن تتعرف بعده حتى على ابويك .
- والله يا بابا ، انا يا بابا . . . مارييا كيريلوفنا
لم تأمرني بشيء يا بابا . . .
- اذهب يا ستيبان واقطع عودا طريا جيدا من
شجرة بتولا .
- انتظر يا بابا ، سأقول كل شيء . كنت اركض
اليوم في الغناء ، وفتحت اختي مارييا كيريلوفنا النافذة
فاقتربت منها ، وعندئذ سقط منها خاتم عفوا ، فأسرعت
اخفيه في التجويف . . . و . . . اراد هذا الصبي الاحمر ان
يسرقه .
- سقط منها عفوا ، ومع ذلك اردت انت ان
تخفيه . . . احضر العود يا ستيبان .
- انتظر يا بابا ، سأحكي كل شيء . لقد طلبت
منى اختي مارييا كيريلوفنا ان اذهب الى شجرة البلوط
واضع الخاتم في التجويف ، فأسرعت الى هناك
ووضعت . . . لكن هذا الصبي الملعون . . .
- والتفت كيريليا بتروفيتش الى الصبي الملعون
وسأله متوعدا :
- صبي من انت ؟
- انا خادم السادة آل دوبروفسكى - اجاب الغلام
الاحمر .

واكفهر وجه كيرىلا بتروفيتش :
- يبدو انك لا تعترف بسيادتي . . حسنا ، وماذا
كنت تفعل في حديقتي ؟
فاجاب الصبى بلامبالاة فائقة :
- كنت اسرق التوت .
فقال كيرىلا بتروفيتش ملاحظا :
- آها . . الخادم كسيده . . المصلون مثل
امامهم . . وهل تطرح اشجار البلوط عندي توتا ؟
ولم ينبس الصبى .
- دعه يا بابا يسلم الخاتم - قال ساشا .
- اسكت يا الكساندر - اجاب كيرىلا
بتروفيتش - لا تنس اننى ساعطيك علقه . اذهب
الآن الى غرفتك . اما انت ايها الاحول فتبدو لى فتى
مجربا . . هات الخاتم وعد الى دارك .
وفتح الصبى قبضته ليظهر له انه لا يخفى شيئا .
- لو اعترفت لى بكل شىء ، فلن اجلدك ، بل
ساعطيك خمس كوبيكات لتشتري بها بندقا ، واذا لم
تعترف فستنال منى شر عقاب . هيا !
ولكن الصبى لم ينبس ببنت شفة وظل واقفا مطاطا
الراس ومتظاهرا بأنه ابله تماما .
فقال كيرىلا بتروفيتش :
- حسنا ، اسجنوه ، واحرصوا الا يهرب ، والا
سلخت جلدكم جميعا .
وقاد ستيبان الصبى إلى برج الحمام ، واغلق عليه
الباب وامر مربية الطيور العجوز اجافيا بحراسته .

وقال كيرىلا بتروفيتش بعسء ان شىء الفلام
بنظراته :

- اذهب حالا الى المدينة واحضر رئيس الشرطة
باسرع ما يمكن .

«ليس هناك شك فى انها على علاقة بدوبروفسكى
الملعون ، ولكن امن المعقول انها استنجدت به حقا ؟ -
فكر كيرىلا بتروفيتش وهو يذرع الغرفة جينة وذهابا
مصفرا بفضب لعن : «زمبر يا رعد النصر» - ربما اكون
قد وقعت اخيرا على اثره ، ولن يفلت منا . سنستغل
هذه الفرصة ! انظر ، ها هو صوت ناقوس . الحمد
الله ! إنه الرئيس !»

- هاتوا الصبى هنا .

وفى هذه اللحظة وصلت الى الفناء عربة تنقل
الرئيس الذى تعرفنا عليه من قبل . ودخل الغرفة وقد
غطاه الغبار .

وقال كيرىلا بتروفيتش :

- نبا رائع . . لقد قبضت على دوبروفسكى .

- الحمد لله يا صاحب المعالى - قال الرئيس

مبديا فرحته - واين هو ؟

- ليس على دوبروفسكى نفسه ، بل واحد من
عصابته . سيأتون به حالا . وسوف يساعدنا فى القبض
على الزعيم نفسه . ها هم قد جاؤا به .

كان الرئيس يتوقع رؤية قاطع طريق مرعب ،
فصعق عندما رأى صبيا فى الثالثة عشرة من عمره ،
ضعيف البنية الى حد كبير ، فالتفت الى كيرىلا
بتروفيتش متحيرا وانتظر منه تفسيرا . وفى الحال شرع

كيرىلا بتروفيتش يروى له ما حدث فى الصباح دون الإشارة ، مع ذلك ، الى ماريا كيريلوفنا .
واصفى الرئيس باهتمام وهو ينقل بصره كل لحظة الى الشقى الصغير الذى تظاهر بالغباء ، وبدا غير مهتم مطلقا بكل ما كان يدور حوله .
واخيرا قال الضابط :

- هل تسمح لى يا صاحب المعالى ان اتحدث اليك على انفراد ؟

فقاده كيرىلا بتروفيتش الى غرفة اخرى واغلق خلفهما الباب .

وبعد نصف ساعة عادا ثانية الى الصالة حيث كان الاسير ينتظر تقرير مصيره .
وتوجه اليه الرئيس قائلا :

- لقد اراد السيد ان يضمك فى سجن المدينة حيث يجلدونك ثم ينفونك بعد ذلك الى سيبيريا ، لكنى تشفعت لديه وحصلت لك على عفو منه . فكوا وثاقه .
- هيا اشكر السيد - قال الرئيس .

وتقدم الصبى الى كيرىلا بتروفيتش فقبّل يده .
- عد الى دارك - قال له كيرىلا بتروفيتش -
واياك ان تعود الى سرقة التوت من شجر البلوط .

وخرج الصبى ، وقفز من السلامك بمرح ، وانطلق يركض عبر الحقل الى كيستينيوفكا دون ان يلتفت خلفه . وعندما وصل الى القرية ، توقف عند اول بيت فى طرفها ، وكان شبه مهدم ، وطرق النافذة فانفتحت وظهرت فيها امرأة عجوز .

قال الصبى :

- اعطنى كسرة خبز يا جدتى . منذ الصباح لم اذق شيئا . اكاد اموت من الجوع .
- اهنا انت ميتيا ، اين اختفيت ايها العفريت ؟ - اجابت العجوز .
- ساخبرك فيما بعد يا جدتى . . كسرة خبز ارجوك .
- الا تدخل الى الدار ؟
- لا وقت عندى يا جدتى . . على ان اذهب الى مكان آخر . . كسرة خبز بحق المسيح . . كسرة خبز .
- يا لك من عجول - همهمت العجوز - خذ ، ها هي كسرة الخبز . - وناولته من النافذة كسرة من خبز اسود .
- والتهمها الصبى بشراة وانطلق مواصلا ركضه وهو يعضها .
- اخذ الفسق يهبط ، وتوجه ميتيا الى غيضة كيستينيوفكا عبر حدائق الخضروات ومخازن الحبوب .
- وعندما وصل الى شجرتى الصنوبر القائمتين بمثابة حرس امامى للغيضة توقف ، وتلفت حوله فى جميع الجهات واطلق صفيرا حادا متقطعا ثم ارفف السمع . ورد عليه صفير خافت طويل ، ثم خرج احدهم من الغيضة وتقدم نحوه .

الفصل الثامن عشر

راح كيرىلا بتروفيتش يذرع الصالة جيئة وذهابا ، وهو يصفر لحنه بأعلى من المعتاد . وكان المنزل كله يموج بالحركة . الخدم يهرولون ، والوصيفات فى هرج

ومرج ، والحوزية يجهزون العربة في الحظيرة . وامتلا
الفناء بالناس . وفي غرفة ابنة السيد ، وقفت احدى
السيدات امام المرايا ، تحيط بها الخاديات واخذت
تزيّن ماريّا كيريلوفنا المتصلبة والتي مال راسها
بضعف تحت وطأة المجوهرات ، وكلما وخزتها المصففة
دون قصد ، ارتعش بدنها رعشة خفيفة . لكنها ظلت
صامتة تحديق في المرأة دون ان ينم وجهها عن اى شيء .
وتردد صوت كيريلّا بتروفيتش عند الباب :

- هل ستنتهون قريبا ؟

- حالا - اجابت السيدة - انهضى يا ماريّا
كيريلوفنا وانظري هل يعجبك هذا ؟
ونهضت ماريّا كيريلوفنا ، ولم تقل شيئا . وفتح
الباب .

- العروس جاهزة - قالت السيدة لكيريلّا
بتروفيتش - مرّ بالجلوس في العربة .

- فى رعاية الله - اجاب كيريلّا بتروفيتش ، ثم
تناول من على المنضدة ايقونة ، وقال لماشا بنبرة
تأثر - تعالى هنا يا ماشا . . . اننى اباركك .

وارتمت الفتاة المسكينة على قدميه واجهشت
بالبكاء :

- بابا . بابا . . . - قالت خلال الدموع ثم احتبس
صوتها .

واسرع كيريلّا بتروفيتش يباركها ، ثم انهضوها
ومضوا بها وهم يكادون يحملونها حملا فاجلسوها فى
العربة . وجلست معها عرابة العرس واحدى خادياتها
وتوجهوا الى الكنيسة ، حيث كان العريس فى انتظارهم .

وخرج لملاقاة عروسه فاذله شحوبها ومظهرها الغريب . ثم دخلا معا الى الكنيسة الباردة الخاوية . واغلقت خلفهم الابواب . وخرج القس من الهيكل وشرع توا في اجراء الطقوس . ولم تكن ماريا كيريلوفنا ترى او تسمع شيئا ، فقد كانت تفكر في شيء واحد وتنتظر دوبروفسكى منذ الصباح . لم تفقد الامل لحظة واحدة ، ولكن عندما توجه اليها القس بالسؤال التقليدي ارتعشت وجمدت وابطات في الرد ، فما زالت تنتظر . ولما لم يحصل القس منها على جواب نطق بالحكم الذى لا رجعة فيه .

وانتهت الطقوس ، واحست بقبلة الزوج الكريه الباردة . وسمعت تهانى الحاضرين المرحه ، لكنها لم تستطع بعد ان تصدق ان حياتها دفنت الى الابد ، وان دوبروفسكى لم يهب لتحريرها . وقال لها الامير كلمات رقيقة لم تفهمها . ثم خرجوا من الكنيسة التى كان فناؤها مزدحما بفلاحى بكروفسكويه ، فالقت عليهم نظرة سريعة ، عادت بعدها الى جمودها السابق . وجلس العروسان فى العربة معا وتوجها الى ارباتوفو ، التى كان قد سبقهما اليها كيرىلا بتروفيتش ليقابل العروسين هناك . وعندما خلا الامير الى زوجته الشابه لم يتأثر مطلقا بمظهرها البارد ، ولم يضجرها بكلمات الحب المعسولة او الاطراء المضحك ، بل كانت كلماته بسيطة لا تتطلب ردا . وقطعوا على هذه الحال حوالى عشرة فراسخ ، والخيول تركض بسرعة على الطريق الريفى غير المستوى ، لكن العربة لم تكن تهتز تقريبا بفضل لوالبها الانجليزية . وفجأة ترددت اصوات مطاردة وتوقفت

العربة واحاطت بها ثلثة من الرجال المسلحين ، ثم تقدم رجل في قناع نصفي ففتح باب الجانب الذي جلست فيه الاميرة الشابة وهو يقول لها :

- انت الآن حرة . اخرجى .

فصرخ الامير :

- ما معنى هذا ؟ من تكون انت . . .

- إنه دوبروفسكى - قالت الاميرة .

ولم يفقد الامير رباطة جأشه فاستل* من جيبه مسدس سفر واطلق النار على قاطع الطريق المقنص . وصرخت الاميرة وهي تخفى وجهها بكلتا يديها فزعا . وجرح دوبروفسكى في كتفه واخذت دماؤه تسيل . ولم يضيع الامير لحظة اخرى فاستل* مسدسه الثانى ، لكنهم لم يمهلوه حتى يطلق النار ، اذ فتح باب العربة ، وامتدت عدة ايد قوية فاخرجته من العربة وانتزعت منه المسدس ، ولمعت فوق راسه الخناجر .

فصرخ دوبروفسكى :

- اياكم ان تصوه .

فتراجع رفاقه العابسون .

وواصل دوبروفسكى مخاطبا الاميرة الشابة :

- انت الآن حرة .

- كلا ، فات الاوان ، لقد اصبحت زوجة الامير

فيريسكى .

- ماذا تقولين - صرخ دوبروفسكى ياسا - كلا ،

لست زوجته . لقد اجبروك على الزواج ، ولا يمكن ابدا

ان تكونى قد وافقت . . .

... فعارضته الاميرة بصلافة :

- لقد وافقت ، واقسمت اليمين . ان الامير زوجي ! فلتامر باطلاق سراحه ، ودعني امضى معه . انا لم اخدعك ، وانتظرتك حتى آخر لحظة . ولكنى الان اقول لك : لقد فات الاوان . دعنا نرحل .

لكن دوبروفسكى لم يكن يسمعها ، فقد خارت قواه من الالم والاضطراب النفسى الشديد . وسقط بجوار العجلة فاحاط به قطاع الطريق ، واستطاع ان يقول لهم بضع كلمات ، فاركبه على الحصان وسنده اثنان منهم بينما قاد الثالث الحصان ، وانطلقوا جميعا راحلين ، تاركين العربة وسط الطريق بعد ان اوتقوا الخدم وفكوا الخيول ، غير انهم لم يسرقوا شيئا ، ولم يريقوا قطرة دم واحدة انتقاما لدماء زعيمهم .

الفصل التاسع عشر

وسط غابة كثيفة ، وعلى مرج ضيق ارتفع استحكام ترابى صغير مكون من جسر وخنق ، ومن خلفه امتدت عدة اكواخ وخنادق مسقوفة .

واجتمع فى الفناء عدد كبير من الناس يمكنك بنظرة الى ملابسهم المتنوعة واسلحتهم المختلفة ان تعرف فيهم فورا على قطاع الطريق . وكانوا يتناولون غداهم وهم جالسون حاسرى الرؤوس بجوار قدر الطعام الجماعى . وعلى الجسر جلس القرفصاء حارس بجوار مدفع صغير ، واخذ يرقع قطعة معينة من ملابسه بمهارة تنم عن خياط خبير ، وكان يتلفست فى جميع الجهات بين لحظة واخرى .

وبالرغم من ان دورقا معينة تنقل عدة مرات من

ايد الى اخرى ، الا ان صمتا غريبا خيم على هذه الجماعة .
لقد تغدى قطاع الطريق ، ثم نهض الواحد منهم تلسو
الآخر فصلوا للرب ، وانصرف بعضهم الى الاكواخ ،
وانطلق البعض الآخر يضرب في الغابة او استلقى ليغفو
قليلاً حسب العادة الروسية .

وانهى الحارس عمله فنفض خرقة البالية ، وتملى
معجبا من الرقعة ، ثم غرس الابرة في كفه ، وجلس
فوق ظهر المدفع وغنى بأعلى صوته اغنية قديمة حزينة :

لا تصخبى يا غابة خضراء يا امام
لا تزعجى افكار ابنك الصنديد .

وفي هذه الاثناء فتح باب احد الاكواخ ووقفت
عند عتبة امرأة عجوز في غطاء رأس ابيض ، انيقة
الهندام جميلته ، وقالت بغضب :

- كفاك يا ستيوبكا . . السيد نائم وانت تزعق
بعلء صوتك . انك عديم الضمير والرحمة .

- مذنب يا يجورفنا . . حسنا ، لن افعل ذلك
ثانية . فليسترح سيدي وليتمائل للشفاء .

وانصرفت العجوز ، وراح ستيوبكا يتمشى على
الجسر .

في الكوخ الذى خرجت منه العجوز ، وخلف حاجز ،
رقد دوبروفسكى الجريح على سرير متنقل . وكانت
مسدساته موضوعة امامه على مائدة صغيرة ، بينما
تدلى سيفه على الحائط فوق رأسه . وكانت ارض
الخنق المسقوف وجدران مفروشة بالابسطة الفاخرة ،
وفي احدي زوايا مائدة زينة نسائية مصنوعة من الفضة

ومرأة على حامل . وكان دوبروفسكى ممسكا في يده بكتاب مفتوح ، لكن عينيه كانتا مفلقتين . ولم تدر العجوز التي كانت تسترق النظر من خلف الحاجز ، هل هو نائم ام انه مستغرق في التفكير .

وفجأة انتفض دوبروفسكى فقد ساد الموقع جو منذر بالخطر ، واطل ستيوبكا براسه في النافذة وصرخ :
- سيدى فلاديمير اندرييفيتش . رجالنا يرسلون إشارة . هناك مَنْ يتعقبنا .

وقفز دوبروفسكى من السرير والتقط سلاحه ، وخرج من الكوخ . كان قطاع الطريق متجهرين في الفناء وهم يثيرون صغبا ، وعندما ظهر دوبروفسكى لفهم صمت عميق .

وسال دوبروفسكى :

- هل الجميع هنا ؟

فاجابوه :

- الجميع ما عدا المراقبين .

فصاح دوبروفسكى :

- اشغلوا مواقعكم !

فاحتل كل قاطع طريق موقعه المحدد .

وفي هذه اللحظة هرول ثلاثة من المراقبين نحو

البوابة ففتح دوبروفسكى للقائهم وسألهم :

.. ماذا هناك ؟

فاجابوا :

- الجنود في الغابة . انهم يحاصروننا .

. فامر دوبروفسكى باغلاق البوابة ، وذهب ليتفقد

المدفع بنفسه .. وترددت في الغابة عدة اصوات ثم

اخذت تقترب ، وقبع قطاع الطريق ينتظرون في صمت .
وفجأة خرج ثلاثة او اربعة جنود من الغابة ثم ارتدوا على
الغور وهم يطلقون النار لانذار زملائهم .

وقال دوبروفسكى :

- استعدوا للمعركة !

فسرى حفيف بين قطاع الطريق ثم سكن كل شئ ،

من جديد .

وعندئذ سمعوا ضجيج الجنود المقربين الذين
لمعت اسلحتهم بين الاشجار ، ثم خرج من الغابة حوالى
مائة وخمسين جنديا ، اندفعوا نحو الجسر وهم
يصيحون . واشعل دوبروفسكى فتيل المدفع ، فكانت
طلقة موفقة اطارت براس احد الجنود وجرحت اثنين .
ووقع ارتباك في صفوف الجنود ، لكن الضابط قائدهم
اندفع الى الامام فتبعه الجنود واقتحموا الخندق ، فاخذ
قطاع الطريق يطلقون عليهم النار من البنادق
والمسدسات ويدافعون بالفزوس عن الجسر الذى
اقتحمه الجنود الحائقون ، مخلّفين في الخندق حوالى
عشرين جريحا من رفاقهم . ونشبت معركة التحام
بالسلاح الابيض . وكان الجنود قد ارتقوا الجسر ،
وبدا قطاع الطريق يتقهقرون ، غير ان دوبروفسكى
اقترب من الضابط ، ودس المسدس في صدره واطلق
النار . فسقط الضابط على ظهره ، وحمله بعض الجنود
على ايديهم واسرعوا بسحبه الى الغابة . اما البقية فقد
توقفوا بعد ان فقدوا قائدهم . وارتفعت روح قطاع
الطريق المعنوية فاستغلوا لحظة الارتباك هذه وكروا
عليهم فردوهم الى الخندق . واخذ المحاصرون يهربون

فتبعهم قطاع الطريق وهم يصيحون . وتم احراز النصر .
واوقف دوبروفسكى اتباعه معتمدا على الاضطراب التام
الذى اصاب العدو ، وتحصن في القلعة بعد ان امر بنقل
الجرحي وتشديد الحراسة وعدم مغادرة اى فرد لمكانه .
ولفتت الحوادث الاخيرة انتباه الحكومة الجاد الى
جرانم دوبروفسكى الجريئة . فجمعت المعلومات عن
مكان تواجده وارسلت سرية من الجنود للقبض عليه
حيا او ميتا . والقوا القبض على بعض افراد عصابته
لكنهم علموا منهم ان دوبروفسكى ليس من بينهم . وبعد
عدة ايام من هذا الحادث جمع دوبروفسكى كل اعوانه
واخبرهم انه قرر تركهم نهائيا ونصحهم بان يغيروا هم
ايضا اسلوب حياتهم . وقال :

- لقد اثريتم تحت قيادتي ، ولكل منكم جواز
سفر يتيح له ان يتسلسل بسلام الى اية محافظة بعيدة
ويقضى هناك بقية عمره في عمل شريف ومتمتعا بالرغد .
لكنكم جميعا افئاقون ولن ترغبوا ، على الأرجح ، ان
تتركوا مهنتكم هذه .

وبعد هذا الخطاب فارقه ولم يصطحب معه
غير (. . .) وحده . ولم يعرف احد الى اين ذهب وفي
البداية تشككت السلطات في صحة هذه الاقوال اذ كان
معروفا مدى ولا ، قطاع الطريق لزعيمهم ، فاعتقدت
انهم يحاولون انقاذه . لكن الايام اكدت براءتهم ، فقد
انتهت الزيارات الرهيبة واعمال السلب والحرائق
واصبحت الطرق آمنة . ثم علم الناس عن طريق انباء
اخرى ان دوبروفسكى اختفى خارج البلاد .

١٨٣٢ - ١٨٣٣

ابنة الأمر

احفظ طرفك مند الصبا .
(مثل ٠)

الفصل الاول

وقيب الحرس

- استطاع ان يكون ضابط حرس غدا .
- لا حاجة ال ذلك ؛ دعه يخدم في الجيش .
- قول صائب ا دعه يعرف المصاعب . . .

.....

ومن هو ابوه ؟
(من كوميديا والمتباهي ، لكنياجنين ٠)

كان ابي اندريه بتروفيتش غرينيف في صباه
يخدم في الجيش تحت امرة الكونت مينينغ ، وقد استقال
في عام ١٧٠٠ وهو في رتبة نقيب . ومنذ ذلك الحين عاش
في قريته في ولاية سيمبيرسك حيث تزوج الانسة
افدوتيا فاسيلفنا ي . . . ، ابنة نبيل معدم من نبلاء
تلك المنطقة . وكنا تسعة من البنين والبنات . وقد مات
اخواني واخواني في الطفولة .

كانت امي ما تزال حامله بي ، حين سجلوني رقيباً في
فوج سيمينوفسكى ، بوساطة من رائد الحرس الامير

ب . . . ، وهو احد اقاربنا الاقربين . ولو ولدت امي ابنة ، على عكس جميع التوقعات ، لابلغ ابى الجهة المعنية عن موت الرقيب غير الموجود ، ولانتهى الامر بذلك . اعتبرت في اجازة حتى انتهاء تحصيلي . وفي ذلك الوقت لم تكن نربي الاولاد كما نربيهم الآن . منذ الخامسة سلمت الى السانس سافيليتش الذى خول امر العناية بى بسبب من سلوكه الحسن . وتحت رعايته تعلمت القراءة والكتابة بالروسية في سن الثانية عشرة ، واستطعت ان اميز صفات الكلب السلوقى . وفي ذلك الوقت استخدم ابى الفرنسى مسيو بوبريه الذى استقدم من موسكو مع مؤنة سنوية من النبيذ وزيت الزيتون . واستاء سافيليتش لقدمه استياء شديدا . فراح يدمم مع نفسه : «الصبى ، والحمد لله ، نظيف ، مصفوف الشعر ، حسن التغذية ، على ما يبدو ، فما الحاجة الى صرف فلوس زائدة ، واستخدام مسيو ، وكأنه لم يبق احد من قومنا !»

كان بوبريه في وطنه حلاقا ، ثم جنديا في بروسيا ، ثم قدم الى روسيا pour être outchitel * ، غير مدرك كثيرا معنى هذه الكلمة . كان رجلا طيبا ، الا انه نزق خليع العذار الى اقصى حد . وكان موطن الضعف الرئيسى فيه ولعه بالجنس اللطيف ؛ وبسبب من عواطفه تلقى اكثر من مرة ضربات كان يعاني منها اياما . وهو بالاضافة الى ذلك لم يكن (على حد تعبيره) محصنا للزجاجة ، اى (بالكلام الروسى) كان يحب حلاسه المفرطين . ولكن ، لما كان النبيذ يقدم في * ليصبح معلما . (بالفرنسية .)

بيتنا عند الغذاء فقط ، وقدحا واحدا لكل شخص ،
وفضلا عن ذلك كان يغفل المعلم عادة لدى التقديم ،
فان صاحبي تعود بسرعة شديدة على الخمرة الروسية ،
بل صار يفضلها على انبذة وطنه باعتبارها انفع للمعدة
كثيرا . وسرعان ما تمت الالفة بيننا . وبالرغم من انه
كان ملزما ، بموجب العقد ، على تعليمى الفرنسية ،
والالمانية ، وجميع العلوم ، الا انه كان يفضل ان
يتعلم منى على وجه السرعة ان يتكلم شيئا بالروسية ،
وفيما بعد انشغل كل واحد منا بشانه . كنا فى تفاهم
تام ، ولم ترغب نفسى فى مرب غيره . الا ان القدر
سرعان ما فرق بيننا . وهذه هى الحكاية :

ذات مرة اتفقت الغسالة بالاشكا ، وهى فتاة بدينة
مجدورة ، وراعية البقر العوراء اقولكا على الارتواء فى
وقت واحد على قدمى امى ، معترفين بضعفهما الاجرامى ،
واشتكتنا ، وهما تبكيان ، من الميسيو الذى غرر
بسذاجتهما . وكانت امى لا تحب المزاح بذلك ،
فاشتكت لدى ابنى . وكان ابنى شديد الحزم فى قطع
داير مثل هذه الامور . فامر فى الحال باحضار الفرنسى
الفاسق . وحين ابلغ بان الميسيو منشغل فى اعطائى
درسا جاء بنفسه الى غرفتى . فى تلك الاثناء كان الميسيو
ينام فى السرير نوما وديعا . وكنت مشغولا بعمل . وهنا
تجدد الاشارة الى ان خارطة جغرافية كانت قد ارسلت لى
من موسكو . وكانت معلقة على الحائط دون اية استفادة
منها ، وكان عرض ورقها وجودته يفرىاننى بها منذ
وقت طويل . وقد عزمت على ان اصنع منها طائرة
ورقية ، وشرعت فى تنفيذ العمل مستغلا نوم بوبريه .

وقد دخل ابي عليّ ، وانا اثبت ذيلا ليفيا على راس
الرجاء الصالح . ولما راى ابي تماريني في الجغرافية جر
اذني ، ثم هرع الى بوبريه ، وايقظه بطريقة غير
محترسة كثيرا ، وراح يصب عليه اللوم والتقريع .
حاول بوبريه في ارتبائه ان ينهض ، الا انه لم
يستطع : فان الفرنسي التعيس كان في غاية السكر .
تعددت الذنوب والعقاب واحد . امسكه ابي من
تلابيه ، ورفع من السرير ، ودفعه خارج الباب ،
وطرده من البيت في نفس اليوم ، وفرح سافيليتش فرحا
لا يوصف . وبذلك انتهى تعليمي .

عشت غير مكمل تعليمي ، اطارد الحمام ، والعب
القفز على ظهور الاولاد من ابناء الخدم ، وخلال ذلك
بلغت السادسة عشرة . وهنا حصل تغير في حياتي .
ذات مرة خريفا كانت امي تصنع مربى العسل في
غرفة الجلوس ، وكنت انا انظر الى الزبد الفائر متلمظا .
وكان ابي يقرأ عند النافذة «حولية البلاط» التي يتلقاها
سنويا . وكان هذا الكتاب شديد التأثير فيه على
الدوام . لم يطالعه قط دون انفعال شديد . كانت
مطالعه له تثيره اثاره عجيبة . ولما كانت امي تحفظ
كل عاداته واهوائه ، فقد كانت تحاول ان تبعد هذا
الكتاب المنحوس عنه ابعدا ما يمكن ، فكانت عيناه لا
تقع على حولية البلاط اشهرا كاملة في بعض الاحيان ،
ولكن اذا عثر عليه مصادفة ظل بين يديه ساعات
كاملة . وهكذا كان ابي يقرأ في حولية البلاط ، هازا
كتفيه بين العين والآخر ، مرددا بصوت خفيض :
«جنرال ! . . . وكان في كتيبتى برتبة رقيب ا . . .

حائز على الوسامين الروسيين الاولين كليهما . . ا . . والى
زمن ليس بالبعيد كنا . . » واخيرا قذف ابي بالحولية
على الاريقة ، وغرق في تفكير لا يؤمل منه خير .
وفجأة التفت الى امي سائلا :

- يا افدوتيا فاسيليفنا ، ما عمر بيتر ؟
اجابت امي :

- دخل السابعة عشرة . ولد بيتر في السنة التي
فقدت فيها العمة ناستاسيا غيراسيموفنا عينها ،
و حين . . .

قاطعها ابي :

- حسنا ، حان اوان التحاقه بالجيش . كفاه
ملاحقة البنات ، وتسلا الى بيوت الحمام .

وبهتت امي من فراقى الوشيك بهوتا عظيما جعلها
تسقط الملعقة في القدر ، وسالت الدموع على وجهها .
ومقابل ذلك يصعب على وصف فرحتي . فان فكرة الخدمة
في الجيش كانت ترتبط في نفسي بفكرة الحرية ،
ومسرات الحياة في بطرسبورغ . تصورت نفسي ضابطا
في الحرس ، وكان ذلك ، في رأيي ، اسمى درجات النعيم
الانساني .

كان ابي لا يحب تغيير ما يعزم عليه ، ولا تأجيل
تنفيذه . وحدد يوم سفرى . وفي عشيته اعلن ابي انه
ينوى ان يرسل معى رسالة الى رئيسى المقبل ، وطلب
احضار الريشة والورق .

قالت امي :

- لا تنس ، يا اندريه بتروفيتش ، ان تبلغ

سلامى الى الامير ب . . . ، اكتب له اننى امل ان
يشمل بيتر بالطافه .
رد ابي عابسا :

- ما هذا الهراء ! باية مناسبة اكتب للامير
ب . . . ؟

- الم تقل انك ستكتب الى رئيس بيتر ؟

- وما فى ذلك ؟

- ورئيس بيتر هو الامير ب . . . فان بيتر مسجل
فى فوج سيمينوفسكى .

- مسجل ! وما يهمنى من هذا التسجيل ؟ لن
يذهب بيتر وشا الى بطرسبورغ . فماذا سيتعلم اذا
صار يخدم فى بطرسبورغ ؟ يبذر ويفسق ؟ لا ، دعيه
يخدم فى الجيش ، ويتدرب حسب الاصول . يستنشق
البارود ، ويصير جنديا لا فتى فارغا ! مسجل فى
الحرس ! اين جوازه ؟ اجلبه لى .

وجدت امى الجواز الذى كان محفوظا فى علبتها مع
القميص الذى تعمدت فيه ، وقدمته الى ابي بيد
مرتجفة . قراه باهتمام ووضع على الطاولة امامه ،
وشرع يكتب رسالته .

اخذ حب الاستطلاع يعذبنى : الى اين سيرسلنى
اذا لم يكن الى بطرسبورغ ؟ لم اصرف بصرى عن
ريشة ابي التى كانت تتحرك ببطء شديد . واخيرا فرغ
منها ، ووضعها فى ظرف واحد مع الجواز ، وخلع
نظارتة ، ودعانى اليه وقال : «هذه رسالة لك مرسله
الى اندريه كارلوفيتش ر . . . ، رفيقى القديم
وصديقى . ستسافر الى اورنبورغ لتخدم تحت امرته» .

وهكذا تحطمت كل آمالي المتألقة ! فبدلا من حياة
بترسبورغ المرححة كان في انتظاري ضجر في ناحية
نانية . والخدمة التي كنت افكر فيها قبل لحظة بعظيم
الغبطة بدت لي شقاء ثقيلًا . الا ان الامر لا يحتمل
الجدل . في صباح اليوم التالي وصلت عربة سفر الى
مدخل البيت ، ووضعت فيها حقيبتي ، وصندوق فيه
ادوات الشاي ، وصرر الكمك والفطائر ، وهي الدلائل
الاخيرة لدلال الاهد . وباركني والداي ، وقال لي ابي :
«وداعا ، يا بيتير . اخدم باخلاص من تقسم له يمين
الولاء ، واطع الرؤساء ، ولا تستجد عطفهم ، ولا تتهالك
على الخدمة ، ولا تتهرب منها . وتذكر المثل القائل :
احرص على لباسك وهو جديد ، وعلى شرفك منذ
الصبا» . واوصتني امي ، والدموع في عينيها ، بان
اعتنى بصحتي ، وطلبت من سافيليتش بان يرعى
ولدها . والبسوني معطفا من فراة الارنب ، وفوقه فروة
ثعلب . وركبت العربة مع سافيليتش ، وبدانا السفر ،
والدموع تترقق في عيني .

وصلت الى سيمبيرسك في ذات الليلة ، وكان على
ان امكث فيها يوما كاملا لشراء الاشياء اللازمة ، وكلف
سافيليتش بذلك . نزلنا في حانة وخرج سافيليتش منذ
الصباح متجولا بين الحوانيت . سنمت التطلع من النافذة
الى الزقاق الموحد ، فخرجت اطوف في جميع الحجرات .
ودخلت حجرة البليارد ، ورايت سيديا طويل القامة في
نحو الخامسة والثلاثين من العمر له شاربان اسودان
طويلان ، وعليه مبذل منزلي ، وفي يده عصا اللعب ،
وبين اسنانه غليون . كان يلعب الشخص المكلف

بالتسجيل الذي كان يحتسى كاسا من الفودكا اذا ربح ،
 ويحبو تحت منضدة البليارد على الاربع اذا خسر . اخذت
 اراقب لعبهما . وكلما طال اللعب ازداد الحبو على
 الاربع ، حتى بقى المسجل تحت المنضدة في آخر الامر .
 تفوه السيد فوقه ببعض العبارات الشديدة بمثابة كلمة
 رثاء ، واقترح على ان الاعبه . رفضت لجهلي باللعبة .
 فلاح ذلك له غريبا على ما يبدو . نظر الى وكأنه يأسف
 لذلك ، الا اننا شرعنا نتحدث . عرفت انه يدعى ايفان
 ايفانوفيتش زورين ، وانه نقيب فرسان ، وانه جاء الى
 سيمبيرسك ليشهد مراسيم التجنيد ، وهو يقيم في
 الحانة . ودعاني زورين الى ان اتغدى معه ما رزق الله ،
 وعلى طريقة الجندي . قبلت الدعوة بطيب خاطر .
 وجلسنا الى المائدة . شرب زورين كثيرا ، ودعاني الى
 الشرب ايضا قائلا انه ينبغي التعود على الحياة
 العسكرية ؛ وقص عليّ حكايات من حياة الجيش كادت
 تفقدني زمام نفسي لشدة ما اضحكنتني ، ونهضنا من
 وراء المائدة صديقين على اتم ما تكون الصداقة . وهنا
 عرض عليّ ان يعلمني لعب البليارد ، وقال : «انه
 ضروري للمسكرى . فمثلا حين تخرج في مسيرة ، وتصل
 الى بلدة صغيرة فباى شىء ستقضى وقتك ؟ انك
 ستضطر الى اللجوء الى حانة ، وتلعب البليارد ، ولهذا
 الغرض ينبغي ان تجيد اللعبة !» اقتنعت بذلك كليا ،
 واخذت اتعلم باجتهاد شديد . وكان زورين يشجعني
 بصوت عال مبديا دهشته من نجاحاتي السريعة ، وبعد
 عدة دروس ، اقترح على ان نلعب بنقود ، ببضعة
 فلوس ، لا لقصد الكسب ، بل لمجرد الا يكون لعبنا

عبثا ، وهو على حد قوله اردا عادة . ووافقت على ذلك ايضا ، وامر زورين بان يقدم شراب «البونش» ، وحثنى على تذوقه ، مكررا ان من الضروري لى التعود على الخدمة العسكرية ، واية خدمة بلا شراب «البونش» ! واطعته . وخلال ذلك استمر لعبنا . وكلما ترشفت من قدحى ازدادت جراءة فى اللعب . وكانت الكرات تتطاير منى تباعا قافزة عبر حافة المنضدة ، واحتد مزاجى ، وشتمت المسجل الذى يعلم الله كيف كان يسجل ، ويزيد الرهان ، وباختصار اننى تصرفت كصبي انطلق فى دنيا الحرية . وخلال ذلك كان الوقت يمر دون ان يلحظ . نظر زورين فى الساعة ، ووضع العصا ، وابلغنى باننى خسرت مائة روبل . وقد اربكنى ذلك بعض الشئ ، لان تقودى عند ساقيليتش . اخذت اعتذر . قاطعنى زورين : «ارجوك ! لا تدع ذلك يقلقك . استطيع ان انتظر ، والآن لنذهب الى ارينوشكا» .

وما حيلتى ؟ وهكذا قضيت المساء بسفاهة كما بدأت النهار . تناولنا العشاء عند ارينوشكا . وكان زورين يصب لى الاقداح تباعا ، مكررا ان من الضروري التعود على الخدمة العسكرية . ولما نهضت من المائدة كنت لا اكاد اقف على قدمى . وعند منتصف الليل قادنى زورين الى الحانة .

قابلى ساقيليتش عند مدخل الحانة . وقد ندت منه آهة حين رآى الدلائل الواضحة على اجتهادى فى الخدمة . قال بصوت بانس : «ماذا جرى لك ، يا سيد ؟ اين سكرت هذه السكرة ؟ يا الهى ، انا لم ار مثل هذا طوال حياتى !» اجبته متذمرا : «اسكت ، يا عجوز ! انت

سكران بالتاكيد . اذهب لتنام . . . وضعنى فى
السرير» .

استيقظت فى اليوم التالى مصدوعا ، وتذكرت
بمفوض ما حصل لى البارحة . وقد قطع سافيليتش
تأملاتى حين دخل يحمل قدحا من الشاى . قال لى وهو
يهز راسه : «بدأت حياة السكر مبكرا ، يا بيتير
اندريفيتش . على من طلعت ؟ اظن لا ابوك ولا جدك كان
سكيرا ، ولا حاجة لذكر امك : طوال حياتها لم تضع فى
فمها غير «الكفاس» * . ومن المعلوم فى كل ذلك ؟
المسيو اللعين . كان يتردد على حانة انتيبيفنا بين العين
والآخر ، ويرطن قائلا : «مدام جى فو برى فودكا» .
وهذه هى النتيجة ! هذا هو الواقع ، علمك الخير ،
ابن الكلب ذاك . كانما كنت بحاجة الى مرب زنديق ،
وكان اباك لم يكن له مربون من بنى قومه !» .

شعرت بالخجل . استدرت بوجهى وقلت له :
«اخرج ، يا سافيليتش . لا اريد شايا» . ولكن كان من
الصعب ايقاف سافيليتش اذا بدأ موعظة . «ها انت
ترى ، يا بيتير اندريفيتش نتيجة الاسراف فى الخمر .
الراس ثقيل ، والشهية معدومة . شارب الخمر لا يصلح
لشىء . اشرب ماء الخيار المملح مع العسل . والاحسن
من ذلك ان تكسر خمارك بنصف قدح من الخمر القوية .
هل تريد ؟» .

وفى اثناء ذلك دخل غلام ، وسلمنى مذكرة من
زورين . نشرتها وقرات السطور التالية :

* مشروب روسى غير كحول من دقيق الجودار .
(المترجم ٠)

«العزیز بیتر اندریفیتش . ارجو ان ترسل لی بید
الغلام المانة روبل التي خسرتها معی بالامس . فانا بحاجة
ماسة الى الفلوس .

المستعد لخدمتك

ایفان زورین» .

ولم يكن هناك بد مما ليس منه بد . خلعت على نفسی
مظهر اللامبالاة ، والتفت الى سافيليتش الذي هو
صاحب مالي وملبسی واحوالی ، وامرته بان يعطى الغلام
مانة روبل . فسأل سافيليتش مدهوشا : «كيف ؟
ولماذا ؟» اجبت باكثر ما يمكن من البرود : «انا مدين
له بها» . فاعترض سافيليتش الذي كان يزداد دهشة
باطراد : «مدين ! وكيف تسنى لك الوقت لتكون مدينا ،
ايها السيد ؟ الامر ينطوى على شىء غير مفهوم . افعل ما
تشاء ، يا سيد ، انا لن اعطى الفلوس» .

وفكرت في اننى اذا لم اغلب العجوز العنيد في مثل
هذه اللحظة الحرجة فسيصعب علىّ فيما بعد التحرر من
وصايته فنظرت اليه بانفة ، وقلت : «انا سيدك ،
وانت خادمى . والنقود نقودى . وقد خسرتها بسبب من
رغبتى الخاصة . انا انصحك بان لا تتحدلق ، وافعل ما
اوامرك به» .

واذهلت كلماتى سافيليتش حتى انه رفع ذراعيه ،
وجمد في مكانه . صرخت به حانقا : «لماذا انت واقف ؟»
طفق يبكى قائلا بصوت مرتجف «سیدی بیتر
اندریفیتش ، يا روحى ، لا تدعنى اموت من اليأس .
اصغ الى ، انا العجوز : اكتب لهذا اللص انك كنت

تمزح ، وانه لا قبل لنا بمثل هذا المبلغ . مائة روبل !
يا ربي الرحيم ! وقل له ان والديك منعاك منعا باتا من
اللعب بغير الجوز» قاطعته بحزم : «كفى كذبا ،
هات النقود ، والا طردتك شر طردة» .

نظر سافيليتش الى باسى عميق ، ومضى ليجلب
دينى . اشفت على العجوز المسكين ، الا اننى اردت ان
استقل بحريتى ، واثبت اننى لم اعد طفلا . وارسلت
النقود الى زورين . اسرع سافيليتش باخراجى من
الحانة اللعينة . فقد جاء ينبؤنى بان الخيول قد اعدت .
وغادرت سيمبيرسك بضمير مضطرب ، وندم صامت ،
دون ان اودع معلمى ، وغير ظان باننا سنلتقى
ثانية .

الفصل الثانى

الدليل

منأى ، يا منأى ،

منأى الغريب !

لم اجىء اليك بمحض ارادتى

ولا قادنى اليك حصانى الكريم

بل قادنى اليك ، انا الفتى الطيب ،

الاقدام ، وتووب الصبا ،

والسكر فى الحانات .

(اغنية قديمة .)

لم تكن تأملاتى خلال السفرة مريحة جدا . فان خسارتى ، بالنسبة لاسعار ذلك الزمن ، لم تكن قليلة الاهمية . ولم يكن فى ميسورى الا ان اعترف فى قرارة نفسى بان تصرفى فى حانة سيمبيرسك كان تصرفا احمق ، وشعرت بالذنب ازاء سافيليتش . وقد آلمنى كل ذلك . كان العجوز يجلس الى جوار سائق العرببة متجههم الاسارير ، مشيحا بوجهه عنى ، صامتا ، لا تبدر منه غير غمغمة بين العين والآخر . كنت اود بالتاكيد لو اصالعه ، ولا اعرف كيف ابدا المصالحة . واخيرا قلت له : «كفى ذلك يا سافيليتش ! لتصالح . انا المذنب فى حقك ، ادرك ان الذنب يقع على . بالامس ابديست

حماقة ، واسات اليك . اعدك بان اتصرف في المستقبل تصرفا اكثر تعقلا ، واطيعك . حسنا ، لا تفضب ، ولنتصالح» .

اجاب بتنهيده عميقة :

- آه ، يا عزيزى بيتر اندريفيتش ! انا غاضب على نفسى ، انا وحدى المذنب . كيف تركتك فى العانة لوحدهك ! ما العمل ؟ اغوانى الشيطان ، ففكرت فى زيارة امراة الشمساس ، عرابتى . ذهبت الى بيتها وامضيت عندها وقتا طويلا . ما افطع ذلك ! . كيف سابدو فى عيون والديك ؟ ماذا يقولان لو يعرفان ان ابنهما يسكر ويقامر ؟

ولتهدنة سافيليتش المسكين قطعت له عهدا باننى لن انفق فلسا واحدا فى المستقبل دون موافقته . وهذا شيئا فشيئا ، رغم انه ظل يدمدم مع نفسه بين الحين والآخر هازا راسه : «مائة روبل ! وكانها فلس او فلسان !»

اقتربت من المكان الذى اقصده . امتدت حولى رحاب حزينه تتخللها تلال ووهاد . وكان الثلج يغطى كل شىء . وغربت الشمس وسارت العربة فى طريق ضيقة ، والاصح على الاثر الذى شقته زلاقات الفلاحين . وفجأة اخذ العوزى يحرق فى ناحية ، واخيرا ، خلع قبعته ، والتفت نحوى ، وقال :

- ايها السيد ، الا تأمر بالعودة ؟

- ولم ذاك ؟

- الجو لا يعول عليه : فالريح ترتفع رويدا ،

وهي تذر الثلج .

- وما وجه الخطر في ذلك ؟
- الا تنظر هناك ؟ (واشار الحوذى الى الشرق بسوطه) .

- لا ارى غير سهب ابيض ، وسما ، صافية .
- وهناك ، هناك هذه الغمامة .
وفي الحق لمحت في طرف السماء غمامة بيضاء ، حسبتها في البدء ، تلا بعيدا . وشرح لي الحوذى ان الغمامة نذير عاصفة ثلجية .

كنت قد سمعت عن العواصف الثلجية في هذه المنطقة ، وعرفت انها كانت تفر بالتلج قوافل كاملة من العربات . و اشار ساقيليتش بالعودة متفقا مع الحوذى بالرأى . الا ان الريح بدت لي غير شديدة ، واملت ان نصل الى المحطة القادمة في الوقت المناسب ، وامرت ان تغذ العربة في السير .

اطلق الحوذى العنان الا انه ظل يلقي ببصره صوب الشرق . وانطلقت الخيول في عدو سريع . بينما كانت الريح تزداد شدة ساعة بعد ساعة ، وتحولت الغمامة الى سحابة بيضاء ارتفعت بتثاقل ، وتنامت شيئا فشيئا حتى غطت اقطار السماء . ونزل ثلج دقيق ، ثم تساقط فجأة ندفا . وصفرت الريح ، وتحولت الى عاصفة ثلجية . وفي لحظة واحدة التحمت السماء الداكنة بالبحر الثلجي . واختفى كل شيء . وصاح الحوذى : «انها العاصفة ، ايها السيد ، مصيبة !» . . .

اطللت من العربة . فلم ار غير ظلام متكاثف واعصار . وكانت الريح تعصف عصفاً وحشياً حتى بدأت وكأنها روح حية ، وغطاني الثلج وغطى

سافيليتش ، وتحولت الخيول الى الخطو ، وما لبثت حتى توقفت . سألت الحوذي بنفاد صبر : «لماذا لا تتحرك؟» اجاب ، وهو يترك مقعده : «وكيف اتحرك ؟ الله يعلم اين نحن الآن . الطريق لا يبين ، وحولنا ظلمات» . اخذت اشتمه ، والتزم سافيليتش جانبه . قال غاضبا : «لو سمعت كلامه لعدنا الى نزل ، وشربت الشاي ، ولنمت حتى الصباح ، حيث تكون العاصفة قد هدات ، لو اصلنا السفر . لم العجالة؟ انحن ذاهبون الى عرس؟» كان سافيليتش على حق ، ولا مجال لرد ما وقع . ظل الثلج ينثال . وارتفع كتيب منه عند العربة . وكانت الخيول واقفة مطاطنة الرؤوس ، مرتعدة بين الحين والآخر . وكان الحوذي يدور حول العربة ، ويصلح العدة تمضية للوقت . وكان سافيليتش يدمم . تلفت في كل الجهات ، مؤملا ان المح على الاقل اشارة على ماوى او طريق ، الا اننى لم استطع ان اتبين غير دوامة العاصفة المدلّمة . . . وفجأة لمحت شيئا اسود . هتفت : «يا حوذي ! انظر ما هذا الذى يسود هناك؟» اخذ الحوذي يتفرس . قال وهو يجلس في مقعده : «الله يعلم ايها السيد ، لا هو بعربة ، ولا هو بشجرة ، ولكنه يتحرك . لا بد انه ذئب او انسان» . امرت ان يتجه نحو الشىء الغامض ، الذى صار في الحال يتحرك نحونا . وبعد دقيقتين اقتربنا من شخص . صاح به الحوذي :

- هاى ، ايها الرجل الطيب ! خبرنا اتعرف اين الطريق ؟

اجاب عابر الطريق :

- الطريق هنا ، انا واقف على جادته الصلبة .
ولكن ما الفائدة ؟
قلت له :

- اسمع ، ايها الرجل ، اتعرف انت هذه الناحية ؟
اتستطيع ان تدلنا على مكان نبيت فيه .
اجاب عابر الطريق :

- انا اعرف هذه الناحية ، والحمد لله . طرقتها
ماشيا وجبتها راكبا ، ولكن انظر اى جو هو ، ستفضل
الطريق لا محالة . من الافضل البقاء هنا والانتظار حتى
تهدا العاصفة ، وتصفو السماء : عندئذ سنعرف
الطريق بالنجوم .

وشجعتنى برودة اعصابه . فقررت ، بعد الاتكال
على الله ، ان اقضى الليلة وسط السهب ، حين جلس
عابر الطريق فجأة وبخفة على مقعد السائق ، وقال
للحوى : «حمدا لله على ان المنزل غير بعيد ، استدر
الى اليمين ، وسر في طريقك» .

سال الحوى فى غير ما رضى :

- ولماذا على ان اسير الى اليمين ؟ واين ترى
الطريق ؟ اظن ان الخيول لا تعود لك ، ولا العدة تخصك
فلا يهملك الا السفر . - ولاح لى الحوى محقا . قلت :
«لم تظن ان المنزل ليس ببعيد ؟» اجاب عابر الطريق :
«لان الريح تهب من تلك الجهة ، وانا اشم رائحة دخان ،
يعنى ان قرية على مقربة» . وادهشتنى رهافته ودقة
حاسته . امرت الحوى ان يسير . وسارت الخيول
متناقلة على الثلج العميق . وتقدمت العربية ببطء ، تارة
تصعد على كومة ثلج ، وتارة تغوص فى منخفض ، وتقع

مرة على هذا الجانب ، واخرى على ذلك . فكانت تشبه سفينة تمخر عباب بحر هائج . وكان سافيليتش يتاوه مصطدما بجنبى بين الحين والآخر . اسبلت الستارة ، وتدفرت بالفروة ، وراودنى النعاس بعد ان هدهدتنى ترنيمة العاصفة وتمايل السير البطى .

وحلمت حلما لم استطع ان انساه طوال حياتى ، وحتى الآن اجد فيه شيئا نبويا حين اقارنه بالظروف العجيبة التى مرت فى حياتى . ارجو ان يعذرنى القارى ، لانه ، على الارجح ، يعرف من تجربته ان الانسان مجبول على الانسياق وراء الخرافات ، رغم ازدرائه التام لها . كنت فى تلك الحالة الشعورية والنفسية التى يتراجع فيها الواقع امام الاحلام ، ويمتزج معها فى رؤى غامضة فى اوائل النوم . حلمت بان العاصفة ما زالت تزمجر ، ونحن ما نزال تائهين فى الفضاء الثلجى وفجأة لمحت بوابة ، ودخلت فناء ضيقتنا . واول ما خطر فى ذهنى هو ان اتفادى غضب ابي على سبب عودتى غير المرغوبة الى كنف الوالدين ، واعتبارها خروجاً مقصوداً عن طاعته . قفزت من العربة قلقاً ، فرايت امى تستقبلنى عند المدخل بهيئة من الحزن العميق . وتقول لى : «رويدك . ان اباك مريض ويوشك ان يموت ، ويريد ان يودعك» . واتبعها الى غرفة النوم وقد تملكنى الذعر . واجد الغرفة خافتة الضوء ، وعند السرير يقف اناس ، ذوو وجوه مفعوجة . اتقدم من السرير بهدوء . وترفع امى الستارة قليلاً ، وتقول : «اندرية بتروفيتش ، ها هو بيتتر قد وصل ؛ عاد بعد ان علم بمرضك ؛ فباركه» . ركعت على ركبتى ، وصوبت

عيني الى المريض . ما هذا ؟ رايت بدلا من ابي فلاحا
 ذا لحية سوداء راقدا في السرير ، ينظر الى نظرة مرحة .
 التفت الى امي مرتبكا قائلا لها : «ما يعنى هذا ؟ انه
 ليس ابي . فلماذا اطلب البركة من فلاح ؟» اجابست
 امي : «لا فرق يا بيترا انه ابوك في العرس * فقيل
 يده ، ودعه يباركك . . .» . لم اوافق . عندئذ وثب
 الفلاح من السرير ، واختطف فاسا من وراء ظهره ،
 وراح يلوح بها في كل الجهات . اردت ان اهرب . . .
 ولكنى لم استطع ، كانت الحجرة مملوءة بالجثث الميتة ،
 وارتطمت بجثة ، وانزلت في برك الدم . . . ناداني
 الفلاح الرهيب برقة قائلا : «لا تخف ، تقدم لبركتي . . .»
 واستولى الذعر والاضطراب على . . . وفي تلك اللحظة
 استيقظت . كانت الخيول واقفة ، وسافليتشس يهز
 يدي ، ويقول : «اخرج ، يا سيد ، وصلنا» .

سالت وانا افرك عيني : الى اين وصلنا ؟

- الى النزل . اعاننا الرب ، ووقعنا على السياج
 راسا . انزل ، يا سيد ، بسرعة لتتدفأ .
 خرجت من العربة . كانت العاصفة ماضية في عصفها ،
 ولكن شدتها قد خفت . كان الظلام شديد الحلكة .
 استقبلنا صاحب النزل عند الباب ، واضعا المصباح
 تحت طرف ردايه ، وقادني الى غرفة جلوس صغيرة
 ولكنها نظيفة ، يضيؤها سراج . وقد علقت على الحائط
 بندقية ، وقبعة قوزاقية عالية .

كان صاحب النزل وهو قوزاقى الاصل من يايك ،

* شخص يقوم مقام الاب او الام للعروس او العريس
 اثناء العرس . (المترجم .)

رجلا في نحو الستين من العمر ما زال نظرا خفيف الحركة . حمل سافيليتش الصندوق ورائي ، وطلب ان توقد النار ليحضر الشاي الذي لم اكن في يوم من الايام اخرج اليه مني الآن . وانصرف صاحب النزول لشغله .
سالت سافيليتش :

- اين الدليل ؟

اجابني صوت من الاعلى : «هنا يا صاحب السيادة» . رفعت بصري الى الرفوف فوق الموقد ، ورايت لحيه سوداء وعينين لامعتين . «هل تجمدت ، يا اخ ؟» - «كيف لا اتجمد وانا في هذا المعطف الخفيف ! كانت لدي فروة ، ولكن (لماذا اخفي عنك ؟) رهنتها البارحة عند بائع الخمر . لم اتصور البرد شديدا» . وفي هذه اللحظة دخل صاحب النزول يحمل سماورا يغطي . عرضت على الدليل ان يحتسى معنا قدحا من الشاي . نزل الفلاح من الرفوف فوق الموقد . فلاح لي مظهره رائعا : كان في نحو الاربعين من العمر ، متوسط القامة ، نحिला ، عريض المنكبين . وخط الشيب لحيته السوداء . وكانت عيناه الكبيرتان المتألفتان لا تفتآن تتحركان . وقد ارتسم على وجهه تعبير لطيف جدا ، ولكن فيه دهاء . وقد حلق شعره على شكل دائرة . وكان يرتدي معطفا فلاحيا مهلهلا وسروالا تتريسا . قدمت له قدح الشاي . احتساه وتفضلن وجهه . «يا صاحب السيادة ، اصنع لي معروفا ، واطلب لي قدحا من الخمر . فان الشاي ليس ما يشربه القوزاقي» . لبيت طلبه برضى . اخرج صاحب النزول من الخزانة قارورة وقدحا ، وتقدم منه ، ونظر في وجهه ، وقال : «آه ، مرة اخرى انت في ديارنا ! من اين جاء

بك الرب ؟» غمز دليلي غمزة ذات دلالة ، واجاب بمثل سائر : «طرت الى المزرعة انقر القنب ، فرمتني الجدة بحصاة ، واخطاتني . كيف جماعتكم ؟» .

اجاب صاحب النزول متابعا هذا الحديث المجازي :
- جماعتنا ! صاروا يتنادون لصلاة المساء ، ولكن زوجة القس لا تسمح لان القس قد خرج ضيفا والشمياطين تسرح في المقبرة .

اعترض المتشرد :

- اسكت ، يا عم . سينزل المطر ، وينبت الفطر ، وتكون للفطر سلة . والآن (وهنا غمز مرة اخرى) خبي' الفاس ، فحارس الغابة في المرصاد . يا صاحب السيادة ، نخب صحتك ! - وبهذه الكلمات تناول القدح ، ورسم علامة الصليب وشربه بجرعة واحدة . ثم انحنى لي ، وعاد الى الرفوف فوق الموقد .

آنذاك لم افهم شيئا من حديث اللصوص هذا . ولكنني حدست فيما بعد ان الامر متعلق بقضية فرقة يايك القوزاقية التي لم يكن قد مضى على قمعها آنذاك غير وقت قصير بعد عصيان عام ١٧٧٢ . كان سافيليتش يستمع وتقطيبة عدم الرضى مرتسمة على وجهه . وكان ينقل بصره بارتياح بين صاحب النزول وبين الدليل . كان النزول يقع في معزل ، في السهب ، بعيدا عن اية قرية ، وكان شديد الشبه بماوى للصوص . ولكن لم تكن في اليد حيلة . وكان من المستحيل حتى التفكير في مواصلة السير . وقد سلاني قلق سافيليتش كثيرا . وخلال ذلك تهيأت للنوم ، واضطجعت على مصطبة . وقرر سافيليتش ان يصعد

الى سطح الموقد . واستلقى صاحب النزول على الارض .
وبعد قليل كان النزول كله في شخير ، ونمت كالميت .
عندما استيقظت والضحي قد ارتفع من اليوم التالي ،
رايت العاصفة قد هدأت ، والشمس ساطعة ، والتلج
يرقد بساطا يخطف الابصار في السهب المترامى
الاطراف . كانت الخيول مشدودة الى العربة . سددت
النقود لصاحب النزول الذي تقاضانا اجرة معتدلة جدا
حتى ان سافيليتش لم يماكسه ، ولم يماحك كما هي
عادته ، وتبدد من راسه كل ريب الامس كلية .
استدعيت الدليل ، وشكرته على العون الذي اسداه
لنا ، وامرت سافيليتش ان يعطيه نصف روبل للنقود .
تجهم سافيليتش ، وقال : «نصف روبل للنقود ! على
اي شىء ؟ لانك تفضلت عليه بنقله الى النزول بالعربة ؟
هذا شأنك ، يا سيد ، ليست لدينا فلوس زائدة . اذا
اعطينا لكل من هب ودب ثمن فودكا فاننا انفسنا سنجوع
قريبا» . لم استطع مجادلة سافيليتش ، فان النقود ،
حسب تعهدى له ، تحت تصرفه الكلى . ولكننى قد
شعرت بالاسى لاننى لم استطع رد الشكر لانسان
انقذنا ، اذا لم يكن من مصيبة ، فمن وضع حرج جدا
على اقل تقدير . قلت ببرود : «حسنا ، اذا كنت لا
تعطيه نصف روبل فاعطه شيئا من ملابسى . فان ثيابه
خفيفة جدا . اعطه معطفى من فراء الارنب» .

قال سافيليتش :

- ارجوك ، يا عزيزى بيتر اندريفتش ! لماذا
تعطيه معطفك من فراء الارنب ، ان هذا الكلب سيبيعه
في اول خمارة وينفق ثمنه على الخمرة .

قال صاحبي المتشرد :

- ايها العجوز لا يهك عندئذ ان انفقه على المخمرة
ام لا . ان سيادته يخلع على معطفه وهذه هي ارادته
الكريمة . وانت كخادم ليس من شأنك ان تجادل ، بل
ان تطيع .

رد عليه سافيليتش بصوت غاضب :

- انت لا تخاف الله ، ايها اللص ! انت ترى انه
ما يزال صبيا لا يفقه ، وتستغل بساطته لتنهبه وانت
مسرور . وما حاجتك الى معطف السيد الصغير ؟ انه
لا يصلح لكثفك اللعينتين .

قلت لمربي :

- ارجو ان لا تتحذلق . اجلب الى المعطف حالا .

فتوجع سافيليتش :

- يا رب يا قدير ! ان المعطف جديد تقريبا !
وانت تهبه لا الى رجل طيب بل الى سكير حافي القدمين !
ومع ذلك فان معطف فراء الارنب قد جلب . واخذ
الفلاح يقيسه . حقا ان المعطف الذي صار صغيرا على
كان ضيقا عليه قليلا . الا انه استطاع لبسه على نحو
ما ، بعد ان تفتق في بعض خياطاته . وكاد سافيليتش
يعول حين سمع تقطع الخيوط . وسر المتشرد بهديتي
سرورا بالغا ، وودعني حتى العربة ، وقال بانحناءة
واطنة : «شكرا ، يا صاحب السيادة ! الله يجازيك على
احسانك . لن انسى افضالك ما حييت» . وسار في
سبيله ، وواصلت السير ، غير ملتفت الى تكدر
سافيليتش ، وسرعان ما نسيت عاصفة الامس ودليلي ،
والمعطف من فراء الارنب .

بعد وصولي الى اورنبورغ توجهت الى الجنرال توا .
رايت رجلا مديد القامة ، الا ان الشينوخة قد قوست
ظهره . وكان شعره الطويل ابيض تماما ، وسترته
العسكرية القديمة الناصلة اللون تجعله يشبه محاربا
في عهد آنا يوهانوفنا . ، وفي كلامه لكنة المانية قوية .
قدمت له رسالة ابي . ولدى ذكر اسمه نظر الى نظرة
سريعة ، وقال : «ما شاء الله ! منذ عهد غير طويل
كان ابوك يبدو في سنك . والآن انظر اى فتى اصبح
له ! آه ، الزمن ، الزمن !» فض الرسالة ، واخذ يقرأها
بصوت خافض ، مبديا ملاحظاته . «حضرة السيد اندريه
كارلوفيتش ، أمل ان تكون سيادتك» . . . ما هذا
التضخيم ؟ لا يستحي ! طبعا ان الانضباط هو الامر
الاول ، ولكن هل يكتب الى رفيق حميم بهذا الشكل ؟
«سيادتك لم تنس» . . . اهم . . . «و . . . عندما . . .
الفيلدمارشال الراحل مين . . . الحملة . . .
كذلك . . . و . . . كارولينكا» آه ، صديق ! كيف
لم ينس حتى الآن مغابثنا القديمة ؟ «والآن لندخل في
الموضوع . . . ابعت اليك ابني الخامل» احم . . .
«امسكه بقبضة حديدية» . . . ما هذه القبضة
الحديدية ؟ لا بد انه مثل روسي . . . - وكرر ملتفتا
الى : ما معنى «امسكه بقبضة حديدية» ؟
اجبته مبديا اكبر قدر من البراءة :
- يعنى عامله بلطف ، لا بصرامة مفرطة ، اعطه
حرية اكثر ، امسكه بقبضة حديدية .

• امبراطورة روسيا في ١٧٢٠-١٧٤٠ . (المترجم .)

- احم ، فاهم . . . «ولا تطلق له الحرية» . . .
لا ، يبدو ان القبضة الحديدية تعنى شيئا آخر . . «مع
هذه . . . جوازه» . . . اين هو ؟ نعم هو هنا . . .
«ارجو الكتابة الى فوج سيمينوفسكى» . . . حسنا ،
حسنا ، سينفذ كل شيء . . . «اسمح لى بان اعانقك
دون كلفة . . . رفيقك وصديقك القديم» . اها ! اخيرا
حزر . . الى آخره ، الى آخره . - ثم قال بعد ان اتم
قراءة الرسالة ، ووضع جوازي فى ناحية : «سينفذ كل
شيء . . . ستكون ضابطا منقولا الى فوج ك . . . ،
ولكيلا تضيع الوقت سافر غدا الى قلعة بيلوغورسك ،
حيث ستكون تحت امرة النقيب ميرونوف ، الانسان
الطيب النزيه . هناك ستكون فى الخدمة الحقيقية ،
وتتعلم الانضباط . لا شان لك فى اورنبورغ ، فان
العطالة مضره بالشباب . واليوم ارجو التفضل لتناول
الغداء فى بيتى .

فكرت فى سرى : «الامر يزداد صعوبة من ساعة الى
اخرى . ما اشقانى من كونى قد سجلت رقيب حرس
وانا فى بطن امى ! وتلك هى النتيجة : الى فوج ك . . .
قلعة نائية على حدود السهوب القرغيزية -
الكايستسكية ! . . .» تغديت على مائدة اندريه
كارلوفيتش ، وكان معنا مرافقه المعجوز . وقد ساد
مائدته اقتصاد المانى صارم ، وفكرت ان الخوف من
ان يرى احيانا ضيفا زائدا على مائدته العازبة كان جزءا
من السبب الذى حملته على الاسراع فى ابعادى الى
العامية . وفى اليوم التالى ودعت الجنرال ، وسافرت
الى مكان تعيينى .

الفصل الثالث

القلعة

نحن نعيش في قلعة
طعامنا الخبز ، وشرابنا الماء ؛
وحين ياتي الاعداء المفترسون
الينا لياكلوا طعامنا
سنولم للضيوف وليمة
من قذائف المدافع .

(اغنية للجنود .)

الناس القدامى ، يا عزيزى .

(من كوميديا فونفيزين وشاب نصف متعلم» .)

تقع قلعة بيلوغورسك على بعد اربعين فرسخا من اورنبورغ . امتد الطريق بمحاذاة شاطئ نهر يايك الشديد الانحدار . لم يكن النهر قد تجمد بعد ، فكانت امواجه الرصاصية اللون كثيفة نحو الشيطان المتشابهة المغطاة بالثلج . ووراءها انبسطت سهوب قيرغيزيا . غرقت في افكار حزينة في معظمها . لم تكن الحياة في حامية تستهوينى كثيرا . حاولت ان اتصور لنفسي النقيب ميرونوف رئيسى المقبل ، فتخيلته شيخا صارما غاضبا لا يعرف غير وظيفته ، ومستعدا لان يعتقلنى

على اقل هفوة ويطعمنى خبزا وماء . وفي غضون ذلك كان المساء قد اغسوسق . كنا نسير بسرعة كبيرة . سألت حوذي عربتي : «اما تزال القلعة بعيدة ؟» اجاب : «ليست بعيدة ، انها على مرأى البصر الآن» . نظرت في جميع الجهات ، متوقعا ان اشاهد التحصينات المخيفة ، والابراج والاسوار ، الا اننى لم ار غير قرية صغيرة محاطة بسيياج من جذوع الشجر . تكدست في احدى ناحيتها ثلاثة او اربعة اكداس من الدريس مغطاة بالثلج ، وارتفعت في الناحية الاخرى طاحونة مائلة اجنحتها الليفية متهدلة بتراخ . سألت بدهشة : «اين القلعة اذن ؟» اجاب الحوذي وهو يشير الى القرية : «هذه هي» . وبهذه الكلمة دخلناها . رايت عند البوابة مدفعا قديما من الحديد الصب . كانت الشوارع ضيقة متعرجة ، والبيوت واطنة ، ومعظم سقوفها من القش . امرت ان نتوجه الى الامر ، وبعد دقيقة وقفت العربة امام بيت خشبي صغير اقيم في مكان مرتفع ، قرب كنيسة خشبية ايضا .

لم يستقبلنى احد . سرت في الرواق ، وفتحت باب الغرفة الامامية . كان عجوز مبتور الساق جالس على منضدة يرقع كوع سترته العسكرية الخضراء بركة زرقاء . طلبت منه ان يبلغ الامر بحضورى . اجاب العجوز المبتور الساق : «ادخل ، يا بنى ، ان جماعتنا في البيت» . دخلت غرفة نظيفة مؤثثة على الطراز القديم . وضع في احد اركانها صوان للاوانى ، وعلق على الجدار دبلوم تخرج ضابط وراء زجاجة محاطة باطار . وبالقرب منها ازدهت لوحات رخيصة تصور الاستيلاء على

كيستيرين واوتشاكوف ، وانتقاء خطيبة ، وتشجيع
 قطة . وبالقرب من النافذة جلست عجوز ترتدى سترة
 مبطنة ، وتعتصب بمنديل . كانت تلف خيوطا كان عجوز
 ضئيل اعور في سترة ضابط يمسكها على يديه
 المتباعدين . سالتني العجوز وهي ماضية في عملها :
 «ما حاجتك ، يا بني ؟» اجبت باننى جئت للخدمة
 العسكرية ، ولاقدم نفسى الى حضرة الامر تادية لواجبي ،
 وبهذه الكلمة توجهت الى العجوز الاعور ، وقد ظننته
 الامر ، الا ان ربة البيت العجوز قاطعت كلامى الذى
 حفظته سلفا ، قائلة : «ايفان كوزميتش ليس في
 البيت ، ذهب ليزور الاب غيراسيم ، وعلى كل حال انا
 زوجته ، على الرحب والسعة . اجلس ، يا بني» .
 ونادت الخادمة ، وامرتها بان تستدعى ضابط الصف .
 نظر العجوز الضئيل الى بعينه الواحدة في فضول ، وقال :
 «هل تتكرم وتقول لى في اى فوج خدمت ؟» ارضيت
 فضوله . فاستمر يسأل : «هل تتكرم وتقول لى لماذا
 نقلوك من الحرس الى حامية ؟» اجبته بان هذه كانت ارادة
 رؤسائى . فقال السائل الملحاح : «الارجع بسبب
 تصرفات لا تليق بضابط الحرس» . فقالت له زوجة
 الامر : «كفى ثرثرة . انت ترى ان الشاب تعبان من
 السفر ، وليس له مزاج للحديث معك . . . (مد يديك
 اكثر استقامة . . .) وانت ، يا بني - واصلت كلامها
 تخاطبنى - لا تحزن اذا كانوا قد نقلوك الى مكاننا
 النانى . فلست بالاول ولا بالاخير . اصطبر وسيعجبك
 الامر . هذا هو شفابرين الكسى ايفانوفيتش نقل الينا
 منذ اربعة اعوام بسبب قتل . الله يعلم اى شيطان

وسوس له . ذهب خارج المدينة مع احد الضباط . واخذ كل واحد منهما سيفه . وراحا يتضاربان ، حتى طعن الكسى ايفانوفيتش الضابط ، وبحضور شاهدين ! فما العمل ؟ لا امان من الشيطان» .

وفي تلك اللحظة دخل ضابط الصف ، وهو قوزاقى شاب حسن القوام . فقالت له زوجة الأمر : «يا مكسيميتش ! اسكن السيد الضابط مسكنا ، وليكن اكثر نظافة» . اجاب ضابط الصف : «سمعا وطاعة ، يا فاسيليسا يفوروفنا . هل نسكن سيادته مع ايفان بوليجايف ؟» قالت زوجة الأمر : «لا تهرف ، يا مكسيميتش ، لا يوجد مكان عند بوليجايف ، ثم انه عراب ابنتى ، وهو لا ينسى اننا رؤساؤه . خذ السيد الضابط ، ما اسمك واسم ابيك ، يا ولدى ؟ بيتر اندرييفيتش ؟ خذ بيتر اندرييفيتش الى سيميون كوزوف . ان هذا المحتال اطلق حصانه فى مزرعتى . هل كل شىء على ما يرام ، يا مكسيميتش ؟

قال القوزاقى :

- كل شىء هادى ، والحمد لله . لكن حادثا واحدا قد حدث ، وهو ان العريف برخوروف تشاجر فى الحمام مع اوستينيا نيفولينا على دلو من الماء الحار .

قالت زوجة الأمر للعجوز الاعور :

- يا ايفان ايفناتيفيتش حقق مع برخوروف واوستينيا ، واعرف ايهما على حق ، وايهما على باطل . ثم عاقب كليهما . والآن ، يا مكسيميتش ، اذهب بحراسة الله . يا بيتر اندرييفيتش ، سياخذك مكسيميتش الى مسكنك .

انحنيت مودعا . قادني ضابط الصف الى بيت يقع على شاطئ النهر المرتفع ، في اقصى القلعة . كانت عائلة سيميون كوزوف تحتل نصف البيت ، بينما خصص النصف الآخر لى . وكان يتالف من حجرة واحدة ، نظيفة جدا مقسومة بحاجز الى قسمين . اخذ سافيليتش ينظم الحاجيات فيها ، واخذت انا انظر في نافذة ضيقة ، حيث انداح امامى سهب كثيب ، وبعض البيوت القديمة تبدو الى جانب بينما كانت بعض الدجاجات تسرح في الشارع . ونادت عجوز واقفة عند مدخل بيت ويدها معلف على خنازير ردت عليها بقباغ ودى . تلك هى الناحية التى كتب على ان اقضى شبابى فيها ! واستولى على السام ، فابتعدت عن النافذة ، ووقدت للنوم دون عشاء ، رغم الحاح سافيليتش الذى ظل يكرر بحزن عميق : «يا رب يا قدير ! لا ياكل شيئا ! ماذا ستقول السيدة امه اذا اصاب الهزال ابنها؟»

ما كدت ارتدى ملابسى فى صباح اليوم التالى حتى فتح الباب ، ودخل على ضابط شاب قصير القامة اسمر الوجه على قدر واضح من القبح ، الا انه مفعم بالحيوية . وقال لى بالفرنسية : «اعذرنى على دخولى عليك بلا كلفة لاتعرف عليك . بالامس سمعت عن قدومك ، واستولت على رغبة شديدة فى رؤية وجه انسان اخيرا فلم اصطبر . ستفهم ذلك حين تعيش هنا بعض الوقت» . وحدثت ان هذا هو الضابط الذى اخرج من الحرس بسبب المبارزة . تعارفنا فى الحال . كان شفا برين رجلا ذكيا . كان حديثه حادا ومشوقا . وصف لى بدعابة كبيرة عائلة الامر ، ومجتمعه ، والاقليم الذى

ساقنى اليه القدر . وكنت اضحك من صميم القلب حين دخل على ذلك الرجل العاجز الذى كان يرقع سترته فى الحجرة الامامية من بيت الامر . ودعانى باسم فاسيليسا يفوروفنا بان اتغدى معهم . وعرض شفابرين ان يرافقنى .

لدى اقترابنا من بيت الامر راينا فى الساحة الصغيرة حوالى عشرين رجلا من ذوى العاهات لهم صفائر طويلة ، وقبعات مثلثة . وقد اصطفوا فى صف واحد بينما وقف الامر فى المقدمة ، وهو رجل عجوز خفيف الحركة مديد القامة يرتدى طاقية ومبذلا صينيا . حين وقع بصره علينا اقبل نحونا ، وقال لى بعض الكلمات الرقيقة ، وعاد الى امرته . وقفنا ننظر الى التدريب ، الا انه رجانا ان نذهب الى فاسيليسا يفوروفنا ، واعدنا ايانا بان يأتى فى اثرنا . واضاف : «لا شىء هنا يستحق ان تشاهداه» .

استقبلتنا فاسيليسا يفوروفنا ببساطة وفرح ، وعاملتنى معاملة صاحب قديم . وراح العاجز وبالأشياء يعدان المائدة . قالت زوجة الامر : «صاحبى ايفان كوزميتش منكم بالتدريب اليوم كثيرا ! باشا ، ادعى السيد الى الغداء . ولكن اين ماشا ؟» وفى تلك اللحظة دخلت فتاة فى نحو الثامنة عشرة من العمر ، مدورة الوجه ، موردة الوجنتين ، شعرها الاشقر الوضاء قد سرح بنعومة وراء اذنيها المتوهجتين . لم تعجبني فى النظرة الاولى . فقد نظرت اليها بتحفظ ، ذلك لان شفابرين وصف لى ماشا ابنة الامر كفتاة حمقاء تماما . جلست ماريا ايفانوفنا (ماشيا) فى ركن ، واخذت تخط .

وخلال ذلك قدم حساء الكرنب . ولما لم تر فاسيليسا يغورفنا زوجها ارسلت بالاشا في طلبه مرة اخرى . «قولى للسيد ان الضيوف ينتظرون ، والحساء يبرد ، والتدريب لا يهرب والحمد لله ، فيما بعد سيكون له الوقت الكافي للصراخ» . وبعد قليل حضر الأمر يرافقه العجوز الاعور . فقالت له زوجته : «ما هذا ، يا عزيزى ؟ الطعام مصفوف على المائدة منذ مدة ، وانت لا تقبل ان تاتي» . اجاب ايفان كوزميتش : «انت ترين ، يا فاسيليسا يغوروفنا اننى كنت مشغولا بالخدمة . كنت ادرب الجنود» . فردت زوجته : «كفى ، هذا مجرد كلام ان تدرب الجنود ، فلا هم صالحون للخدمة العسكرية ، ولا انت عارف جوهرها . الاجدر بك ان تجلس في البيت ، وتصلى للرب . ايها الضيوف ، ارجو ان تتفضلوا الى المائدة» .

جلسنا الى الغداء . لم تسكت فاسيليسا يغورفنا دقيقة واحدة ، وامطرتنى الاسئلة : من هما والداى ، وهل هما حيان ، واين يعيشان ، وما هى ثروتهما ؟ ولما سمعت ان والدى يملك ثلثمائة نفس من الفلاحين الاقنان ، قالت : «ما شاء الله ! ما زال فى الدنيا اناس اثرياء ، اما نحن ، يا بنى ، فليس لنا غير نفس واحدة هى الفتاة بالاشا ، ولكن حياتنا تسير رويدا رويدا ، والحمد لله . ليس لنا غير مصيبة واحدة ، وهى ان ماشا فى سن الزواج ، واى مهر نملك لها ؟ مشطاً ومكنسة ، وثلاثة كوبيكات (غفرانك يا رب !) تذهب بها الى الحمام . لطيف لو وجدنا لها رجلا طيبا ، والا فستظل عانسا طوال عمرها» . حدثت ماريا ايفانوفنا ،

ورايته مضرجة بحمرة الخجل ، بل ان قطرات الدموع
نزلت على صحنها . اشفت عليها ، فاسرعت في تغيير
الحديث . قلت في غير ما رابطة : «سمعت ان
الباشكيريين يستعدون للهجوم على قلعتكم» . سال
ايفان كوزميتش : «من سمعت ذلك يا ولدي ؟»
اجبت : «قيل لي ذلك في اورنبورغ» . قال الأمر :
«اقاويل ! لم نسمع هنا اى شىء منذ زمن طويل .
الباشكيريون شعب اصيب بالقزع ، والقيرعيزيون
اخذوا درسا . ولا اظنهم يهاجموننا ، وان هاجمونا
فسارهبهم رهبة تجعلنى رخي البال عشر سنين بعدها» .
فتابعت قولى مخاطبا زوجة الأمر : «وانت الا تخافين
من البقاء في قلعة معرضة لمثل هذه المخاطر ؟» اجابت :
«تعودت ، يا بنى . مضت عشرون عاما على نقلنا من
الفوج الى هنا ، واعوذ بالله ، كم كنت اخاف من هؤلاء
الملاعين ! كنت ما ان المح قبعاتهم من فراء الثعلب ،
واسمع زعيقهم ، حتى يتجمد قلبى ، قسما بالله ! والآن
تعودت حتى صرت لا ابارح مكانى حين يبلغوننا بان
هؤلاء الاشرار يحومون حول القلعة» .

قال شفابرين بعظمة :

- فاسيليسا يفوروفنا سيده شجاعة . وايفان
كوزميتش يمكن ان يشهد على ذلك .

قال ايفان كوزميتش :

- اسمع ، يا فتى . ان هذه المرأة ثابتة الجنان .
سالت :

- هل ماريما ايفانوفنا جريئة ايضا مثلك ؟
اجابت امها :

- تسأل هل ماشا جريئة ؟ لا ، ان ماشا جبانة .
انها حتى الآن لا تستطيع ان تسمع طلقة من بندقية ،
ما ان تسمعها حتى ترتعد فرائصها . قبل عامين حين خطر
ببال ايفان كوزميتش ان يطلق من مدفعنا تكريما لعيد
ميلادى كادت ابنتى ان تفارق الحياة من شدة الخوف .
ومنذ ذلك الحين لم نطلق النار من المدفع الملعون .
نهضنا من وراء المائدة . ذهب الأمر وزوجته ليناما
القبيلولة . وذهبت انا الى شفايرين ، حيث قضيت معه
المساء كله .

الفصل الرابع

المبارزة

— حسنا ، خذ اهبتك

ما هي لحظة واطمن بطنك !

(من كوميديا وغرباء الاطوار ، لكنياجنين .)

مضت بضعة اسابيع ، وصارت حياتي في قلعة بيلوغورسك محتملة لي بل ومريحة . وصرت استقبل في بيت الأمر كقريب لهم . كان الزوج والزوجة شخصين محترمين للغاية . كان ايفان كوزميتش ، وهو ابن جندي ، رجلا غير متعلم ، بسيطا ، الا انه شريف للغاية ، وطيب القلب . وكانت زوجته توجهه ، وكان ذلك يلائم ما طبع عليه من التراخي . وكانت فاسيليسا يفوروفنا تنظر الى شؤون الخدمة العسكرية كما تنظر الى شؤونها المنزلية ، وتدير القلعة على النحو الذي تدير به منزلها . وسرعان ما تخلت ماريا ايفانوفنا عن خجلها في حضوري . وتم التعارف بيننا . فوجدت فيها فتاة متعلقة ورقيقة المشاعر . ودون ان ادري رايت نفسي متعلقا بهذه العائلة الطيبة ، وحتى بايفان ايفانوفنا ، ضابط الحامية الاعور الذي زعم شفايرين

انه على علاقة محرمة بفاسيليسا يفورفنا ، وهو امر لم يكن له ظل من الصحة ، الا ان شفابرين كان لا يقلق لذلك .

اعطيت لى رتبة ضابط . ولم تكن خدمتى مرهقة . فلم تكن فى هذه القلعة المحروسة بعناية الله استعراضات ولا تدريبات ، ولا حراسات . كان الامر ، برغبته الخاصة ، يدرّب جنوده احيانا ، الا انه لم يستطع بعد ان يعلمهم جميعا اين هى الجهة اليسرى ، واين اليمنى ، رغم ان الكثير منهم كان يرسم علامة الصليب على نفسه قبل كل استدارة حرزا له فى الوقوع فى الخطأ . كان لدى شفابرين بعض الكتب الفرنسية . اخذت اطالعها ، وتولد فى نفسى ميل الى الادب . فكنت فى الصباح اقرا ، واتمرن على الترجمة ، وانظم الشعر احيانا . وكنت اتناول طعام الغداء كل يوم تقريبا على مائدة الامر ، حيث كنت اقضى فى العادة بقية النهار ، وحيث يأتى فى المساء الاب غيراسيم مع زوجته اقولينا بامفيلوفنا ناقلة الانباء فى المنطقة كلها . وطبيعى اننى كنت التقى بشفابرين كل يوم ، الا ان المحادثة معه كانت تفقد طلاوتها يوما بعد يوم . وضقت كثيرا بنكاته المستمرة حول عائلة الامر ، ولا سيما الملاحظات اللاذعة عن ماريا ايفانوفنا . ولم يكن فى القلعة مجتمع آخر ، غير اننى لم اكن ارغب فى مجتمع آخر . ولم يضطرب الباشكيريون رغم التنبؤات . وساد الهدوء حول قلعتنا . الا ان السلام قد تعكر فجأة بمشاحنة .

ذكرت سابقا اننى اخذت انشغل فى الادب . وكانت

محاولاتي ، بالنسبة لذلك الوقت ، طيبة . وقد اثنى عليها الكسندر بتروفيتش سماروكوف * ثناء عاظرا بعد بضعة اعوام . نجحت ذات مرة في كتابة اغنية كنت راضيا عنها . ومعروف ان الناظرين يبحثون في بعض الاحيان عن مستمع متعاطف بحجة الرغبة في البحث عن النصائح . وهكذا استنسخت اغنيتي ، وحملتها الى شفابرين الذي كان المقتدر الوحيد في القلعة كلها على تقييم الشعر . بعد مقدمة قصيرة اخرجت كراستي الصغيرة من جيبى ، وقرات له الابيات التالية :

ادمر فكرتى عن الحب
واحاول ان انسى الحلوة
وبتفادى ماشا
اريد ان الال الحرية 1
الا ان العيون التي اسرتنى
تترأى لى على الدوام ؟
عصفت بروحى
وحطمت هدونى .
اشفقى ، يا ماشا ، على روحى
وقد عرفت آلامى
وترين فيقتى
واسرك لى .

- ما رأيك في هذا ؟

سالت شفابرين ذلك متوقعا ثناء استحقه بالتأكيد .
الا ان شفابرين السمع في العادة اعلن لاسفى الشديد
بلهجة قاطعة ان اغنيتي ركيكة . سألته كاتما انزعاجي :
* كاتب صحفى ومسرعى روسى عاش في القرن الثامن
عشر . (الناشر .)

- ولم ذاك ؟

اجاب :

- لان هذه الاشعار جديرة بان ينظمها معلمسى فاسيلي كيريلوفيتش تريدياكوفسكى * ، وهى تذكرنى كثيرا بمثانيه الغرامية .

وهنا اخذ منى الكراسى ، واخذ يحلل بلا رحمة كل بيت ، وكل كلمة ساخرا منى الذع سخرية . لم اتحمل فانتزعت كراستى من يديه ، وقلت اننى لن اريه بعد اليوم شيئا من اشعارى . وضحك شفايرين من هذا الوعيد ايضا . وقال : «سنرى هل ستفى بكلمتك . ان حاجة الشعراء الى مستمع ضرورية كحاجة ايفان كوزميتش الى قارورة من الفودكا قبل الغداء . ومن ماشا هذه التى تعلن لها هواك المشبوب ، وتعاستك فى الحب ؟ العلهما ماريا ايفانوفنا ؟» .

اجبته متجهما :

- لا يعينك من تكون ماشا هذه . انا لا اطلب رايك ، ولا تخميناتك .

فاستمر شفايرين يقول مثيرا انزعاجى اكثر فاكثر :

- اها ! شاعر مغرور ، وعاشق متواضع . ولكن نصيحة صديق : اذا اردت نجاحا فانا انصحك بان تتوسل اليها بغير الاغانى .

- ماذا يعنى هذا ، يا سيد ؟ ارجو توضيحا .

- بكل سرور . هذا يعنى اذا كنت راغبا فى ان

* شاعر ومترجم روسى عاش فى القرن الثامن عشر . كانت قصائده كثيرا ما تثير سخرية معاصريه . (الفاخر .)

تاتيك ماشا ميرونوفا عند هبوط الظلام ، فاعدها زوجا
من الاقراط بدلا من الاشعار الرقيقة .

فار دمي . فسألته كاظما غيظي بصعوبة :

- ولماذا ترى فيها هذا الراى ؟

اجاب بسخرية سامة :

- لاننى اعرف بالتجربة خلقها وعادتها .

صرخت به كالمجنون :

- انت تكذب ، ايها الوقح . انت تكذب باشد

الاكاذيب صلافة .

وتغيرت ملامح وجه شفابرين . قال وهو يضغط

على يدي :

- لن يمر ذلك بدون شىء . انا ادعوك للمبارزة .

- فى اى وقت تشاء !

اجبت بذلك مسرورا . كنت فى تلك اللحظة مستعدا

لان امزقه .

توجهت فى الحال الى ايفان ايفناتيفيتش ، فوجدته

والابرة فى يديه . كان ، بتكليف من زوجة الامر ، ينظم

الفطر فى خيط ليجفف ويخزن للشقاء . قال حين رآنى :

”بيتر اندريفيتش ! يا مرحبا ! كيف بعثك الله الينا ؟

فى اى امر ، اذا سمحت وقلت ؟“ . شرحت له بكلمات

موجزة اننى تخاصمت مع الكسى ايفانوفيتش ، وانا

ارجوه ، اى ارجو ايفان ايفناتيفيتش ، ان يكون

شاهدى . اصفى ايفان ايفناتيفيتش الى بانتباه ، مبخلقا

فى بعينه الوحيدة . وقال لى : «انت تقول انك تريد ان

تظمن الكسى ايفانوفيتش ، وتريد ان اكون شاهدا على

ذلك ؟ هكذا ؟ اود ان اسأل“ .

- بالضبط .

- ارجوك ، يا بيتر اندريفيتش ! اية نية نويت !
تشاتمت مع الكسى ايفانوفيتش ؟ ليست مصيبة كبيرة !
الشتائم لا تقتل احدا . اذا كان قد شتمك فاشتمه . واذا
كان قد صفعك فاصفعه على اذنه ، مرتين وثلاثا .
وتفرقا . وسنصالحكما فيما بعد . فهل لى ان اسال ما
وجه الخير فى ان يقتل الانسان قريبه ؟ قد يكون من
الخير ان تقتل الكسى ايفانوفيتش ، سامحه الله ، فانا
لا اميل اليه . ولكن ماذا لو قتلك ؟ اى شىء سيكون
ذلك ؟ من سيكون الاحق المغرر به ؟ قل لى بربك .

ولم يزحزحنى نقاش هذا الضابط المتبصر . وبقيت
ثابتا على ما نويت عليه . قال ايفان ايفناتيفيتش :
« كما تريد . افعل ما تراه مناسباً . ولكن لماذا اكون
شاهدا هنا ؟ باية مناسبة ؟ هل لى ان اسال ما وجه
العجب فى ان يتقاتل الناس ؟ لقد تقاتلت مع السويديين
والاتراك ، والحمد لله ، ورأيت كل شىء » .

واخذت بطريقة ما اوضح له مهمة الشاهد ، الا ان
ايفان ايفناتيفيتش لم يستطع ان يفهمنى . قال : « كما
تريد . اذا كان على ان اتدخل فى هذا الامر فانى لا
محالة ذاهب الى ايفان كوزميتش لاخبره حسب ما يقتضى
الواجب العسكرى بان فى قلعتنا تحاك جناية مخالفة
لمصلحة الدولة ، فلعل السيد الأمر سينوى اتخاذ
الاجراءات اللازمة . . . »

فزعت ، واخذت ارجو ايفان ايفناتيفيتش الا يبلغ
الأمر شيئا ، واقنعتة بعد جهد جهيد ، فاعطانى عهدا ،
وقررت تركه وسبيله .

قضيت المساء ، على عادتي ، في بيت الأمر . بذلت جهدي لابدو مرحا خلى البال ، لكيلا اثير ادنى شك ، واتحاشى الاسئلة المتعبة ، ولكننى اعترف باننى لم اكن املك رباطة الجاش التى كان يفخر بها معظم اولائك الذين يجدون انفسهم في موضع مثل موضعى . عمدت في ذلك المساء الى اظهار الرقة والعذوبة . وقد اعجبتنى ماريا ايفانوفنا اكثر من المعتاد . فان التفكير باننى ربما اراها لآخر مرة جعلها تبدو لعينى في غلالة من الجاذبية . وجاء شفابرين ايضا . انتحيت به ناحية ، وابلغته بحديثى مع ايفان ايفناتيفيتش . فقال لى بجفاف : «لا حاجة لنا الى شهود . سندبر امرنا بدونهم» . واتفقنا على ان نتبارز وراء اكداس الدريس القريبة من القلعة ، وان نكون هناك في الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . كنا نتحدث بمودة على ما يبدو ، حتى ان ايفان ايفناتيفيتش اطلق لسانه في الحديث فرحا ، وقال لى في هيئة راضية : «نعم ما فعلتما . فان مصالحة رديئة خير من مشاحنة حسنة . ولتكن هذه المصالحة غير نزيهة ولكنها سليمة» .

قالت زوجة الأمر التى كانت تستخير الورق في ركن من الغرفة :

- ماذا قلت ، يا ايفان ايفناتيفيتش . انا لم اسمع جيدا .

لاحظ ايفان ايفناتيفيتش علائم الضيق على ، وتذكر عهده لى ، فارتبك ، ولم يدر بماذا يجيب . فخف شفابرين لنجدته قائلا :

- ايفان ايفناتيفيتش يبارك مصالحتنا .

- ومع من تشاحنت ، يا بنى ؟
- تبادلنا كلمات خسنة انا وبيتر اندريفيتش .
- وعلى اى شىء ؟
- على تفاهة فارغة ، على اغنية ، يا فاسيليسا
يفوروفنا .
- وجدا ما يتشاحنان عليه ! على اغنية ! ولكن
كيف حدث ذلك ؟
- كان الامر على النحو التالى : قبل مدة قصيرة نظم
بيتر اندريفيتش اغنية ، واليوم غناها لى ، فوردت على
لسانى اغنيتى المفضلة :

يا ابنة الامر
لا تتزهمى فى منتصف الليل . . .

فحصل سوء تفاهم . وغضب بيتر اندريفيتش ،
ولكنه ادرك فيما بعد ان لكل امرئ الحق فى ان يظنى
اغنيته وبذلك انفض الامر .

كادت وقاحة شفابرين تخرجنى عن اطوارى ، الا ان
احدا سواى لم يفهم غمزاته الفظة ، وعلى اقل تقدير لم
يولها احد اهتماما . وتحول الحديث من الاغنيات الى
ناظمى الاشعار ، فلاحظ الامر انهم جميعا اناس
متحللون ، وسكيريون مدمنون ، ونصحنى بود ان اترك
نظم الاشعار ، لانه امر يتعارض مع الخدمة العسكرية ،
ولا يؤدى الى خير .

لم احتمل وجود شفابرين . فودعت الامر وعائلته
بعد وقت قصير . وحينما وصلت الى البيت عاينت

سيفي ، وجربت نهايته ، واويت الى فراشي ، بعد ان امرت سافيليتش بان يوقظني في الساعة السابعة . في الوقت المحدد في اليوم التالي كنت واقفا وراء اكداس الدريس انتظر خصمي . وسرعان ما جاء هو ايضا . وقال لي : «ينبغي ان نسرع ، فقد يجدوننا» . خلعنا سترتينا العسكريتين ، وبقينا في صدارينا ، وانتضينا سيفينا . وفي تلك اللحظة ظهر ايفان ايفناتيفيتش فجأة من وراء كدس ومعه خمسة من ذوى العاهات . وطلب ان نذهب الى الامر . اطعناه منزعجين ، واحاط الجنود بنا ، وسرنا الى القلعة في اثر ايفان ايفناتيفيتش ، الذي قادنا بهيئة منتصرة ، ماشيا بمهابة مذهلة .

دخلنا بيت الامر . فتح ايفان ايفناتيفيتش الباب هاتفا بضخامة : «جئت بهما !» استقبلتنا فاسيليسا يغوروفنا قائلة : «آه يا رب ، ما يعنى هذا ؟ كيف ؟ وكيت ؟ في قلمتنا محاولة قتل ! يا ايفان كوزميتش ، اعتقلهما حالا ! بيتر اندريفيتش ! الكسى ايفانوفيتش اخلعا سيفيكما ، هاتياهما ، هاتياهما : يا بلاشكا ، خذنى هذين السيفين الى المستودع . يا بيتسر اندريفيتش ! لم اتوقع ذلك منك . الا تستحي ؟ قد ياتى ذلك من الكسى ايفانوفيتش الذى اخرج من الحرس بسبب قتله انسانا ، وهو لا يؤمن بالله . اما انت ؟ كيف تتصرف هذا التصرف ؟»

وافق ايفان كوزميتش زوجته تمام الموافقة وقال : «ان فاسيليسا يغوروفنا على حق . المبارزات ممنوعة رسميا في قانون الجيش» . وخلال ذلك اخذت بلاشكا

سيفينا منا ، وحملتها الى المستودع . ولم اتمالك
نفسى فضحكت . وبقي شفايرين محافظا على رزانتة .
قال لزوجة الامر : «مع كل احترامى لك لا يسعنى الا
ان اقول ان من العبث ان تقلقى نفسك فى محاكمتنا .
اتركى ذلك لايفان كوزميتش ، فذلك هو شأنه » .
وقالت زوجة الامر : «آه ، يا بنى ! اليس الزوج
والزوجة روحا واحدة وجسما واحدا ؟ يا ايفان
كوزميتش ! ماذا تنتظر ؟ اسجنهما فوراً فى مكانين
مختلفين ، على الخبز والماء ، حتى يتخليا عن حماقتهما .
وليفرض عليهما الاب غيراسيم العقاب لكى يقدمنا صلاة
الغفران للرب ويعترفوا باخطائهما امام الناس» .
لم يعرف ايفان كوزميتش بماذا يحكم . كانت ماريا
ايفانوفنا شديدة الشحوب تماما . ثم هدات العاصفة
شيئا فشيئا ؛ وسكنت زوجة الامر ، وحملتنا على ان
يقبل احدنا الآخر . ردت بالاشكا الينا سيفينا . وخرجنا
من بيت الامر متصلحين فى الظاهر . رافقنا ايفان
ايغناثيفيتش . قلت له غاضبا : «الم تستع من الوشاية
بنا الى الامر بعد ان قطعت لى عهدا بالا تفعل ذلك ؟»
قال : «والله العظيم لم اقل ذلك لايفان كوزميتش .
ولكن فاسيليسا يغوروفنا هى التى استخرجت كل شىء
منى . وهى التى امرت بكل شىء دون علم الامر . على
الصوم نعمد الله على ان كل شىء قد انتهى هذه
النهاية» . وبهذه الكلمة انعطفت الى بيته ، وبقيت
وشفايرين وحدنا . قلت له : «لا يمكن ان تنتهى
قضيتنا بهذا» . اجاب شفايرين : «بالطبع ، ستدفع
بدمك جزاء كلامك السليط على ؛ ولكنهم سيظلون

يراقبوننا . يجب ان نتظاهر بالمصالحة بضعة ايام . الى اللقاء !» . وافترقنا وكان شيئا لم يحدث .
 عندما عدت الى بيت الامر ، جلست ، على عادتي ، قرب ماري ايفانوفنا . كان ايفان كوزميتش متغيبا عن البيت . وكانت فاسيليسا يفوروفنا مشغولة بشؤون المنزل . اخذنا نتحدث بصوت خفيض . عاتبنتى ماري ايفانوفنا برقة على الانزعاج الذى سببته للجميع بتخاصمى مع شفايرين . قالت : «تجمدت خوفا حين قالوا لنا انكما تنويان المبارزة بالسيف . ما اغرب الرجال ! انهم مستعدون ، بسبب كلمة سينسونها بعد اسبوع حتما ، ان يتقاتلوا ، ويضحوا ليس بحياتهم فقط ، بل وبراحة اولئك الذين . . . ولكنى واثقة من انك لم تكن البادى فى الخصام . المذنب هو الكسى ايفانوفيتش حتما» .

- ولماذا تظنين ذلك ، يا ماري ايفانوفنا ؟
- هكذا . . . انه شديد التهكم ! انا لا احب الكسى ايفانوفيتش . انفر منه كثيرا . ولكن الغريب اننى لا اريد ابدا ان اكون دون اعجابه . ان ذلك يثير قلقى وفزعى .
- وماذا تظنين ، يا ماري ايفانوفنا ؟ هل هو معجب بك ام لا ؟
- ارتبكت ماري ايفانوفنا ، واحمرت وقالت :
- يبدو لى . . اتخيل انه معجب بى .
- ولماذا يخيل لك ذلك ؟
- لانه خطبنى .
- خطبك ! هل فعل ذلك ؟ ومتى ؟

- في العام الماضي . قبل شهرين من قدومك .
- ولم توافقى ؟

- كما ترى . بالطبع ان الكسى ايفانوفيتش رجل ذكى ، ومن عائلة طيبة ، ويملك ثروة ؛ ولكنى كلما فكرت بأنه سيستحتم على ان اقبله امام الناس عند الزواج في الكنيسة اقول لنفسى : لن يكون ذلك ا مهما يكن من الشئ .

فتحت كلمات ماري ايفانوفنا عيني ، واوضحت لى الكثير . وفهمت لماذا كان شفايرين يلاحقها على الدوام بذلك الكلام السليط . والارجح انه لاحظ ميل احدنا الى الآخر ، وسعى الى تنفير احدنا من الآخر . وبدأت لى الكلمات التى سببت خصامنا اكثر بذاة ، حين رايت فيها كذبا متعمدا بدلا من السخرية الفظة الوقحة . وقويت رغبتى فى معاقبة هذا الوقح البذى اللسان ، فاخذت انتظر الفرصة المواتية بنفاد صبر .

ولم يطل انتظارى . فى اليوم التالى ، بينما كنت انظم قصيدة حزينة ، واقضم القلم فى انتظار الوزن ، دق شفايرين نافذة حجرتى . تركت القلم ، وتناولت السيف ، وخرجت اليه . قال شفايرين لى : «ولم التأجيل ؟ لا احد يراقبنا . لنخرج الى النهر . ولن يراقبنا احد هناك» . سرنا صامتين . وهبطنا فى درب شديد الانحدار ، ووقفنا عند النهر تماما ، وانتضينا سيفينا . كان شفايرين احنق منى ، الا اننى اقوى منه واكثر جراءة ، وقد استفدت من دروس قليلة فى المبارزة اعطانيها المسيو بوبريه الذى كان جنديا فى يوم من الايام . ولم يتوقع شفايرين ان يجد فى شخصي خصما

خطيرا جدا . امضينا وقتا طويلا دون ان نستطيع احدنا ان ينال الآخر بأذى ، واخيرا وقد لاحظت ان شفايرين اخذ يضعف ، اخذت اهاجمه بقوة ، وطارده الى النهر تقريبا . وفجأة سمعت اسمي بصوت عال . ادرت بصري ، ورايت سافيليتش راكضا نحوي على الدرب المنحدر . . . وفي تلك اللحظة احسست بوخزة قوية في الصدر اسفل كتفي الايمن ، وسقطت مغشيا عليّ .

الفصل الخامس

هـ

ايها الفتاة الجميلة !
لا تتزوجي في وقت مبكر ؛
استشيرى ، يا فتاة ، اباك وامك ،
اباك وامك ، والاسرة والعشيرة ؛
اجمى ، يا فتاة ، العقل والحجا ،
العقل والحجا والمهر .
(الغنية شعبية .)
الت تنسيننى اذا وجدت الفضل منى ،
وتذكريننى اذا وجدت اسوأ منى .
(الغنية شعبية .)

بعد ان افقت على نفسى بقيت وقتا طويلا غير قادر
على الاستذكار ، وغير فاهم ما حصل لى . وجدت نفسى
مستلقيا على السرير فى حجرة غريبة على ، شاعرا بوهن
شديد . وكان سافيليتش واقفا امامى وبيده شمعة .
حل شخص ، بعذر ، الضمادات التى شد بها صدرى وكتفى .
واخذت افكارى تصفو قليلا . تذكرت مبارزتى ،
وحدست باننى جريح . وفى تلك اللحظة صر الباب .
وصدر صوت هامس جعلنى ارتجف : «ماذا ؟ كيف

حالته ؟» اجاب سافيليتش متحسرا : «ما زال في وضعه السابق ، ما زال في غيبوبته منذ خمسة ايام» . اردت ان التفت الا اننى لم استطع . جاهدت ونطقت : «اين انا ؟ من هنا ؟» اقتربت ماريا ايفانوفنا من سريري ، وانحنت علىّ وقالت : «كيف تجد نفسك ؟» اجبت بصوت واهن : «حمدا لله . اهذا انت ، يا ماريا ايفانوفنا ؟ خبريني . . .» ولم استطع ان استمر في الكلام فسكت . تاوه سافيليتش ، وارتسم الفرح على وجهه . قال مكررا : «صحا ! صحا ! المجد لك ، ايها العلي ، آوه ، يا بيتر اندريفيتش يا عزيزي ، افزعتنى ! اتظنها سهلة ؟ خمسة ايام ! . .» قاطعته ماريا ايفانوفنا بقولها : «لا تتكلم معه كثيرا ، يا سافيليتش . انه ما يزال ضعيفا» . وخرجت ، واغلقت الباب بهدوء . اضطربت افكارى . اذن ، فانا في بيت الامر . دخلت ماريا ايفانوفنا علىّ . اردت ان اسال سافيليتش بعض الاسئلة ، الا ان هذا المعجوز هز راسه ، وسد اذنيه . اغمضت عيني متضايقا ، وسرعان ما غمرني النوم .

وعندما صحت ناديت سافيليتش ، وبدلا من ان اراه رايت امامى ماريا ايفانوفنا . حياني صوتها الملائكى . وانا لا استطيع وصف الشعور العذب الذى تملكنى في تلك اللحظة . امسكت يدها ، والتصقت بها مبللا اياها بدموع الحنان . لم تنزعها ماشا عنى . . . وفجأة مست شفتها خدى ، واحسست بقبلتها الحارة الغضة . وسرت النار في جسدى . قلت لها : «يا عزيزتى ماريا ايفانوفنا الطيبة . كوني زوجتى ، واقبلي ان تسعديني» . افاقت على نفسها ، وقالت ساحبة يدها

من بين يدي : «اهدا بحسب الرب . انت ما تزال في خطر ، وقد ينكا الجرح . حافظ على نفسك ، من اجل على الاقل» . بهذه الكلمة خرجت تاركة اياي في فرح نشوان . احيتنى السعادة . انها ستكون لى ! انها تحبنى ! وملكت هذه الفكرة كل كيانى .

ومنذ ذلك الحين رحمت اتحسن بمرور الوقت . وكان حلاق الفرج يعالجنى ، لان القلعة خالية من اى مطبب آخر . والحمد لله على انه لم يتحذلق في تطبيبي . وعجل شبابى والطبيعة من شفائى . وكانت عائلة الامر كلها تعتنى بى . ولم تفارقنى ماريا ايفانوفنا . وطبيعى اننى انتهزت اول فرصة فاكملت مفاتيحى التى قطعت . اصفت ماريا ايفانوفنا الى بصبر اكثر . ثم اعترفت دون اية مواربة بميل قلبها الى ، وقالت ان والديها سيكونان فرحين بسعادتها وازافت : «ولكن فكر جيدا هل سيكون ثمة اعتراض من جانب والديك ؟»

وفكرت . لم اشك في رقة امى ، ولكننى ، وانا العارف بخلقى وعقلية ابي ، احسست بان حبى لن يؤثر فيه كثيرا ، وانه سيعتبره نزوة شباب . واعترفت بذلك لماريا ايفانوفنا بصفاة قلب ، الا اننى قررت ان ارسل الى ابي رسالة منمقة ، طالبا فيها مباركة الوالدين . واطلعت ماريا ايفانوفنا على الرسالة فوجدتها مقنعة جدا ومؤثرة ، حتى لم تشك في ان يكون التوفيق من تصيبيها ، واستسلمت ماريا ايفانوفنا لمشاعر قلبها الرقيق بكل وثوق الشباب والحب .

تصالحت مع شفابرين في الايام الاولى من شفائى .

وقد قال لي ايفان كوزميتشس مؤنبا اياي على المباراة :
«آه ، يا بيتر اندريفيتشس ! كان يجب على ان اعتقلك
ولكنك نلت عقابك بدون ذلك ، اما الكسي ايفانوفيتشس
فهو سجين في مخزن الحبوب ، تحت الحراسة ، وسيفه
محجوز بقفل عند فاسيليسا يفوروفنا . دعه يتروى في
الامر ويحس بالندم» . وكنت اسعد حفا من ان اضمر في
قلبي شعور الضغن فاخذت اطلب الشفاعة لشفابرين
من الامر الطيب القلب ، فقرر بموافقة زوجته الافراج
عنه . وجاء شفابرين الى معلنا عن عميق اسفه على ما
حدث بيننا ، واعترف بأن الذنب برمته يقع عليه ،
ورجاني ان انسى الماضي . ولما كنت غير حقود بطبعي ،
فقد غفرت له من كل قلبي مشااحتنا والجرح الذي اصابني
به . . وقد رايت في افترائه اسي عزة اهينت ، وحسب
رفض ، وبررت بخلق سمح تصرف خصمي التمس .

وسرعان ما شفيت ، واستطعت الانتقال الى مسكني .
وانتظرت بلهفة جوابا على رسالتي المرسلة ، دون ان
اجرؤ على الامل ، ومحاولا في الوقت ذاته خنق الهواجس
الحزينة . ولم اكن قد فاتحت فاسيليسا يفوروفنا ولا
زوجها بالامر ؛ ولكن لا اظن ان طلبي سيكون مفاجاة
لهما . فلم احاول انا ولا ماريا ايفانوفنا اخفاء مشاعرنا
عنهما ، وكنا واثقين مسبقا من موافقتهما .

واخيرا دخل سافيليتشس على ذات صباح يحمل في
يده رسالة . اختطفتها منه باضطراب . كان العنوان
مكتوبا بخط ابي . فهيانى ذلك لامر خطير ، لان الرسائل
كانت تكتبها لي امي في العادة ، وكان هو يذيلها ببعض
السطور . قضيت وقتا طويلا لا اجرؤ على فض

المظروف ، معيدا قراءة العنوان المهييب : «الى ولدى بيتر اندريفيتش غرينيف ، ولاية اورنبورغ ، قلعة بيلوغورسك» . وحاولت ان احس عن طريق الخط الحالة النفسية التي كتبت فيها الرسالة ، واخيرا قررت ان افض الرسالة ، وعرفت من السطور الاولى ان القضية كلها خابت خيبة لعينة . وكان محتوى الرسالة كالآتي :

«ولدى بيتر ! تلقينا في الخامس عشر من هذا الشهر رسالتك التي تطلب فيها مباركتنا الابوية وموافقتنا على الزواج من ماريا ايفانوفنا ، ابنة ميرونوف . ليس في نيتي ان امنحك مباركتي ولا موافقتي ، فضلا عن ذلك انوى ان اعاقبك على نزواتك كما يعاقب الصبي ، رغم ربتك كضابط ، لانك برهنت على انك غير اهل لحمل السيف الذي وهب لك للدفاع عن الوطن لا للمبارزة مع الطائشين من امثالك . ساكتب الى اندريه كارلوفيتش فورا راجيا اياه ان ينقلك من قلعة بيلوغورسك ، الى مكان ابعد يفرغ الحماقة من عقلك . مرضت امك غما حين سمعت بمبارزتك وبجرحك ، وهي الآن طريحة الفراش . ماذا سيكون منك ؟ ادعو الله ان يهديك ، رغم اننى لا اجرؤ على الامل في ان يشملك برحمته الواسعة .

ابوك ا . غ .

اثارت قراءة الرسالة مشاعر مختلفة في نفسى . فان العبارات القاسية التي اغدقها ابى جرحتنى جرحا بليفا .

وبدا لي الاستخفاف الذي ذكر به ماريا ايفانوفنا غير لائق البتة ، وغير عادل . وافزعتنى فكرة نقل من قلعة بيلوغورسك ؛ ولكن اشد ما غمى هو نبا مرض امي . سخطت على سافيليتش ، وانا لا اشك في انه هو الذي ابلغ والدي بنبا المبارزة . ذرعت حجرتي الضيقة جينة وذهايا ، وتوقفت امامه ، وقلت له بعد ان القيت عليه نظرة متوعدة : «الظاهر انك لم تكف بان اجرح بسببك ، وان اظل شهرا كاملا وانا على شفا القبر ، فتريد ان تقتل امي ايضا» . وكانما نزلت بسافيليتش صاعقة . قال وهو يوشك ان يجهش : «يا سيدي ، ما هذا الكلام ؟ انا السبب في جرحك ! الله يعلم انسى ركضت لاحميك بصدرى من سيف الكسى ايفانوفيتش ! الا ان الشيخوخة اللعينة منعتنى . ثم ماذا فعلت انسا لامك ؟» اجبت : «ماذا فعلت ؟ من الذى طلب اليك ان تكتب على الوشايات ؟ هل وضعوك جاسوسا على ؟» اجاب سافيليتش والدموع في عينيه : «انا ؟ كتبت عليك وشايات ؟ يا رب السماء ! اقرا ما يكتبه السيد الى ، وسترى هل وشيت بك» . واخرج رسالة من جيبه ، وقرات ما يلي :

«من العار عليك ، ايها الكلب الهرم ، ان تتغافل عن اوامري المشددة ، ولا تبلغنسى عن ابنى بيتر اندريفيتش ، حتى يضطر الغرباء الى اخبارى عن حماقاته . ابهذه الصورة تنفذ واجبك وتصعد بأمر سيدك ؟ سارسلك ، ايها الكلب الهرم ، لترعى الخنازير عقابا على اخفائك الحقيقة وتفاضيك عن الشاب .. آمرك عند

تسلمك هذه الرسالة ان تكتب لي فورا عن صحته ،
وعما نسي الي من تمانله للشفاء ، وعن موضع جرحه
بالضبط ، وهل عولج معالجة طبية .

كان واضحا ان سافيليتش غير ملموم ازالي ، وانني
قد اخطات في اهانتة بتعنيفي وشكّي . طلبت منه
المعذرة ، الا ان المجوز لم يجد فيها سلوانا . فقد كان
يكرر : «الي هنا وصلت بي الحال ؟ اكافا بذلك من
اسيادي ؟ انا الكلب الهرم ، وراعي الخنازير ، وانسا
السبب في جرحك ايضا ؟ لا ، يا عزيزي بيتر
اندريفيتش ا لست انا بل ذاك المسير الملعون هو
الملموم في كل ذلك . هو الذي علمك الطمن باسياخ
حديدية والتوثب ، وكانك بالطمن والتوثب تستطيع ان
تحمسي نفسك من انسان مؤذ ! ما كانت
العاجة تقتضى استخدام مسير ، انفاق الفلوس بلا
جدوى !» .

ولكن من چشم نفسه عناء ابلاغ ابي عن سلوكي ؟
الجنرال ؟ الا انه لم يكن يهتم كثيرا بي على ما يبدو ،
ولم يجد ايفان كوزميتش ضرورة في تبليغه عن
المبارزة . وغرقت في تخميناتي . ووقعت شبهاتي على
شفايرين . فهو الوحيد الذي كانت له مصلحة في تبليغ
قد يؤدي الى ابعادي عن القلعة ، وفصل عن عائلة
الامر . ذهبت اخبر ماريا ايفانوفنا بكل شيء . لقيتها
عند مدخل البيت . فقالت حين راتني : «ماذا حصل
لك ؟ ما اشد شعوبك ا» اجبت : «انتهى كل شيء ا»
وقدمت لها رسالة ابي . وشعبت هي ايضا . وحين

اتمت قراءة الرسالة اعادتها الى بيد مرتجة ، وقالت بصوت مرتعش : « يبدو ان القدر ليس بجانبى . . . فان والديك لا يريداننى في عائلتهما . كل شيء بارادة الله ! يعلم احسن منا بما هو خير لنا . ولا حيلة في ذلك ، يا بيتر اندريفيتش ، فكن انت سعيدا على الاقل . . . » . صحت وامسكت يدها : « لن يحدث هذا ! انت تحبيننى ، وانا مستعد لكل شيء . لنذهب ونلق بانفسنا على اقدام ابويك . فانهما شخصان بسيطان ، وليسا من المفترين القساة . . . سياركانسا ، وستزوج . . . وانا واثق من اننا بعد مرور الزمن سنقنع ابي ، وستكون امى بجانبى . وسيسامحنى الوالد . . . » اجابت ماشا : « لا ، يا بيتر اندريفيتش ، انا لا اتزوجك بدون مباركة والديك ، لن تسعد بدون مباركتهما . لنخضع لارادة الرب - وليباركك الله في زواجك ممن كتب لك الزواج منها ، ولى حبك لفاتة اخرى . فانا اصلى لكما . . . » وهنا انخرطت في البكاء ، وانصرفت عنى . اردت ان ادخل الغرفة عليها ، ولكننى احساست باننى غير قادر على السيطرة على نفسى ، فعدت الى البيت .

جلست غارقا في تفكير عميق ، واذا بسافيليتش يقطع على تاملاتى . قال وهو يقدم ورقة مكتوبة : « هذه ، يا سيد ، وانظر هل انا الواشى بسيدى ، والساعى الى الشقاق بين الابن وابيه » . تناولت الورقة مسرعا . فاذا هى جواب سافيليتش على الرسالة التى تسلمها . وهذه هى كلمة بكلمة :

«جناب السيد اندريه بتروفيتش ، ابانا الرحيم !
 تلقيت رسالتكم الكريمة التي ابديتم فيها سخطكم
 عليّ ، انا عبدكم ، لان من العار الا انفذ اوامر سادتي .
 لست بالكلب الهرم ، بل خادمكم الوفي اطيع اوامر
 سادتي ، وقد خدمتكم بحماس دائما وقضيت حياتي
 معكم حتى ابيض شعري . لم اكتب لكم عن جرح بيتر
 اندريفيتش خشية ان اخيفكم دون فائدة ، وقد سمعت
 ان السيدة امنا افدوتيا فاسيليفنا قد وقعت مريضة
 من شدة الفزع . ساصلي للرب ليمنحها الصحة . جرح
 بيتر اندريفيتش في الصدر تحت عظم الكتف الايمن
 مباشرة ، وعمق جرحه حوالى سلامية ونصف . كان يرقد
 في بيت الأمر ، وقد نقلناه اليه من شاطئ النهر ،
 وعالجه حلاق القلعة ستيبان بارامونوف ، وببتر
 اندريفيتش معافي الآن ، والحمد لله ، وليس عندي ما
 اكتبه عنه غير الاخبار الحسنة . سمعت ان الضباط
 راضون عنه ، وهو عند فاسيليسا يفوروفنا بمثابة
 ابنها . اما ان تحصل له تلك الحادثة غير المتوقعة فلكل
 شاب هفوة ، فان الحصان يكبو وهو ذى اربع قوائم .
 اما ما كتبتم من انكم سترسلونني ارعى الخنازير ،
 فان ذلك رهس بارادتكم كاسياد . وانحنى لكم
 عبدا .

عبدكم الامين

اوخيپ سافيليف» .

ما كان بوسعي الا ان ابتم عدة مرات وانا اقرا
 رسالة العجوز الطيب . ولم اكن في حالة تمكنني من الرد

على ابي ، اما لتطمين امي فقد بدت لي رسالة سافيليتش
صالحة لذلك .

ومنذ ذلك الحين تغير وضعي . كفت ماريا ايفانوفنا
عن التكلم معي تقريبا ، وراحت تتفاداني بمختلف الاعذار .
واصبح بيت الامر غريبا علي . وشيئا فشيئا تعلمت
ملازمة مسكني وحيدا . وقد لامتنى فاسيليسا يفوروفنا
على ذلك في بادى الامر ، الا انها تركتني وشأني بعد
ان رأت اصراري . وصرت لا اري ايفان كوزميتش الا حين
تقتضى الخدمة العسكرية ذلك . ونادرا ما كنت التقى
بشفابرين ، وبدون ما رغبة ، لا سيما وقد لاحظت انه
يضمّر لي كرها ، وذلك ما اكد لي شكوكي . واصبحت
حياتي لا تطاق . وانغمرت في افكار سوداوية كانت
تغذيها الوحدة والفراغ . وكان حبي يتاجع في العزلة ،
ويصبح رهقا علي اكثر فاكثر . وفقدت الرغبة في القراءة
والادب . وخارت عزيمتي . وخشيت ان افقد عقلي ، او
انغمس في الفجور . الا ان احداثا غير متوقعة تركت
اثرها على مجمل حياتي ، بعثت في نفسي هزة شديدة
نافعة .

الفصل السادس

جماعة بوغاتشوف

اسمعوا ، يا اولاد

الى ما سنروييه ، نحن الشيوخ .

(اغنية ٠)

قبل ان ابدأ برواية الاحداث الغريبة التي شهدتها ،
ينبغي ان اقول بعض الكلمات عن وضع ولاية اورنبورغ
في اواخر عام ١٧٧٣ .

كان يسكن هذه الولاية الواسعة الغنية عدد كبير
من الشعوب نصف المتوحشة التي لم تعترف بسيادة
الحكام الروس الا منذ عهد قريب . وكانت قلاقلها
المتكررة ، وعدم تعودها على القوانين والحياة المدنية ،
واستخفافها وقساوتها تتطلب من جانب الحكومة رقابة
دائمة لالزامها على الطاعة . اقيمت القلاع في الاماكن التي
اقرت بانها صالحة ، واسكنت في الغالب بالقوزاق
القاطنين على ضفاف نهر يايك منذ زمن طويل . الا ان
القوزاق من منطقة نهر يايك الذين عينوا للمحافظة على
الهدوء والامن في هذه الناحية كانوا في بعض الاوقات
رعايا مضطربين خطرين بالنسبة للحكومة . وفي عام
١٧٧٢ حصل اضطراب في بلدتهم الرئيسية . كان مبعثه
التدابير المشددة التي اتخذها الجنرال تراو بنبرغ لاختصاص

القوات للطاعة الواجبة . فادى ذلك الى قتل تراو بنبرغ بشكل وحشى ، وادخال تبديلات تصفية في جهاز الادارة ، وفي آخر الامر اخمد العصيان بالرصاص والعقوبات الصارمة .

وقد حدث ذلك قبل وصولى الى قلعة بيلوغورسك بامد قصير . كان كل شىء هادئا او يبدو كذلك . ان الرؤساء صدقوا في كثير من الخفة بالندم الزائف الذى اظهره العصاة الماكرون الذين كانوا يضمرون الحقد ، ويتحينون الفرصة المؤاتية لاستئناف الاخلال بالنظام . ولاعد الى قصتى .

في احدى الامسيات (كان ذلك في بداية تشرين الاول عام ١٧٧٣) بينما كنت جالسا في مسكنى وحيدا استمع لعويل ربيع الخريف ، وانظر من النافذة الى السحب المتراكضة حاجبة القمر جاؤوا يستدعوننى باسم الامر . فتوجهت اليه في الحال . وقد وجدت عند الامر شفايرين وايفان ايغنايفيتش وضابط الصف القوزاقى . ولم تكن في الحجرة فاسيليسا يفوروفنا ولا ماريا ايفانوفنا . رد الامر على تحيى بادى القلق . واغلق الباب ، وطلب الى الجميع ان يجلسوا ما عدا ضابط الصف الذى كان واقفا عند الباب . واخرج الامر ورقة من جيبه ، وقال لنا : «يا حضرات الضباط . هناك خبر هام ! اسمعوا ماذا يكتب الجنرال» . ولبس نظارته ، وقرا ما يلى :

«الى السيد آمر قلعة بيلوغورسكايا

النقيب ميرونوف

سرى

احيطكم علما بان القوزاقى من منطقة نهر الدون والخارج على الطائفة اميليان بوغاتشوف الهارب من السجن قد جمع شردمة من الاشرار مبديا وقاحة شنيعة بانتحاله اسم الامبراطور الراحل بطرس الثالث ، واثار اضطرابات فى قرى منطقة يايك ، واستولى وعاث بعدة قلاع ، مقترفا فى كل مكان اعمال النهب والقتل . وبناء على ذلك اتخذوا ، يا حضرة النقيب ، حال تسلمكم هذه الرسالة التدابير اللازمة لدر هذا الشرير والدعى المذكور اعلاه ، والقضاء عليه كليا ، ان امكن ، اذا تناول على القلعة التى عهد بها الى عنايتكم» .

قال الامر وهو يخلع النظارة ، ويطوى الورقة :
- اتخذوا التدابير اللازمة ! ما اسهل ان يقال ذلك . ان هذا الجانى قوى ، على ما يبدو ، وليس لدينا غير مائة وثلاثين شخصا ، غير حاسبين القوزاق الذين لا يؤمل منهم كثيرا ، ولا تحسب ذلك مساسا بك ، يا ماكسيميتش . (وابتسم ضابط الصنف) . ومع ذلك فلا مفر من ذلك يا حضرات الضباط ! كونوا مستعدين ، واقيموا الدوريات ، والحراسة الليلية ، وفى حالة الهجوم اغلقوا البوابة ، واخرجوا الجنود . وانت يا ماكسيميتش راقب اصحابك القوزاق بشدة . ويجب ان يعاين المدفع ، وينظف جيدا ، والاهم ان تكتموا كل ذلك منعا من ان يعرف احد فى القلعة قبل الاوان . واذن لنا ايفان كوزميتش بالانصراف بعد فراغه من هذه الاوامر . خرجت مع شفايرين مناقشا ما سمعناه . سألته : «بم سينتهى ذلك حسب رأيك ؟» اجاب : «الله

يعلم . سنرى ، اما الآن فلا ارى شيئا مهما . اذا . . . «
واخذ يفكر ، وراح في وجوهه يصفر لحننا فرنسيا .
ورغم كل تحوطاتنا انتشر نبا ظهور بوغاتشوف في
القلعة كلها . ما كان ايفان كوزميتش ليروح بسر من
اسرار الخدمة ابدا ، رغم احترامه الشديد لزوجته .
وهكذا حين تلقى رسالة الجنرال تخلص من فاسيليسا
يفوروفنا بطريقة حاذقة زاعما لها ان الاب غير اسيم
تلقى من اورنبورغ اخباراً عجيبة يخفيها بشدة . فرغبت
فاسيليسا يفوروفنا في ان تزور زوجة القس حالا
واصطحبت ماشا حسب نصيحة ايفان كوزميتش دفعا
للسام من ان تكون وحدها .

وعندما صار ايفان كوزميتش لوحده تماما ارسل في
طلبنا ، واغلق على بالاشكا حجرة المؤونة مخافة ان
تسمعنا .

عادت فاسيليسا يفوروفنا الى البيت دون ان
تستطيع استخراج شيء من زوجة القس ، وعرفت ان في
غيابها عقد اجتماع عند ايفان كوزميتش ، وان بالاشكا
كانت محجوزة . وحدثت ان زوجها قد خدعها ، فعقدت
له استجوابا . الا ان ايفان كوزميتش كان متهيبا
للهجوم . فلم يضطرب قط وراح يرد بنشاط على عقيلته
الفضولية : «انت ترين ، يا عزيزتي ، ان نساءنا عن
لهن ان يستخدمن القش في تشعيل المواقد ، ولما كان
ذلك قد يؤدي الى بلية ، فقد اصدرت امرا مشددا بان
تحول النساء الى استخدام الاغصان المقطوعة بدلا من
القش» . فسالت زوجة الأمر : «ولماذا قفلت الباب على
بالاشكا ؟ ولماذا حبست الفتاة المسكينة في حجرة المؤونة

الى ان عدنا ؟» ولم يكن ايفان كوزميتش متهيئا لهذا السؤال ، فتلعثم ، وتمتم بشيء سخييف جدا . وفطنت فاسيليسا يغوروفنا الى خبث زوجها ، الا انها ، وهي العارفة بانها لن تستطيع ان تستخرج منه شيئا ، كفت عن اسئلتها ، وحولت الموضوع الى الخيار المملح الذي اعدته اقولينا بامفيلوفنا بطريقة خاصة مختلفة تماما . ظلت فاسيليسا يغوروفنا طوال الليل غير قادرة ان تنام ، ولم تستطع ان تحزر ما كان في راس زوجها مما لا يجوز ان تعرفه .

ولدى عودتها من القداس في اليوم التالي رات ايفان ايفناتيفيتش يخرج من فوهة المدفع خرقا وحجارة ونجارة ، وكما با ، وانواعا عديدة من الاوساخ التي حشرها الاطفال فيه . ففكرت زوجة الأمر مع نفسها : «ماذا يمكن ان تعنى هذه الاستعدادات الحربية ؟ العلم يتوقعون هجوما من القرغيزيين ؟ ولكن ما الذي حصل ايفان كوزميتش على اخفاء هذه السفساف عنى ؟» ونادت ايفان ايفناتيفيتش بتصميم قوى على ان تنتزع منه السر الذي اثار فضولها النسوى .

ابدت فاسيليسكا يغوروفنا له بعض الملاحظات الخاصة بشؤون البيت ، مثلما يبدأ القاضى تحقيقه باسئلة جانبية ليصرف انتباه المستجوب في البداية . ثم لظمت الصمت بضع دقائق ، وارسلت حسرة عميقة ، وقالت وهي تهز راسها : «يا الهى ! انظرا اية انباء هذه ! ماذا سيحصل من ذلك ؟» .

اجاب ايفان ايفناتيفيتش :

- لا يحدث شيء ، يا سيدة ، ولكن الله رحيم .

عندنا الكفاية من الجنود ، والكثير من البارود ، وقد نظفت المدفع . ونأمل ان نصعد بوغاتشوف . من كان الله في عونك فلا غالب له !

سالت زوجة الأمر :

- ومن بوغاتشوف هذا ؟

وهنا فطن ايفان ايغنايفيتش الى انه انطلق في كلامه ، وصمت . ولكن الاوان قد فات . اجبرته فاسيليسا يفوروفنا على ان يعترف بكل شيء ، بعد ان تعهدت له بالا تبوح بذلك لاحد .

وفت فاسيليسا يفوروفنا بوعدا فلم تبج بذلك الا لزوجة القس وحدها ، والسبب في ذلك ان بقرتها تعودت ان تسرح في السهب ، وقد يختطفها الاشرار .

بعد وقت قصير صار الجميع يتحدثون عن بوغاتشوف . وتعددت الروايات . وبعث الأمر بضابط الصف ليستطلع كل شيء ، وبدقة في جميع القرى والقلاع المجاورة . وعاد ضابط الصف بعد يومين ، واعلن انه رأى عديدا من النيران في السهب ، على بعد ستين فرسخا من القلعة ، وسمع من الباشكيريين ان قوة لا مثيل لها تزحف ، وعلى كل حال لم يستطع ان يقول شيئا ملموسا لانه خاف ان يتقدم ابعده .

ولوحظت قلاقل غير اعتيادية بين القوزاق في القلعة ؛ فقد تجمهروا جماعات في جميع الشوارع ، وتحدثوا فيما بينهم باصوات خافتة ، وكانوا يتفرقون حين يرون فارسا او جنديا من الحامية . وبثت العيون والارصاد بينهم . وجاء يولاي ، وهو كالميكى سابق اعتنق المسيحية ، الى الأمر بنبا هام ، وهو ان اقوال ضابط الصف كانت

كاذبة ، فان هذا القوزاقى الماكر اعلن لرفاقه بعد عودته ، انه زار المتمردين ، وقابل رئيسهم نفسه ، فسمح له هذا بتقبيل يده ، وتحدث معه طويلا . فاسرع الامر بحجز ضابط الصف ، وعين يولاي فى مكانه . وقد استقبل القوزاق هذا الخبر باستياء واضح ، وصاروا يتذمرون علنا ، حتى ان ايفان ايفناتيفيتش ، منفذ اوامر الامر ، سمع باذنيه قولهم : «ستندم على ذلك ، يا فار الحامية !» فعزم الامر على ان يستجوب محجوزه فى نفس اليوم ؛ الا ان ضابط الصف كان قد فر من المحجز ، بمساعدة مريديه ، على ما يبدو .

ثم ان حدثا جديدا زاد من قلق الامر . فقد اعتقل باشكيريا ومعه منشورات مثيرة . وفكر الامر ، فى ضوء هذا الحادث ، بان يجمع ضباطه من جديد ، ولاجل ذلك اراد ان يبعد فاسيليسا يفورفنا مرة اخرى بعذر مقبول . ولكن لما كان ايفان كوزميتش رجلا مستقيما للغاية ، ومنصفا فلم يجد وسيلة اخرى غير الوسيلة التى استخدمها من قبل . فقال لها وهو يتنحج : «اسمى ، يا فاسيليسا يفورفنا ، يقال ان الاب غير اسيم تلقى من المدينة . . .» فقاطعته زوجته : «كفاك كذبا ، يا ايفان كوزميتش . انت تريد ان تعقد اجتماعا ، وتحدثوا عن اميليان بوغاتشوف فى غيابي . ولكن ذلك لن ينطلى على !» بحلق ايفان كوزميتش عينيه ، وقال : «اذا كنت يا عزيزتى تعرفين كل شىء ، فلك ان تبقى ، سنتحدث بحضورك» . فاجابته : «ذلك هو الصواب ، يا عزيزى ، فان الخداع لا يليق بك . ارسل فى طلب الضباط» . واجتمعنا من جديد . قرا لنا ايفان كوزميتش

بضور زوجته نداء لبوغاتشوف كتبه قوزاقى نصف
امى لا محالة . وقد اعلن قاطع الطريق فيه عن عزمه
على الزحف على قلعتنا دون ابطاء ، ودعا القوزاق والجنود
الى الانضمام الى عصابته ، وحث الضباط على عدم
المقاومة ، متوعدا اياهم بالقتل في حالة الرفض . وكان
النداء مكتوبا بعبارات خشنة ، ولكنها قوية ، ولا بد انه
سيترك تأثيرا خطيرا على عقول بسطاء الناس .

هتفت زوجة الأمر :

- يا له من محتال ! ما اجسر ما يقترحه علينا !
ان نخرج لاستقباله ، ونضع راياتنا على قدميه ! يا
ابن الكلب ! ولكن كيف لا يعرف اننا في الخدمة منذ
اربعين عاما ، وقد بلونا كل شيء والحمد لله ؟ احقا
يوجد في الدنيا ضباط يمكن ان يطيعوا قاطع الطريق
هذا ؟

اجاب ايفان كوزميتش :

- لا اظن ذلك . ولكننى سمعت ان الشرير استولى
على قلاع كثيرة .

وقال شفابرين :

- يبدو انه قوى في واقع الحال .

قال الأمر :

- والان سنعرف قوته الحقيقية . يا فاسيليسا
يغوروفنا اعطينى مفتاح الشونة . وانت ، يا ايفان
ايضناتيفيتش اجلب الباشكيرى ، وابلغ يولاى بان ياتى
بالسياط الى هنا .

قالت زوجة الأمر وقد نهضت من مكانها :

- قف ، يا ايفان كوزميتش . دعنى ابعد ماشا الى

مكان ما ، خارج البيت ، والا فانها ستسمع الصراخ
ويصيبها الذعر . وانا ايضا ، لا اميل الى التحقيق ،
والحق يقال . مع السلامة .

كان التعذيب في الزمان القديم عميق الجذور في
عادات التحقيق القضائي ، حتى ان المرسوم المبارك
الصادر بالتخلي عنه بقي زمنا طويلا غير مطبق . كانوا
يظنون ان انتزاع الاعتراف من المجرم بجرمه كان
ضروريا لفضحه كليا ، وهذه فكرة ليست فقط خاطئة
بل وتنافي الفكر القضائي السليم منافاة تامة ، ذلك لانه
اذا كان انكار المتهم لا يؤخذ دليلا على براءته ، فان
اعترافه من باب اولي ، لا يمكن ان يقوم دليلا على
جرمه . بل وفي بعض الاحيان كنت اسمع قضاة من
الشيوخ يأسفون على التخلي عن هذه العادة الوحشية .
في زماننا لم يكن احد من القضاة ولا من المتهمين يشك
في ضرورة التعذيب . ولهذا فان امر الامر لم يثر دهشة
احد منا ، ولم يقلقه . ذهب ايفان ايغناطييفيتش ليجلب
الباشكيرى ، المحجوز في الشونة ، ومفتاح الشونة عند
زوجة الامر . وبعد عدة دقائق جيب بالمحجوز الى الغرفة
الامامية . فطلب الامر ان يؤتى به اليه .

تخطى الباشكيرى العتبة بصعوبة (فقد كان مصفد
القدمين) ، وخلع قبضته العالية ، ووقف عند الباب .
نظرت اليه وجففت . لن انسى هذا الانسان ما حييت .
كان يبدو في السبعين من العمر . وكان بلا اذن ولا
اذنين . وقد حلق شعره ، وبرزت بعض الشعرات
البيضاء في موضع اللحية ، وكان قصير القامة ، نحिला ،
محدودبا ، الا ان عينيه الضيقتين ما تزالان تقدحان

نارا . قال الأمر وقد عرف من وصماته بأنه واحد من
المتحدين الذين عوقبوا في عام ١٧٤١ : «اها ! يبدو
انك ، ايها الذئب العجوز ، قد وقعت في مصائدنا من
قبل ، ليست هذه اول مرة تتمرّد فيها ، ما دامت
جمجمتك قد سويت هذه التسوية الناعمة . تقدم ،
وقل من بعث بك ؟»

صمت الباشكيري العجوز ، ونظر الى الأمر بخوا.
كلى . فاستمر ايغان كوزميتش يقول : «لماذا انت
صامت ؟ ام انت لا تفهم الروسية مطلقا ؟ يا يولاي ،
اسله بلغتكم من ارسله الى قلعتنا ؟»
اعاد يولاي سؤال ايغان كوزميتش باللغة التتيرية ،
الا ان الباشكيري نظر اليه نفس النظرة السابقة ، ولم
يجب بكلمة واحدة .

قال الامر :

- طيب ، ساضطرك الى الكلام . يا اولاد ، اخلعوا
رداءه المخطط الابله ، واضربوه على ظهره . ابن
شطارتك معه يا يولاي ا
اخذ اثنان من مشوهي الحرب يجردان الباشكيري ،
ولاح القلق على اسارير وجه البائس . نظر في كل
الجهات ، مثل حيوان اصطاده اطفال . وحين رفع احد
المشوهين يديه ، ووضعهما قرب رقبته ، ورفع العجوز
على كتفيه وتناول يولاي السوط ولوح به ، ان
الباشكيري بصوت واهن متوسل ، وفتح فمه وهو ينود
براسه ، واذا بقطعة لحم صغيرة تتحرك داخل الفم بدلا
من اللسان .

عندما اتذكر ان ذلك حدث في زمانى ، وان العمر

قد امتد بى الآن الى العهد السمع للامبراطور الكسندر
الاول * لا يسعنى الا ان ادهش للنجاحات السريعة فى
التنوير ، وانتشار اصول حب الانسان . ايها الشاب !
ان تقع مذكراتى فى يديك تذكر ان احسن التغييرات
وارسخها هى تلك التى تنتج عن تحسين الاخلاق دون
اية هزات عنيفة .

وصعقنا جميعا . قال الأمر : «حسنا ، يبدو اننا لن
نحصل منه على فائدة . يا يولاي ، اعد الباشكبرى الى
الشونة . اما نحن ، ايها السادة ، فلنواصل الحديث» .
اخذنا نناقش وضعنا ، واذا بفاسيليسا يفورفنا
تدخل علينا الحجره فجأة لاهته الانفاس مضطربة اضطرابا
بالغا .

سألها الأمر ذاهلا :

- ماذا حصل لك ؟

اجابت فاسيليسا يفورفنا :

- بلية ، يا رب ! استولوا على قلعة نيجنسى
اوزرسك صباح اليوم . عاد عامل الاب غيراسيم منها
الساعة . وقد شاهد كيف استولوا عليها . شنقوا الأمر
وجميع الضباط . واسروا كافة الجنود . بين لحظة واخرى
سيصل الاشرار الى هنا .

صعقت بالنبا الجديد بشدة . فقد كنت اعرف أمر
قلعة نيجنى اوزرسك ، وهو شاب هادى متواضع ،
كان قد مر بنا قبل شهرين قادمنا من اورنبورغ مع زوجته

* يصف بوشكين عهد حكم هذا الامبراطور بالسمع
سخرية به . (الناشر .)

الشابة ، ونزل عند ايفان كوزميتش . وكانت قلعة
نيجنى اوزرسك تقع على بعد خمسة وعشرين فرسخا من
قلعتنا . فلا بد ان يكون هجوم بوغاتشوف علينا ايضا
متوقعا بين لحظة واخرى . وتمثلت في نفسى مصير ماريا
ايفانوفنا ، فجمد قلبى .
قلت للأمر :

- اسمع ، يا ايفان كوزميتش ! ان واجبنا الدفاع
عن القلعة حتى آخر نفس ، ذلك امر لا يحتاج الى جدال .
ولكن ينبى التفكير بسلامة النساء . ارسلهن الى
اورنبورغ اذا كان الطريق اليها ما يزال مفتوحا ، او الى
قلعة بعيدة اكثر امانا لا يستطيع الاشرار الوصول اليها .
التفت ايفان كوزميتش الى زوجته وقال لها :
- يا عزيزتى ، اممكن ان نرسلكما حقا الى مكان
بعيد حتى نتغلب على العصاة ؟
قالت زوجة الأمر :

- هراء ! اين تلك القلعة التى لا يصل اليها
الرصاص ؟ وما الذى يجعل قلعتنا غير مأمونة ؟ ها نحن
تقضى سنتنا الثانية والعشرين فيها والحمد لله . وراينا
الباشكيريين والقيرغيزيين ، وسنصمد لبوغاتشوف ،
على ما اظن !
فرد ايفان كوزميتش قائلا :

- ابقى ، يا عزيزتى ، اذا كنت تثقين بقلعتنا .
ولكن ماذا نفعل مع ماشا ؟ حسن لو نصمد او نشبت حتى
تأتى النجدة ، ولكن ماذا سيكون لو استولى الاشرار على
القلعة ؟
- عندئذ . . .

وهنا تلعثمت فاسيليسا يفوروفنا وصمتت . وكان يبدو عليها قلق بالغ .

استمر الأمر وقد لاحظ ان كلماته قد تركت اثرها ربما للمرة الاولى في حياته :

- لا ، يا فاسيليسا يفوروفنا . لا حاجة الى ان تبقى ماشا هنا . لنرسلها الى عرابتها في اورنبورغ ، فان القوات والمدافع فيها كافية ، والاسوار من الحجارة . وانت ايضا انصحك بالسفر معها . لن تقيك شيخوختك مما قد يجرى لك ، اذا استولوا على القلعة بغارة .
قالت زوجة الأمر :

- حسنا ، لنرسل ماشا . اما انا فلن اغادر مهما الحفت بالطلب . لا حاجة لي في شيخوختي ان افارقك ، وابحث عن قبر منفرد في ارض غريبة . عشنا سووية ، وسنموت سووية .
قال الأمر :

- ليكن . ولكن ينبغي ان نسرع . اذهبي وجهزي ماشا للسفر . سنرسلها في فجر الغد ، وسنرسل معها حارسا ، رغم عدم وجود رجال زائدين عن الحاجة عندنا . ولكن اين ماشا ؟
اجابت زوجة الأمر :

- عند اكوлина بامفيلوفنا . كاد يغمى عليها حين سمعت بالاستيلاء على نيجنى اوزرسك ، وانا اخاف ان تقع مريضة . يا ربي القدير الى اين بلغ الامر بنا !
انصرفت فاسيليسا يفوروفنا لتدبر امر سفر ابنتها . واستمر الحديث في حجرة الأمر ، الا انني لم اعد ادخل فيه ، ولم التقي اليه اذنا . جاءت ماريسا

ايفانوفنا عند العشاء شاحبة وفي عينيها آثار البكاء ،
تعشينا صامتين ، وتركنا العائدة في وقت اقصر من
المعتاد ، وتوادعنا مع جميع افراد العائلة ، وانصرفنا الى
بيوتنا . الا اننى نسيت سيفى تعمدا ، وعدت لأخذه .
خامرني احساس باننى ساجد ماريا ايفانوفنا وحدها .
وهذا ما حدث ، فقد استقبلتنى عند الباب ، وسلمتنى
السيف ، وقالت لى دامة العينين : «وداعا ، يا بيتر
اندريفيتش ! انهم يرسلوننى الى اورنبورغ . ارجو لك
السلامة والسعادة . قد يمن الله علينا بان نلتقى مرة
اخرى ، اذا لم . . .» وانفجرت باكية . طوقتها بذراعى ،
وقلت : «وداعا ، يا ملاكى ، وداعا يا عزيزتى ،
وودادى ! تقى ان آخر فكرة لى ، وآخر دعاء سيكونان
عنك ، مهما حدث من شىء !» اجهشت ماشا ، والتصقت
بصدري . فقبلتها بحرارة ، وخرجت من الحجرة مصرعا .

الفصل السابع

الغارة

راسي ، يا راسي ،
يا رأس الجندي !
قضيت في الخدمة
ثلاثة وثلاثين عاما
لم تفز فيها ، يا راسي ،
بمكسب ولا بفرحة ،
ولا بكلمة منك طيبة ،
ولا برتبة عالية ؛
بل كسبت يا راسي
عمودين عاليين ،
عليهما عارضة من خشب الدلب
تتدل منها الشوطة حريرية .
(اغنية شعبية .)

في تلك الليلة لم انم ، ولم اخلع ملابسي .. عقدت
العزم على ان اتوجه في الفجر الى بوابة القلعة حيث
ستخرج ماريا ايفانوفنا ، واودعها الوداع الاخير .
احسست بتغير عظيم يطرا على نفسي : وكان الانفعال في
روحي اخف على بكثير من الجزع الذي انتابني قبل وقت
قصير . واختلط الم الفراق في نفسي بأمال غامضة ولكنها
حلوة ، وتوقع عجول للمخاطر ، ومشاعر عزة نفس

نبيلة . وانقضى الليل بسرعة . وكادت على وشك الخروج من البيت حين فتح الباب ، وظهر عريف يحمل نبا خروج القوزاق من قلعتنا ليلا بعد ان اخذوا معهم قسرا يولاي ، وذكر العريف ان اناسا مجهولين يطوفون حول القلعة . وفكرت بان ماريا ايفانوفنا ربما لا تلحق في الخروج ، فافزعتنسى هذه الفكرة ، واصدرت للعريف بعض التعليمات على عجل ، وانطلقت الى بيت الامر في الحال . كانت الدنيا قد تنورت . ركضت في الشارع حتى سمعت من يناديني . فتوقفت . قال ايفان ايفانوفيتش ، وقد لحق بي : «الى اين ؟ ايفان كوزميتش على السور ، وقد ارسلنى لاستدعيك . وصل بوغاتشوف» . سألته واجف القلب : «هل سافرت ماريا ايفانوفنا ؟» اجاب ايفان ايفانوفيتش : «لم تلحق ، قطع الطريق الى اورنبورغ . والقلعة محاصرة . الوضع سيى .» سرنا الى السور ، وهو مرتفع كونته الطبيعة وقوى بسياج خشبي . راينا سكان القلعة كلهم قد تجمهروا عليه . كانت الحامية متهيئة للقتال ، وقد نقل المدفع الى السور في العشية . وكان الامر يروح وييجى ، امام صف الجنود القليلي العدد . فان دنو الخطر قد مد هذا المحارب القديم بنشاط غير اعتيادى . وفي السهب على مسافة غير بعيدة من القلعة كان يتحرك زهاء عشرين فارسا . وكانوا قوزاقا على ما يبدو ، الا ان بعض البشكيريين كانوا بينهم ، يمكن التعرف عليهم بسهولة من قبعاتهم من فراء الوشق ، ومن كنانتهم . طاف الامر بجنوده قائلا لهم : «يا ابنائى ، لنثبت اليوم في سبيل امننا الامبراطورة ، ولنظهر للدنيا كلها اننا مقدمون

حافظون للايمان التي اقسمنها !» ابدى الجنود حماسهم بصوت عال . كان شفا برين يقف الى جانبي ، وينظر الى العدو متفرسا . لاحظ المتراكضون في السهب حركة في القلعة ، فاجتمعوا في كوكبة واخذوا يتحدثون فيما بينهم . اوعز الامر لايفان ايغنا تيفيتش بان يوجه المدفع الى حشدهم ، ووضع الفتيلة في المدفع بنفسه . فصفرت القذيفة وطارت فوقهم دون ان تلحق بهم اذى . تفرق الفرسان ، وتواروا عن الانظار حالا . وخلا السهب . في تلك اللحظة ظهرت فاسيليسا يغوروفنا على السور تصحبها ماشا التي لم ترد ان تفارقها . قالت زوجة الامر : «كيف تجرى المعركة ؟ اين العدو ؟» اجاب ايفان كوزميتش : «العدو غير بعيد . وسيكون كل شيء على ما يرام ان شاء الله . هل انت خائفة ، يا ماشا ؟» ردت ماريا ايفانوفنا : «لا ، يا بابا فوجدى في البيت وحيدة يفزعنى اكثر» . وهنا رمقتنى ، واكرهت نفسها على الابتسام . ضغطت على مقبض سيفى عفويا ، وقد تذكرت اننى تسلمته من يديها البارحة ، وكانما لاحمى به محبوبتى . وتاجج قلبى . وتصورت نفسى فارسا . وتعطشت لاثبات استحقاتى لثقتها ، واخذت انتظر اللحظة الحاسمة بنفاد صبر . في اثناء ذلك ظهرت وراء المرتفع الواقع على بعد نصف فرسخ من القلعة تجمعات جديدة من الخيالة ، وسرعان ما انزوع السهب بعدد كبير من المسلحين بالرماح والاقواس والنبال . بينما سار بينهم فارس على حصان ابيض في قفطان احمر يمسك في يده سيفا مجردا . كان ذلك بوغاتشوف نفسه . توقف ، واحاطوا به ، وبناء على امره على ما يبدو ، خرج اربعة فرسان منطلقين

باقصى ما تستطيع خيولهم نحو قلعتنا ، ولما اقتربوا عرفنا فيهم خونتنا . كان احدهم يرفع ورقة بالقرب من قبعته ، الآخر يحمل راس يولاي على طرف رمحه . وقذفه الينا عبر السياج . وقع راس الكالميكى المسكين عند قدمى الأمر . وصرخ الغونة : «لا تطلقوا النار ، واخرجوا الى القيصر ، انه هنا !»

صاح ايفان كوزميتش : «سأريكم ! يا اولاد ، اطلقوا النار ا» وراح جنودنا يطلقون الرصاص . ترنح القوزاقى الذى كان يحمل الرسالة ، وهوى من فرسه ، وعاد الآخرون يرقلون من حيث اتوا . القيت نظرة على ماريا ايفانوفنا . كانت وكأنها فى غيبوبة ، وقد صعقها منظر راس يولاي المدمى . استدعى الأمر العريف ، وامره ان ياخذ الورقة من يد القوزاقى القليل . خرج العريف الى السهب ، وعاد يسوق فرس القليل من رسنه . وسلم الأمر الرسالة . قراها ايفان كوزميتش فى سره ، ثم مزقها مزقا . وخلال ذلك كان العصاة على ما يبدو يستعدون للقتال . وبعد وقت قصير اخذ الرصاص ينز قرب آذاننا ، وانغrust بعض السهام فى الارض وفى السياج قربنا . قال الأمر : «فاسيليسا يفوروفنا ! لا مكان للنساء هنا . خذى ماشا ، فان الفتاة ما بين الموت والحياة» .

كانت فاسيليسا يفوروفنا منكمشة تحت الرصاص ، فالقت نظرة الى السهب الذى سرت فيه حركة كبيرة ، ثم التفتت الى زوجها ، وقالت له : «ايفان كوزميتش ، الموت والحياة بيد الله . بارك ماشا . يا ماشا ، اقتربى من ابيك» .

تقدمت ماشا من ايفان كوزميتش شاحبة مرتعشة ، وانحنت الى الارض . رسم الأمر العجوز علامة الصليب عليها ثلاث مرات ، ثم رفعها وقبلها ، وقال لها بصوت متغير : «لتكن السعادة من نصيبك ، يا ماشا . صلي للرب ولن يتخلى عنك . واذا وجدت زوجا طيبا فانا ادعو الله لكما بالحب والوفاق . عيشا مثلما عشنا نحن ، فاسيليسا يفوروفنا وانا . والآن ، وداعا ، ابعديها بسرعة ، يا فاسيليسا يفوروفنا» . (ارتمت ماشا على عنقه ، وانتحيت) وبكت زوجة الأمر ، وقالت : «لنتعاق نحن ايضا وليقبل احدنا الآخر . وداعا ، يا زوجي ايفان كوزميتش . سامحنى اذا كنت قد كدرتك في شيء !» عانق الأمر زوجته العجوز ، وقال :«وداعا ، وداعا ، يا عزيزتى ! والآن ، كفى . اذهبا ، اذهبا الى البيت . واذا لحقت البسي ماشا ملابس بسيطة» . وغادرت زوجة الأمر وابنتها . نظرت في اثر ماريما ايفانوفنا ، والتفتت هي ، واحنت راسها لى . وفي تلك اللحظة توجه ايفان كوزميتش اليها ، وكان كل انتباهه متركزا على العدو . كان العصاة يحرمون بالقرب من رئيسهم ، وفجأة اخذوا يترجلون عن خيولهم . قال الأمر : «اثبتوا الآن بقوة . ستبدا الغارة . . .» وفي تلك اللحظة صدر زعيق رهيب وصيحات ؛ وجاء العصاة راكضين نحو القلعة . عبي مدفعنا بقذيفة . وتركهم الأمر الى اقرب مسافة واشعل الفتيل ثانية ، فاذا بالقذيفة تسقط في وسط الحشد تماما . تشتت العصاة في كلا الجانبين متراجعين . ووقف رئيسهم وحده الى الامام . . . كان يلوح بسيفه ، ويحرضهم بحماس ، على ما يبدو . . . وفي الحال عاد

الصياح والزعيق اللذان هدأ للحظة . قال الأمر :
«والآن ، يا فتیان ، افتحوا البوابة ، واقرعوا الطبل !
يا فتیان ، الى الامام ، ورائى الى الهجوم !»
فى لحظة واحدة كان الأمر وايغان ايغناثيفيتش وانا
وراء سور القلعة . الا ان الحامية المتخوفة لم تتحرك .
صاح ايغان كوزميتش : «لماذا انتم واقفون ، يا اولادى ؟
الموت هو الموت : هذه هى الخدمة !» فى تلك اللحظة
وصل المتمردون الينا ، واقتحموا القلعة . صمت الطبل ؛
والقى جنود الحامية السلاح . القيت ارضا ، الا اننى
نهضت ، ودخلت مع المتمردين القلعة . كان الأمر قد
جرح فى راسه ، وكان واقفا وسط جمهرة من الاشرار
الذين كانوا يطلبون منه المفاتيح . انطلقت لنجدته ،
فامسك بى بعض القوزاق الاقوياء وشدونى بالاحزمة
قائلين : «ستنالون جزاءكم ، بسبب عدم خضوعكم !»
جرونا فى الشوارع . كان الاهالى قد خرجوا من بيوتهم
يحملون الخبز والملح . وفجأة صاحوا فى الحشد ان
القيصر فى الساحة ينتظر الاسرى ، ويتقبل يمين الولاة .
هرع الناس الى الساحة ، وقادونا الى هناك ايضا .
كان بوغاتشوف يجلس على مقعد وثير نصب فى
مدخل بيت الأمر . كان يرتدى قفطانا قوزاقيا احمر
مطرزا باشرطة مذهبة . وكانت قبعته العالية من فراء
السمور والمزينة بشرابات ذهبية منكسة على عينيه
اللامعتين . وبدا وجهه مالوفالى . كان العمدة القوزاقيون
يحيطون به ، والاب غيراسيم وقف عند المدخل شاحبا
مرتعشا ، والصليب فى يده . بدا وكأنه فى صمته
يتوسل اليه ان يراف بالضحايا المقبلين . نصبت مشنقة

في الساحة على عجل . عندما وصلنا ابعده الباشكيريون
الناس ، وقدمونا الى بوغاتشوف . هذا قرع الجرس .
وساد صمت عميق . سأل الدعى : «من الأمر؟» خرج
ضابط الصف من الحشد ، وأشار الى ايفان كوزميتش .
نظر بوغاتشوف الى العجوز نظرة متوعدة ، وقال له :
«كيف جرات على مقاومتي ، وانا قبصرك؟» واجاب بصوت
قوى : «لست قيصرى ، بل انت لص ودعى ، فاسمع قولى!»
تجههم بوغاتشوف عبوسا ولوح بمنديل ابيض . امسك
بعض القوزاق بالنقيب العجوز ، وجروه الى المشنقة .
كان الباشكيري المشوه الذي استجوبناه يوم امس
راكبا فوق عارضة المشنقة . وكان يمسك بيده حبلا .
وما هي دقيقة حتى رايت ايفان كوزميتش المسكين معلقا
في الهواء . وبعد ذلك ساقوا ايفان ايفناتيفيتش الى
بوغاتشوف . فقال له بوغاتشوف : «احلف يمين الولا،
للقيصر بيتر فيودوروفيتش!» فأجاب ايفان ايفناتيفيتش
مرددا كلمات أمره : «لست قيصرى . انت ، ياعم ،
لص ودعى!» لوح بوغاتشوف ثانية بالمنديل
الابيض ، فشئق الملازم الطيب بالقرب من رئيسه
العجوز .

وجاء دورى . نظرت الى بوغاتشوف بجرأة ، مستعدا
لترداد جواب رفيقى العظيمين . عندئذ رايت ، على
دهشة منى لا توصف ، شفايرين بين العمدة المتمردين
وقد حلق رأسه على شكل دائرة ، وارتدى القفطان
القوزاقى . اقترب شفايرين من بوغاتشوف وهمس في
أذنه بعض الكلمات . قال بوغاتشوف وقد اعرض عنى
«اشنقوه!» وضعوا الانشوطة في عنقى ، واخذت اقرا

الصلاة في سرى ، رافعا الى الرب ندامة صادقة على كل
 خطايى ، داعيا اياه ان يحفظ جميع القريبين من قلبى .
 سحبنى تحت المشنقة . وراح السفاكون يقولون لى
 مكررين : «لا تخف ، لا تخف» ربما عن رغبة حقيقية في
 تشجيعى . واذا بى اسمع صرخة فجأة : «انتظروا ،
 يا ملاعين ! على رسلكم ! . . » وتوقف السفاحون .
 ونظرت ، فاذا بى ارى سافيليتش مرتميا على قدمى
 بوغاتشوف . وراح هذا المربى المسكين يقول له :
 «مولاي العزيز ! ما حاجتك الى ان تقتل سيدا صغير
 السن ؟ اطلقه ، وسيعطونك فدية عنه ، مر بشنقى
 اننا العجوز للعظة وبث الرعب !» ارسل
 بوغاتشوف اشارة ، ففكوا الانشطة عنى في الحال ،
 وتركونى . وقالوا لى : «ان مولانا يراف بك» . فى تلك
 اللحظة لا استطيع ان اقول ان خلاصى قد سرنى ، ولكن
 لا اقول اننى قد اسفت عليه . كانت مشاعرى غامضة
 تماما . قادونى مرة اخرى الى الدعى ، وجعلونى اركع
 امامه . مد بوغاتشوف نحوى يده المعروقة . وقال الذين
 بالقرب منى : «قبل يده ا» ولكن كنت افضل افظع اعدام
 على هذا التحقير السافل . همس سافيليتش وهو واقف
 ورائى يدفعنى : «يا عزيزى بيتر اندريفيتش ! لا تعاند !
 ماذا يكلفك ذاك ؟ ابصق ، وقبل الشر . . . (تفو !) قبل
 يده» . ولم اتحرك . انزل بوغاتشوف يده ، بعد ان قال
 بابتسامة ساخرة : «سيادته فقد عقله من الفرح .
 انهضوه !» انهضونى ، وتركونى وشانى . اخذت اتابع
 فصول الكوميديا الفظيعة .

اخذ الاهالى يقسمون يمين الولا . كانوا يتقدمون

واحدا وراء الآخر ، ويقبلون الصليب ، وينحنون
 للدعى . وكان جنود الحامية يقفون هناك ايضا . كان
 خياط السرية يقص لهم ضفائرهم بمقصه المثلث ،
 ويدنون من يد بوغاتشوف ، نافضين عنهم الشعر ،
 فيعلن هذا مغفرته ، ويقبلهم في شذمته . وقد استمر
 كل ذلك حوالى ثلاث ساعات . واخيرا نهض بوغاتشوف
 من المقعد ، وترك مدخل البيت يرافقه عمده . قادوا له
 جرادا ابيض ، مزينا بعدة غنية . رفعه قوزاقيان من
 تحت ابطه واجلساه على السرج . واعلن للاب غيراسيم
 بأنه سيتناول طعام الغداء على مائدته . وفي تلك
 اللحظة ارتفعت صيحة نسائية . كان بعض الشقاة يعجرون
 الى المدخل فاسيليسا يفوروفنا ، شعشاء الشعر ، مجردة
 من الثياب . كان احد هؤلاء قد ارتدى سترتها المبطنة ،
 بينما كان الآخرون يعجرون الوسائد والنضائد
 والصناديق ، وعدة الشاي ، والملابس ، وكل امتعة
 البيت . صاحت المعجزة المسكينـة : «يا اعزائى !
 اطلقونى ، يا ابنائى ، خذونى الى ايفان كوزميتش» ،
 وفجأة وقع بصرها على المشنقة ، وتعرفت على زوجها .
 صاحت فى هلع : «ايها الاشرار ! ماذا فعلتم به ؟ يا
 ضيائى ، يا ايفان كوزميتش ، ايها الراس المحارب
 الشجاع ، لم تنل منك حراب البروسيين ولا رصاص
 الترك ، لم تصرع فى معركة نزيهة ، بل قتلك مجرم
 هارب !» قال بوغاتشوف : «اسكتوا الساحرة المعجزة !»
 وفى هذه اللحظة ضرب قوزاقي راسها بالسيف ، فوقعت
 صريعة على درجات المدخل . وتحرك بوغاتشوف ،
 وانطلق الناس فى اثره .

الفصل الثامن

ضيف غير مدعو

ضيف غير مدعو اسوا من ترى * .
(مثل .)

خلت الساحة . وكنت لما ازل ملازما مكاني ، غير قادر على تنظيم افكاري ، التي اثارها مشاهد فظيعة جدا .

واشد ما كان يعذبني هو جهلي بمصير مارييا ايفانوفنا . اين هي ؟ وماذا حصل لها ؟ وهل لحقت ان تختفى ؟ وهل المكان الذي اخفت فيه مامون ؟ . . . دخلت بيت الامر تفعمني افكار مقلقة . . . كان كل شيء فارغا . المقاعد ، والمناضد والصناديق محطمة ، والوانى مهشمة ، وكل شيء قد نهب . ركضت مرتقيا الدرج الصغير المؤدى الى الطابق الثاني ، ولاول مرة في حياتي دخلت غرفة مارييا ايفانوفنا . رايت سريرها الذي عاث به اللصوص ، وكانت الخزانة مكسورة ومنهوبة ، وكان السراج ما يزال مشتتلا امام دولايب الايقونات المنهوبة . كما سلمت المرأة الصغيرة المعلقة بين نافذتين . . . اين هي ربة هذا الخدر الوداع العفيف ؟ ومضت في ذهني فكرة رهيبية : فقد صورتها بين ايدي

* يعود هذا المثل الى عهد لير التتر في روسيا (القرن ١٢-١٥) . (الناشر .)

الشقاة . . . وانكمش قلبي . . . بكيت بكا، مرا ، هاتفا
باسم محبوبتي بصوت عال . . . وفي تلك اللحظة سمعت
حركة خفيفة ، واذا ببالاشا تخرج من وراء الخزانة ممتعة
الوجه ، مرتجفة . قالت وهي ترفع ذراعيها :
- آه ، يا بيتر اندريفيتش ! اى يوم هذا ! ويا
لل هول ! . .

سألها متلهفا :

- وماريا ايفانوفنا ؟ ماذا جرى لماريا ايفانوفنا ؟

اجابت بالاشا :

- الأنة حية ، وهي مختبئة عند اقولينا

بامفيلوفنا .

صحت في ذعر :

- فى بيت القس ! يا رب ! ولكن بوغاتشوف

هناك ! . .

خرجت من الحجره مسرعا ، وما هى الا لمحة حتى
كنت فى الشارع ، وركضت الى منزل القس لا الوى
على شىء ، ولا اشعر بشىء . كانت الصيحات ، والقهقهات ،
والاغاني تسمع من هناك . . . كان بوغاتشوف يولم
مع اصحابه . وكانت بالاشا قد جات فى اثرى ،
فارسلتها لتدعو اقولينا بامفيلوفنا فى السر . وبعد
دقيقة خرجت زوجة القس لرؤيتى فى الرواق وفى يدها
قارورة فارغة . سألها بقلق لا يوصف :

- بحق الرب ! اين ماريا ايفانوفنا ؟

اجابت زوجة القس :

- انها ، عزيزتسى ، راقدة فى سريرى ، وراء

الحاجز . كادت ان تنزل نازلة ، ولكن كل شىء مر

بسلام ، حمدا لله . ما كاد الشرير يجلس للطعام ،
 حتى افاقت فتاتي المسكينة ، وتاوهت ! . . . وكاد يغمى
 عليّ . سمع الشرير التاوه ، فسألني : «من يتاوه
 عندك ، يا عجوز؟» فانحنيت للصر وقلت له : «انها
 ابنة اخي ، يا مولاي ، وقعت مريضة ، وهي طريحة
 الفراش منذ اسبوع» . - «وهل ابنة اخيك شابة؟» -
 «شابة ، يا مولاي» . - «اريني ابنة اخيك ، يا عجوز» .
 وانصر قلبي ، ولكن لم تكن في اليد حيلة . «تفضل ،
 يا مولاي ، ولكن الفتاة لا تقدر على النهوض والمثول بين
 يديك» - «لا بأس ، يا عجوز ، سأذهب بنفسى ، والقي
 نظرة» . اترى ، اجتاز الملعون الحاجز ! سحب الستارة ،
 ونظر بعينه الكاسرتين . ولم يحدث شيء . . . نجانا
 الله ! هل تصدق اننى وزوجى تهيأنا لموت الشهادة .
 ومن حسن الحظ انها ، عزيزتى ، لم تتعرف عليه . يا
 رب القدرة ، عشنا لنرى هذا اليوم المشهود ! ما ابشع
 ذاك ! ايفان كوزميتش المسكين ! من كان يظن ! . . .
 وفاسيليسا يفوروفنا ؟ وايفان ايفناتيفيتش ؟ لاي شيء
 شنقوه ؟ . . . كيف رافوا بك ؟ واى شقى شفايرين
 الكسى ايفانوفيتش هذا ؟ انه حلق رأسه فى دائرة ،
 وهو الآن يولم معهم هنا ! لا شك فى انه ماكر . ما ان
 تحدثت عن ابنة اخي حتى نظر الى نظرة جارحة كالمسكين ،
 صدقنى . ولكنه لم يش ، شكرا له ولو على ذلك . -
 وفى تلك اللحظة صدرت صيحات الضيوف السكارى ،
 وصوت الاب غيراسيم . كان الضيوف يطالبون
 بالشراب ، فاذا القس ينادى زوجته . واضطربت زوجة
 القس ، وقالت : «اذهب الى بيتك ، يا بيتير

اندريفيتش . لا وقت لي لاتحدث اليك . الاشرار
يعربدون ويشربون . والاحسن الا يراك احد من
السكرارى . وداعا ، يا بيتر اندريفيتش . ليحصل ما
يحصل . لا اظن الله يتخلى عنا .

وانصرفت زوجة القس . وتوجهت انا الى مسكنى .
وقد هدات قليلا . ولدى مرورى فى الساحة رايت بعض
الباشكيريين يجتمعون قرب المشنقة يخلعون الاحذية من
ارجل المشنوقين . كبحت بجهد سورة حلقى ، شاعرا
بان تدخل لا يجدى فتىلا . وكان الشقاة يتراكمون فى
جنبات القلعة ، ناهبين بيوت الضباط . وفى كل مكان
صيحات المتمردين السكرارى . وصلت الى البيت
فاستقبلنى سافيليتش عند العتبة . صاح حين رآنى :
«حمدا لله ! ظننت ان الاشرار قبضوا عليك ثانية . يا
عزيزى بيتر اندريفيتش اتصدق ؟ الجناة نهبوا كل شىء
عندنا : الثياب ، والمفارش ، والامتعة ، والاوانى . ولم
يبقوا شيئا . لا بأس ، الحمد لله انهم تركوك حيا . هل
عرفت من رئيسهم ، يا سيد ؟»

- لا ، لم اعرفه . من هو ؟

- كيف لم تعرفه ، يا عزيزى ؟ هل نسيت ذلك
السكرير الذى احتال على معطفك من فراء الارنب فى
النزل ؟ كان جديدا كليا ، الا ان هذا الحيوان فتنه حين
لبسه !

ودهشت . حقا ان الشبه بين بوغاتشوف ودليل
ذاك كان مذهلا . فايقنت ان بوغاتشوف والدليل شخص
واحد . وفهمت السبب فى الرافة التى شملنى بها . فما
كان بوسعى الا ان اتعجب من تشابك الظروف : معطف

صبي اهديته الى متشرد انقذني من حبل المشنقة ،
وسكير كان يترنح بين الحانات استطاع ان يحاصر
القلاع ويهز الدولة !

سأل سافيليتش غير مبدل عاداته :

- الا تريد ان تأكل ؟ لا يوجد شيء في البيت ،
سأذهب لبحث عن شيء ، واطعمك بشكل ما .
عندما بقيت وحدي غرقت في تأملات . ماذا يجب
على ان افعل ؟ ان البقاء في القلعة وهي تحت سيطرة
الشرير او مسايرة عصابته لم يكن يليق بضابط . لقد
كان واجبي يقتضيني ان اذهب الى حيث يمكن ان تكون
لخدمتي لما تزل فائدة لوطني في الظروف الحرجة
الراهنة . . . الا ان الحب كان يدعوني بقوة الى ان ابقي
بجانب ماريا ايفانوفنا ، وان اكون حاميها وحارسها .
ورغم انني كنت اتوقع تبديلا عاجلا مؤكدا في
الظروف ، الا انني لم استطع الا ان ارتجف حين اتصور
خطورة وضعها .

قطع تأملاتي وصول واحد من القوزاق جاء يعلن ان
«القيصر العظيم يطلب مثوك بين يديه» . فسألته وانا
مستعد لاطاعته : «اين هو ؟» . اجاب القوزاقى : «في
بيت الأمر . بعد الغداء توجه مولانا الى الحمام ، وهو
الآن يستريح . يبدو من كل شيء ، يا صاحب السيادة ،
انه شخصية رفيعة المقام : فقد اكل في الغداء خنوصين
محمصين ، واخذ حمام بخار حارا جدا ، لم يستطع حتى
تاراس كورتشكين ان يتحمله ، فسلم الليفة الى فومكا
بيكباييف وعاد الى حاله بعد ان صب على جسده الكثير
من الماء البارد . وباختصار كل الدلائل تشير الى

عظمته . . . ويقال انه اظهر اثناء الحمام علائم القيصرية
المرسومة على صدره . في احد الجانبين نسر ذو رأسين
بحجم خمسة كوبيكات ، وفي الجانب الآخر صورته « .
لم ار ضرورة لمناقشة القوزاقى في رايه ،
فتوجهت معه الى بيت الأمر ، متصورا مسبقا ملاقاتى
لبوغاتشوف ، محاولا ان احزر ما تنتهى اليه . والقارى'
يستطيع بسهولة ان يتصور اننى لم اكن بارد الاعصاب
تماما .

كان المساء يهبط حين وصلت الى بيت الأمر . كانت
المشئقة بضحيتها تسود سوادا فظيما . وكانت جثة
زوجة الأمر ما تزال ملقاة تحت مدخل البيت حيث كان
قوزاقيان يحرسان . دخل القوزاقى الذى كان معى الى
البيت ليبلغ بمجيئى ، وعاد فى الحال ، وقادنى الى
الحجرة التى كنت فى الامس قد توادعت فيها مع ماريا
ايفانوفنا بحنان .

وظهر امامى مشهد غير اعتيادى : فقد رايت
بوغاتشوف ونحو عشرة من العمد القوزاقيين جالسين
وراء مائدة مغطاة بمفرش ، ومثقلة بالقوارير والاقداح .
كانوا يرتدون القبعات والقمصان الملونة ، وقد
وهجتهم الخمرة ، وجعلت خدودهم حمرا ، وعيونهم
لامعة . ولم يكن شفايرين بينهم ، ولا ضابط صفنا ،
ذانكم الشخصان حديثا العهد بالخيانة . قال بوغاتشوف
حين رآنى : « اها ، يا صاحب السيادة ! اهلا وسهلا .
تفضل بالجلوس » . وتراصّ الندماء . فجلست صامتا
عند حافة المائدة . صب لى جارى القوزاقى الشاب
الممشوق الوسيم قدحا من النبيذ البسيط لم امسه .

اخذت اجيل البصر بالمجتمعين في فضول . كان بوغاتشوف يتصدر المكان مرتفقا المائدة ، ساندا لحيته السوداء ، بقبضته العريضة . كانت تقاطيع وجهه سليمة ، ولطيفة كثيرا ، ولم تكن تنم عن شراسة . كان كثيرا ما يخاطب رجلا في نحو الخمسين من العمر ، مناديا اياه مرة بالكونت ، ومرة بتيوفيتش ، واحيانا يسميه بمناداته : يا عمي . كانوا جميعا يتعاملون فيما بينهم كرفاق ، ولم يبدو اى تعظيم خاص لرئيسهم . جرى الحديث على غارة الصباح ، وعن نجاح الانتفاضة ، وعن العمليات المقبلة . تباهى كل فرد ، مقترحا آراءه ، وكان يتجادل مع بوغاتشوف بطلاقة . وفي هذا المجلس العربي الغريب تقرر الزحف على اورنبورغ : وهو اندفاع جرى ، كاد يتوج بنجاح فاجع . وحدد اليوم التالي موعدا للزحف . قال بوغاتشوف : «والآن ، يا اخوان ، لنغن قبل النوم اغنيتي المحبوبة . يا تشوماكوف ! ابدا !» وبدا جارى يغنى بصوت رقيق اغنية حزينة من اغاني ساحبي السفن ، وانضم الجميع اليه :

لا تضجى ، ايتها الغابة الخضراء ،
ولا تعيقى الفتى الطيب عن التفكير .
في صباح الغد سامثل امام قاض رهيب ،
هو القيصر نفسه .
سيسالنى مولاي القيصر :
خبرنى ايها الفتى ابن الفلاح ،
من كان شركاؤك في السطو والسرقه ،
وهل كان رفاقك كثيرين ؟
ساجيب مولاي القيصر المؤمن ،
واخبره بكل الحقيقة ،

قانلا ان رفاقي كانوا اربعة :
 كان الليل الحالك رليقي الاول ،
 والثاني سكينى الفولاڊى ،
 والثالث جوادى المطيع ،
 والرابع قوسى المشدود .
 وكان نشارى سهاما صلبة .
 وسيجيبنى مولاى القيصر المؤمن :
 مرحى لك ، ايها الفتى ابن الفلاح :
 قدير انت فى السطو ، قدير فى الجواب ا
 وساجازيك على ذلك
 بقصر عال فى سهب :
 خشبتان قائمتان
 عليهما عارضة .

من المتعذر ان اصف التأثير الذى تركته فى نفسى
 هذه الاغنية الشعبية البسيطة عن المشنقة يغنيها اناس
 حكم عليهم بان يشنقوا . ان وجوههم العنيفة ، واصواتهم
 المنسقة ، ومسحة الجزع التى اضعفوا على الكلمات
 القوية التعبير فى اصلها ، كل ذلك قد هز نفسى برهبة
 شاعرية .

شرب الضيوف القدح الاخير ، ونهضوا من وراى
 المائدة ، وتوادعوا مع بوغاتشوف . اردت ان احذو
 حذوهم ، الا ان بوغاتشوف قال لى : «اجلس ، اريد
 ان اتحدث معك» . وبقينا وحدنا .

استمر صمتنا المشترك عدة دقائق . كان
 بوغاتشوف يتفرس فى ، مقلصا بين الحين والآخر
 عينه اليسرى فى تعبير مدهش عن المكر والسخرية .
 واخيرا ضحك وبمرح طليق جدا حتى اخذت اضحك وانا
 انظر اليه دون ان اعرف السبب . وقال لى :

- يا صاحب السيادة ! قل الحقيقة ، هل جئنت حين القرى فتيا نى الحبل على رقبته ؟ اظن ان الفزع جعلك ترى النجوم فى الضحى . . . لو لا خادمك لكنت الآن تتدلى من العارضة . لقد عرفت المتذمر الهرم فى الحال . ولكن هل كنت تظن ، يا صاحب السيادة ، ان الرجل الذى قادك الى النزول كان القيصر العظيم بعينه ؟ (وهنا اكتسى وجهه بهيئة العظمة والغموض ، وتابع قوله) انت مذنب نحوى ذنبا عظيما ، ولكننى عفوت عنك جزاء معروفك ، لانك قدمت لى خدمة ايام كنت مضطرا الى الاختفاء عن اعدائى . سترى الكثير ! ساجازيك حين احصل على ملكى ! هل تعدنى بان تخدمنى بحماس ؟

وبدا لى سؤال المحتال وجراته فكهين جدا حتى لم استطع الا ان اضحك .

سأل متعبسا :

- ما الذى يضحكك ؟ ام انك لا تصدق باننى القيصر العظيم ؟ اجب بصراحة . ارتبكت . لم اكن اقدر على ان اعترف بان هذا المتشرد قيصر : فان ذلك سيكون خورا لا يفتقر . كما ان تسميته بالمحتال فى وجهه قد يعرضنى الى الوقوع فى ايدى القتلة . ان ما كنت مستعدا له وانا تحت المشنقة امام انظار الناس جميعا ، فى السورة الاولى من الفيظ بدا لى الآن تبجحا لا فائدة منه . وترددت . وكان بوغاتشوف ينتظر ردى جهم الاسارير . واخيرا (وانا حتى الآن اذكر تلك اللحظة برضى نفسى) انتصر شعور الواجب فى نفسى على الضعف البشرى .

اجبت بوغاتشوف : «اسمع . ساقول لك الحقيقة كلها .
قدر بنفسك هل تستطيع انا الاعتراف بك قيصرًا ؟
انت رجل ذكي ، وسترى بنفسك اننى اخادعك» .

- ومن انا ، حسب رأيك ؟
- الله اعلم بك ، ولكن مهما تكن انت فانك
تلعب لعبة خطيرة .

نظر بوغاتشوف الى نظرة سريعة وقال : «اذن ،
فانت لا تصدق باننى القيصر بيتر فيودوروفيتش ؟
حسنًا . الا تعترف بان الفوز للجسور ؟ الم يفز غريشكا
اوتريبيف * بالقيصر فى الزمان القديم ؟ لك الحرية فى
ان تظن بى ما تريد ، ولكن لا تتخل عنى . ما الذى
يهمك فيما لا يعنىك ؟ لا فرق من تخلم . اخدمنى
باخلاص وصدق ، وساجازيك بان اجعلك فيلدمارشالا
واميرا . فما رأيك ؟

اجبته بتصميم :

- لا . انا نبيل فى الاصل ، وقد اقسمت يمين
الولاء للامبراطورة . لا أستطيع ان اخدمك . دعنى
اسافر الى اورنبورغ اذا كنت تريد لى الخير حقًا .
فكر بوغاتشوف . وقال : «هل تعدنى ، اذا تركتك
تذهب ، بالآ تقف ضدى على اقل تقدير ؟» .

اجبته :

- وكيف أستطيع ان اعدك بذلك ؟ انت تعرف

* الدعى الذى ادعى بانه ديميتري ابن القيصر ايفان
الرهيب . كان ديميتري الزائف هذا دمية بايدى المتدخلين
البولويين ، وقد استولى على العرش الروسى خلال ١١ شهرا
(١٦٠٥-١٦٠٦) . (الفاخر ٠)

اننى مسير لا مخير . اذا امرونى بان اقف ضدك
ساقف ، ولا خيار لى فى ذلك . انت الآن رئيس ،
وتطلب الطاعة من رجالك . فماذا سيكون اذا رفضت
ان اخدم حيث يحتاجون الى خدمتى ؟ ان راسى تحست
سلطتك ، فاذا اطلقتنى قلت شكرا ، واذا شنقتنى كان
الله قاضيك . اما انا فقد قلت لك الحقيقة .

اذهلت صراحتى بوغاتشوف . قال لى بضربة على
كتفى : «ولیکن ذاك . عقابى صارم وعفوى سموح .
اذهب الى حيث تشاء ، وافعل ما تريد . تعال فى الغد
لتوديعى . والآن اذهب لتنام ، فان النعاس اخذ يطبق
علىّ» .

تركت بوغاتشوف ، وخرجت الى الشارع . كان
الليل ساجيا وشديد البرودة . وكان القمر والنجوم
تتالق ساطعة فى السماء ، مضيئة الساحة والمشنقة .
وكان كل شىء فى القلعة ساكنا وداكنا . وكانت الحانة
وحدها مضادة ، تصدر منها صيحات المتأخرين فى
القصف واللهو . القيت نظرة على بيت القس . كانت
الصفاقات والبوابة مغلقة . وكل شىء فيه قد هدا .

وصلت الى مسكنى فوجدت سافيليتش فى قلق
شديد على غيابى . افرحه نبا اطلاق سراحى فرحا لا
يوصف . قال وهو يرسم علامة الصليب : «المجد
لك ، يا رب القدرة ! سنترك القلعة عند الفجر ،
ونسير فى الدنيا الواسعة . اعددت لك بعض الطعام .
فكل يا عزيزى ، ونم حتى الصباح قرير العين» .
تبعته نصيحته ، فتعشيت بشهية كبيرة ، ونمت
على الارض العارية متعبا فى الروح والجسد .

الفصل التاسع

الفراق

ما اطيب اللحظة
التي عرفتك فيها
يا جميلتي ؛
وما اشقى فراقى لك
وكانه فراق الروح .
(من اغنية «الفراق» لغيراسكوف .)

ايقظني قرع الطبل في الصباح الباكر . ذهبت الى
مكان التجمع ، فرايت حشود بوغاتشوف مصطفة بالقرب
من المشنقة ، حيث ما زالت ضحيتا الامس معلقتين .
كان القوزاق راكبين الخيول ، والجنود يحملون البنادق ،
والرايات ترفرف . وقد شددت الى العربات بعض
المدافع . عرفت من بينها مدفعنا . وكان جميع الاهالي
مجتمعين هناك في انتظار الدعى . وعند مدخل بيت
الامر كان احد القوزاق يمسك مقود جواد ابيض رانع
من نسل قيرغيزى . بعنت ببصرى عن جنة زوجة الامر .
فرايتها قد جرت قليلا في ناحية ، وغطيت بحصيرة من
الليف . واخيرا خرج بوغاتشوف من الرواق . فخلع
الناس قبعاتهم . توقف بوغاتشوف على مدخل البيت ،

وسلم على الجميع . قدم له احد العمد كيسا من النقود النحاسية ، فأخذ يرميها حفنات . اندفع الناس لالتقاطها متصايحين . ولم يسلموا من اذى . احاط ببوغاتشوف الرؤساء من اعوانه . وكان بينهم شفابرين . والتقت نظراتنا . استطاع ان يقرأ في نظرتي الازدراء ، فتنكب عنى مظهرا ضغنا صريحا ، وهزأ متكلفا . لمحنى بوغاتشوف بين الجمع فهز رأسه لى يدعونى اليه . قال لى : «اسمع ، سافر الساعة الى اورنبورغ وابلغ عنى الوالى وجميع الجنرالات بأن ينتظرونى هناك بعد اسبوع . انصحهم بأن يستقبلونى بحب الابناء لابيهم وبالطاعة ، والا فسينتظروهم عقاب صارم . سفرة ميمونة ، يا صاحب السيادة ! - ثم التفت الى الناس وقال مشيرا الى شفابرين - يا ابنانى ، هذا آمركم الجديد ، فاطيعوه فى كل شىء ، وسيكون مسؤولا امامى عنكم وعن القلعة» . اصغيت الى هذه الكلمات مذعورا . اصبح شفابرين صاحب الامر فى القلعة ، وصارت ماريا ايفانوفنا تحت سلطته ! الله يعلم ماذا سيحصل لها ! ترك بوغاتشوف مدخل البيت . فقدموا له الجواد . قفز الى السرج بخفة غير منتظر القوزاقين اللذين ارادا ان يعيناه .

وفى تلك اللحظة رايت خادمى سافيليتش يخرج من الحشد ، ويتقدم من بوغاتشوف ، ويقدم له ورقة . لم استطع ان احزر الى ما سيؤول ذلك . سأل بوغاتشوف بعظمة : «ما هذا ؟» اجاب سافيليتش : «اقرا ، وسترى» . تناول بوغاتشوف الورقة ، وتمعن فيها طويلا بهيئة معتبرة . وقال فى النهاية : «ما هذه الكتابة

الرديئة ؟ ان عينينا الوضاءتين لا تستطيعان فك
خربتها . اين كبير الامناء ؟»

ركض شاب في سترة عريف نحو بوغاتشوف
بسرعة . فقال له الدعى وهو يناوله الورقة : «اقراها
بصوت عال» . وتملكنى فضول بالغ لمعرفة ما عن
للربى ان يكتبه لبوغاتشوف . اخذ كبير الامناء يقرأ
ما يلى بصوت عال ، متهجيا المقاطع :

- «مبذلان احدهما قطنى والثانى حريرى مخطط ،
سعر كليهما ستة روبلات» .

قال بوغاتشوف متهجما :

- ما يعنى هذا !

اجاب سافيليتش فى هدوء :

- مره ان يواصل القراءة .

واصل كبير الامناء القراءة :

- «سترة عسكرية من الجوخ الاخضر الناعم
بسبعة روبلات .

سروال ابيض من الجوخ بخمسة روبلات .

اثنا عشر قميصا من الكتان الهولندى باكام
بعشرة روبلات .

حقيبة لعدة الشاى بروبلين ونصف»

قطع بوغاتشوف القراءة بقوله :

- ما هذا الهراء ؟ ما علاقتى بالحقائب والسراويل
ذات الاكام ؟

تنحى سافيليتش ، واخذ يشرح :

- هذه اذا تفضلت وسمحت ، قائمة بامتعة
السيد التى نهبها الاشرار

سال بوغاتشوف بلهجة متوعدة :

- من هؤلاء الاشرار ؟

اجاب سافيليتش :

- ارجو المعذرة : زلة لسان . اشرار او غير

اشرار ، الا ان فتيانك نبشوا ونهبوا . لا تفضب ، حتى
الحصان يكبو وهو ذو قوائم اربع . مره ان يقرأها
حتى النهاية .

امر بوغاتشوف بان يقرأها حتى النهاية .

فاستمر كبير الامناء في القراءة :

- «دثار قطنى ، وآخر من التفتة المخلوطة بالقطن

باربعة روبلات .

معطف من فراء الثعلب مبطن بجوخ قرمزي ، ٤٠

روبلا .

معطف آخر صغير من فراء الارنب وهب لحضرتك

في النزول ، ١٥ روبلا» .

صاح بوغاتشوف وقد برقت عيناه غيظا :

- ما هذا ايضا !

اعترف باننى خفت على مربى المسكين . هم مرة

اخرى بان يشرح الامر . الا ان بوغاتشوف قاطعه

صانحا ، وهو يختطف الورقة من يد كبير الامناء ،

ويقذفها في وجه سافيليتش : «كيف جرات على التناول

على بهذه السفاسف ؟ ايها العجوز الاحمق ! نهبوها !

فما المصيبة في ذلك ؟ ثم يجب ان تدعو الله لي

ولفتيانى طوال عمرك ، ايها المتذمر الهرم ، لاننا لم

نشنقك وسيدك ، هنا ، مع الذين خرجوا على

طاعتى . . . معطف من فراء الارنب ! ساريك المعطف !

هل تعرف اننى سأمر بسلخ جلدك حيا لاصنع منه
معطفا؟»

اجاب سافيليتش :

- كما تريد ، ولكننى رجل مأمور ومسؤول عن
امتعة السيد .

كان بوغاتشوف ، على ما يبدو ، فى نوبة من
السماحة .

استدار ، وسار فى طريقه دون ان ينطق بكلمة
اخرى . وسار شفابرين والعمد وراه . خرجت العصا
من القلعة فى نظام . وسار الناس يودعون بوغاتشوف
بقية فى الساحة مع سافيليتش . كان مربي يمسك
قائمة فى يديه ، وينظر فيها باسى عميق .

رأى على وفاق حسن مع بوغاتشوف ففكر ان يجنى
منه فائدة ؛ الا ان مسعاه لم ينجح . رحت الومه على
هذا الحماس الذى جاء فى غير محله ، ولم استطع ان
امنع نفسى من الضحك . اجاب سافيليتش : «اضحك ،
يا سيد ، اضحك . لكن عندما نحتاج الى الامتعة من
جديد ، فسئرى هل ذلك مضحك ام لا» .

هرعت الى بيت القس لارى ماريا ايفانوفنا .
استقبلتنى زوجة القس بنبا مؤلم . فى الليل اصيبت
ماريا ايفانوفنا بحمى شديدة . وهى الآن ترقد فى
غيبوبة وهذيان الحمى . قادتنى زوجة القس الى
حجرتها . اقتربت من سريرها بهدوء . فرايت على
وجهها تغيرا صعقنى . لم تعرفنى المريضة . وقفت
امامها طويلا ، غير مستمع الى الاب غيراسيم ، ولا الى
زوجته الطيبة اللذين جاهدا ، على ما يبدو ، لادخال

الطمأنينة الى قلبى . كانت تقلقنى افكار كنيبة . وترعبنى حالة اليتيمة المسكينة ، المتروكة بين المتمردين الاشرار دون حماية مضافا الى ذلك عجزى . وكان شفايرين اكثر ما يعذب تصورى . فقد كان فى مقدوره ان يقدم على كل شىء ، وقد خول السلطة من الدعى ، وصار المتحكم فى القلعة ، حيث تركت فتاة تعيسة غرضا بريئا لكراهيته . ماذا ينبغى ان افعل ؟ كيف اساعدها ؟ وكيف اخلص من يد الشرير ؟ لم تبق الا وسيلة واحدة : فعزمت على التوجه فى هذه الساعة الى اورنبورغ ، بغية التعجيل فى تحرير قلعة بيلوغورسك ، والعمل عليه بقدر الامكان . توادعت مع القس ومع اقولينا بامفيلوفنا ، واوصيتهما بأن يرعيا تلك التى قد اعتبرتها زوجتى . تناولت يد الفتاة المسكينة ، وقبلتها نائرا عليها دموعى . قالت لى زوجة القس وهى تودعنى : «وداعا يا بيتر اندريفيتش . آمل ان نلتقى فى وقت افضل . لا تنسانا ، واكثر من الكتابة لينا . الآن ليس لعاريا ايفانوفنا المسكينة غيرك سلوى وحاميا» .

خرجت الى الساحة ، وتوقفت دقيقة ونظرت الى المشنقة ، وانحنيت لها ، وغادرت القلعة ، وسرت فى الطريق الى اورنبورغ يصحبنى سافيليتش الذى لم يبارحنى .

سرت مشغولا بافكارى ، واذا بى اسمح كركبة حصان ورائى . التفت فرايت قوزاقيا يعدو من القلعة ويمسك جوادا باشكيريا آخر من مقوده ، ويومى الى من بعيد . توقفت ، وبعد قليل عرفت انه ضابط

صفنا . عندما وصل قفز من حصانه ، وقال وهو يقدم لي مقود الحصان الآخر : «يا صاحب السيادة ! ان مولانا يهبك حصانا وفروة من على كتفه (كانت فروة خروف مربوطة في السرج) ، واضاف متلعثما : «وثمة شيء آخر . انه يهبك نصف روبل . . . ولكنني اضعته في الطريق ، اعذرني بسماحة نفسك» . نظر سافيليتش اليه ، وتذمر : «اضاعه في الطريق : ما هذا الذي يرن في صدر ثوبك ؟ يا معدوم الضمير !» فرد ضابط الصف دون ان يرتبك البتة : «ما هذا الذي يرن في صدر ثوبي ؟ سامحك الله ، يا شيخ ! هذا رنين اللجام ، لا نصف الروبل» . قلت قاطعا الجدل : «حسنا ، اشكر لي من ارسلك . اما نصف الروبل الذي اضعته فحاول ان تعثر عليه في طريق عودتك ، وخذه واشرب به الفودكا» . اجاب وهو يدير حصانه : «ممتن جدا ، يا صاحب السيادة ! سادعو الله لك طوال عمري» . وبعد هذه الكلمات عدا راجعا ، واضعا احدي يديه على صدر ثوبه ، وبعد دقيقة اختفى عن البصر . ارتديت الفروة ، وامتطيت الجواد بعد ان اركبت سافيليتش ورائي . قال العجوز : «اترى ان تقديمي الشكوى لذلك المحتال لم يذهب هباء . استحي اللص رغم ان الكديش الباشكيرى الهزيل وفروة الخروف لا يساويان نصف ما سرقه اولئك المحتالون منا وما وهبته له . ولكن كل شيء سينفع . حتى شعرة من جلد خنزير» .

الفصل العاشر

حصار المدينة

بعد ان استولى على الفياض والجبال ،
لقى على المدينة نظرة من شاهق ، كالنسر .
وامر باقامة سد وراء المعسكر
لتحبا المدافع وراهه ، وفي الليل تصوب الى المدينة .
(خيراسكوف .)

عندما اقتربنا من اورنبورغ رأينا جمعا من
المحكومين المقيدين ذوى الرؤوس الحليقة ، والوجوه
التي شوهتها مقارض السفاكين . كانوا يعملون تحت
مراقبة جنود الحامية المشوهين . كان بعضهم يحملون
على عربات صغيرة الفضلات التي كانت تملأ خندقا .
وآخرون يحفرون الارض بالارفاش . وعلى السد كان
عمال الحجارة يجلبون الأجر ، ويرمون سور المدينة .
اوقفنا الحارس عند بوابة المدينة وطلب جوازينا . ما
ان عرف الرقيب باننى قادم من قلعة بيلوغورسك
حتى قادنى الى بيت الجنرال راسا .

لقيته فى الحديقة . كان يتفقد اشجار التفاح التي
عرتها انفاس الخريف ، ويفطئها بالثش الدافئ حريصا
عليها يساعده فى ذلك بستانى عجوز . كان وجهه

الجنرال يشع طمانينة وعافية وطيبة قلب . سر بمقدمي ، وشرع يسأل عن الاحداث المرعبة التي شهدتها . قصصت عليه كل شيء . اصفى الى العجز بانتباه وخلال ذلك كان يقطع الاغصان اليابسة . وعندما انتهيت من روايتي الفاجعة قال : «مسكين ميرونوف ! يؤسفني مصرعه . لقد كان ضابطا مقداما . وكانت مدام ميرونوف سيده نبيلة ، وماهرة في تحليل الفطر ! وكيف ماشا ابنة الأمر ؟» اجبته بانها بقيت في القلعة تحت رعاية زوجة القس . ردد الجنرال : «اي . اي ، اي ! هذا سيي ، سيي ، جدا . لا يمكن الاعتماد ابدا على سلوك اللصوص . ماذا سيكون من امر هذه الفتاة المسكينة ؟» اجبت بان قلعة بيلوغروسك غير بعيدة ، ومن الارجح ان فخامته سيسرع في ارسال القوات لتحرير اهاليها المساكين . هز الجنرال راسه في تشكك . وقال : «سنرى ، سنرى ، سيكون لنا الوقت للتحدث عن ذلك . ارجو التفضل لتناول الشاي عندي : اليوم سيعقد مجلس حربي في بيتي . وفي وسعك ان تدلي لنا بمعلومات دقيقة عن هذا الصعلوك بوغاتشوف ، وعن قواته . والآن اذهب لتنال بعض الراحة» .

ذهبت الى المسكن الذي خصص لي ، حيث وجدت سافيليتش منشفلا في تنظيمه ، واخذت انتظر بنفاد صبر الوقت المحدد . والقارى يستطيع ان يتصور بسهولة اننى لم اتوان عن حضور مجلس لا بد ان يكون له تأثير كبير في مصيرى . في الساعة المحددة كنت عند الجنرال .

وجدت عنده احد موظفي المدينة هو ، على ما اذكر

مدير الجمارك ، وهو رجل عجوز سمين مورد الخدين يرتدى قفطانا من الحرير المقصب . شرع يسألني عن مصير ايفان كوزميتش الذي سماه عراب اولاده ، وكان لا يفتأ يقطع كلامي بأسئلة اضافية ، وملاحظات تهذيوية اذا لم تكن قد اظهرته بمظهر رجل عليم في الشؤون العسكرية ، فانها ، على اقل تقدير ، نمت عن نفاذ بصيرة ونباهة فطرية . وخلال ذلك كان المدعوون الآخرون قد حضروا ولم يكن بينهم عسكري آخر غير الجنرال نفسه . وعندما جلس الجميع ووزعت عليهم اقداح الشاي عرض الجنرال وضع الامور بوضوح شديد واطناب . واستمر يقول : «الآن ، ايها السادة ، ينبغي ان نقرر كيف يجب ان نتصرف مع العصاة ، وهل نتخذ طريقة الهجوم ام الدفاع ؟ فان لكل واحدة من هاتين الطريقتين منافعها ومضارها . وطريقة الهجوم تتيح املا اكبر في دحر سريع للعدو ، بينما طريقة الدفاع اوثق واكثر ضمانا . . . والآن لنبدأ بجمع الاصوات حسب الطريقة القانونية ، اي ان نبدأ من ذوى الرتب الصغيرة بيننا» . وهنا التفت الى الجنرال وسألني : «ايها السيد الملازم ، ارجو التفضل بابداء رأيك» .

نهضت ، ووصفت بكلمات مختصرة بوغاثشوف وعصابته في بادى الامر ، ثم قلت مؤكدا ان الدعى لا يملك القدرة على مقاومة السلاح النظامي . استقبل الضيوف راىي بسلبية واضحة . وقد وجدوا فيه تهور شاب وجسارته . وارتفع لفظ ، وسمعت بوضوح كلمة «حدث غر» يتفوه بها احدهم

بصوت خفيض . التفت الى الجنرال ، وقال مبتسما :
«ايها السيد الملازم ! في العادة تكون الاصوات الاولى
في المجالس العسكرية لصالح العمليات الهجومية ، وهذا
امر مشروع . والان لنواصل جمع الاصوات . السيد
الملاحظ ! قل لنا رايتك !»

اسرع العجوز ذو القفطان المقصب بافراغ بقية
قدحه الثالث المطعم بكمية كبيرة من الروم ، واجاب
الجنرال : «لا اعتقد ، يا صاحب الفخامة ، بضرورة
الايخذ بطريقة الهجوم او الدفاع» .

اعترض الجنرال مندهشا :

- وكيف ذلك ، يا حضرة الملاحظ ؟ لا توجد في
التكتيك الحربى غير طريقتين : الهجومية والدفاعية . . .
- جربوا طريقة الارشاء .

- إخ - إخ - إخ ! رايتك معقول جدا ! فان
التكتيك الحربى يبيع طرق الارشاء ، وسنستفيد من
نصيحتك . ربما سنضع مبلغ سبعين روبلا وحتى مائة
من المخصصات السرية مكافاة لكل من ياتينا براس
الصعلوك . . .

فبادر مدير الجمارك يقول :

- ساكون خروفا قيرغيزيا اذا لم يسلم
هؤلاء اللصوص رئيسهم مشدود اليدين والرجلين .
رد الجنرال :

- سنفكر بذلك ونتحدث مرة اخرى . وعلى كل حال
يجب ان نتخذ تدابير عسكرية تحسبا لكل طارىء .
ايها السادة ، قدموا آراءكم ، حسب التسلسل
القانونى .

وظهر ان جميع الآراء تخالف رأيي . فقد تحدث جميع الموظفين مبلغين عن عدم اطمئنانهم الى القوات ، وعدم وثوقهم في النجاح ، وعن الحذر وما شابه ذلك . وراى الجميع ان البقاء تحت حماية المدافع ، وراء السور الحجرى القوي ، اصوب من الخروج الى الارض الفضا . لنجرب حفظنا في السلاح . وعندما فرغ الجنرال من سماع كل الآراء اخيرا ، نفى الرماد من غليونه ، والقى الكلمة التالية :

- ايها السادة ! يجب ان اعلن لكم اننى من جانبى متفق تمام الاتفاق مع راى السيد الملازم ، لان رايه مستند الى جميع اصول التكتيك الحربى السليم الذى يفضل دانما تقريبا الحركات الهجومية على الحركات الدفاعية .

وهنا توقف ، واخذ يحشو غليونه . وشعرت بان كبريائى قد انتصرت ، فنظرت بانفة الى الموظفين الذين كانوا يتهامسون فيما بينهم مظهرين الامتعاض والقلق .

اطلق الجنرال نفثة كثيفة من دخان التبغ مع زفير عميق ، وقال :

- ولكننى ، يا سادة ، لا اجرؤ على ان آخذ على عاتقى مسؤولية عظيمة حتى يكون الامر متعلقا بسلامة الاقاليم التى وضعتها مولاتى جلالة الامبراطورة الموقرة فى عهدتى . ولهذا فساخذ بغالبية الآراء التى اقرت بان اصوب وآمن طريق هو التحصن داخل المدينة فى انتظار الحصار ، وصد العدو بقوة المدفعية و(فى حالة الامكان) باشتباكات محدودة ايضا .

نظر الموظفون الى بدورهم نظرات ساخرة . وانفض المجلس . ولم استطع ان امنع نفسي من الاسف على ضعف هذا المحارب المحترم الذي قرر خلافا لاقتناعه الشخصي ان ياخذ براى اناس جهلة غير مجربين .

بعد انقضاء عدة ايام على هذا المجلس المشهود عرفنا ان بوغاتشوف قد اقترب من اورنبورغ بارا بوعده . شاهدت قوة المتمردين من اعلى سور المدينة . وبدا لى ان عددهم قد ازداد عشر مرات منذ الغارة الاخيرة التى شهدتها . وكانت معهم المدفعية التى اخذها بوغاتشوف من القلاع الصغيرة التى احتلها . وطاف فى ذهنى قرار المجلس العسكرى فتنبات بحصار طويل الاجل داخل اسوار اورنبورغ ، وكدت ابكى من الاسى .

لا اريد ان اصف حصار اورنبورغ فهو من اختصاص المؤرخ ، ولا يخص مذكرات عائلية . بل اقول باختصار ان هذا الحصار كان ، بسبب تراخى القيادة المحلية ، وبالا على الاهالى الذين عانوا الجوع ومختلف الويلات . فى وسع المرء ان يتصور بسهولة ان الحياة فى اورنبورغ كانت لا تطاق الى اقصى حد . فكان الجميع ينتظرون بجزع حكم القدر عليهم ، ويتوجعون من غلاء الاسعار الذى كان فظيما فى الواقع . اعتاد الاهالى على القنابل المتطايرة الى افنية دورهم ، وحتى هجمات بوغاتشوف لم تعد تثير اهتمام العامة . ضجرت ضجرا قاتلا . ومضى الزمن . ولم اتلق رسائل من قلعة بيلوغورسك . فقد كانت جميع الطرق مقطوعة . ولم اعد احتمل الافتراق عن ماريا ايفانوفنا . وعذبنى جهلى بمصيرها . وكان ركوب الحصان سلوتى الوحيدة . فقد تكرم بوغاتشوف على

بحصان جيد كنت اقسامه طعامي الشحيح ، واخرج
به كل يوم خارج المدينة اطلاق الرصاص مع
فرسان بوغاتشوف . وكانت الغلبة في هذه المناوشات
عادة من نصيب هؤلاء الاشرار الشباع ، السكارى ،
المتطين خيولا جيدة . وكانت فرقة الخيالة نصف
الجائعة في المدينة لا تستطيع التغلب عليهم . وكان
مشاتنا الجائعون يخرجون في بعض الاحيان الى الميدان ،
الا ان الثلج العميق كان يعيق عملهم بنجاح ضد
فرسان العدو المبعثرين . وكانت مدفيعتنا تهدر عبثا
من فوق السور ، اما في الحقل فقد كانت تتمصى ولا
تستطيع حراكا بسبب هزال الخيول التي تجرها . تلك
هي صورة عملياتنا الحربية ! وهذا ما سماه موظفو
اورنبورغ بالحذر والتبصر !

ذات مرة افلحنا بطريقة ما في تفريق ومطاردة حشد
كثيف جدا ، والتقيت بقوزاقي تخلف عن زملائه ،
وتهيات لضربه بسيفي التركي ، واذا به يخلع
قبعته فجأة ، ويهتف :

- مرحبا ، يا بيتر اندريفيتش ! كيف انت ،
حفظك الله ؟

نظرت اليه فعرفت انه ضابط صفنا . سررت به
سرورا بالغا . قلت له :

- مرحبا ، يا مكسيميتش . هل مضى وقت طويل
على خروجك من قلعة بيلوغورسك ؟

- لا ، يا سيد بيتر اندريفيتش . بالامس فقط .
وانا احمل لك رسالة .

هتفت وقد تاجح كياني كله انفعالا :

- اين هي ؟

اجاب مكسيميتش واضعا يده على صدره :

- معي . وعدت بالاشا ان اوصلها اليك بطريقة

ما .

وقدم لي ورقة مطوية . وولي مخبا على فرسه في الحال . بسطت الورقة ، وقرات السطور التالية بلهفة :

«قضى الله ان افقد ابي وامى فجأة . وليس لي في الدنيا لا اقارب ، ولا حام . وانا الجا اليك عارفة بانك كنت دائما ترجو لي الخير ، وبانك مستعد لاعانة كل انسان . ادعو الله ان تصلك هذه الرسالة بطريقة ما . فقد وعد مكسيميتش بان يوصلها لك . سمعت بالاشا من مكسيميتش ايضا انه كثيرا ما يراك من بعيد في المناوشات ، وانك لا تحافظ على نفسك ، ولا تفكر بالذين يدعون الرب لحفظك والدموع في عيونهم . لزمنا فراش المرض طويلا ، وعندما تماثلت الى الشفاء اجبر الكسى ايفانوفيتش الذى احتل مكان ابي في امرية القلعة الاب غيراسيم على ان يسلمنى له بعد ان هدده ببوغاتشوف . وانا الآن اعيش في بيتنا تحت الحراسة . والكسى ايفانوفيتش يلح علىّ بالزواج منه . ويقول انه انقذ حياتى لانه لم يكشف عن خداع اوكولينا بامفيلوفنا التى زعمت للاشرار باننى ابنة اخيها . اما انا فالموت اخف علىّ من ان اكون زوجة لرجل من مثل الكسى ايفانوفيتش . انه يعاملنى معاملة قاسية جدا . ويتوعدنى بارسالى الى معسكر الدعى اذا لم اغيير فكري ، واوافق . وعندئذ سيكون مصيرى مثل مصير

ليزافيتا خارلوتا المخطوفة . رجوت الكسى ايفانوفيتش
ان يمهلنى لافكر فى الامر . فوافق على ان ينتظر ثلاثة
ايام اخرى ، واذا لم اتزوجه بعدها فلن يراف بى .
عزيزى بيتر اندريفيتش ! انت الحامى الوحيد لى ،
فدافع عنى ، انا المسكينه . اطلب الى الجنرال وجميع
امراء الوحدات بان يرسلوا لنا نجدة فى اقرب وقت
ممكن ، وتعال انت ايضا ، اذا امكنك ذلك . وسأظل
مطبعة لك . اليتيمة المسكينه

ماريا ميرونوفا .

كدت افقد صوابى حين فرغت من قراءة الرسالة .
انطلقت فى المدينة هامزا جوادى المسكين بلا رافة .
وفى الطريق قلبت فى ذهنى مختلف الافكار لانقاذ الفتاة
المسكينه . ولم استقر على واحدة . فى المدينة توجهت
راسا الى بيت الجنرال ، ودخلت عليه راكضا .
كان الجنرال يندرع الغرفة جيئة وذهوبا مدخنا
غليونه المصنوع من معدن خاص . وحين رآنى توقف .
والراجع ان منظرى قد اذهله فاستفسر باهتمام عن
سبب قدومى العجول هذا . قلت له :

- يا صاحب الفخامة ، الجا اليك كما يلجا الابن
الى والده .. بحق الرب لا ترفض رجائى : فان الامر
يتعلق بسعادة حياتى كلها .

سال العجوز مندهشا :

- ما هو الامر ، يا بنى ؟ ماذا فى وسعى ان افعل
لك ؟ تكلم .

- يا صاحب الفخامة ضعنى على راس سرية من

الجنود وخمسين من القوزاق ، واتركنى احمر قلعة بيلوغورسك .

حقد الجنرال فى متفرسا ، ظانا ، فى الغالب ، اننى قد جننت (وهو كان فى ذلك مجانبا للصواب تقريبا) .

قال الجنرال اخيرا :

- كيف هذا ؟ تحرر قلعة بيلوغورسك ؟

اجبت بحماس :

- اتعهد لك بان انجح شرط ان تاذن لى .

قال الجنرال هازا راسه :

- لا ، ايها الشاب . على هذه المسافة الطويلة

يستطيع العدو بسهولة ان يقطع عليكم الاتصال

بالنقطة الاستراتيجية الرئيسية ، وينتصر عليكم

انتصارا تاما . والاتصال المقطوع . . .

وفزعت وانا اراه منجذبا فى مناقشات عسكرية .

فاسرعت اقاطعه قائلا :

- ابنة الامر ميرونوف كتبت لى رسالة تطلب فيها

النجدة . شفابرين يجبرها على الزواج منه .

- حقا ؟ اوه ، ان شفابرين هذا Schelm .

كبير ، اذا وقع فى قبضتى امرت بمحاكمته خلال اربع

وعشرين ساعة ، وسنعدمه رميا بالرصاص على سور

القلعة ! ولكن ينبغى التزام الصبر الآن . . .

صحت خارجا عن اطوارى :

- التزام الصبر ! وهو خلال ذلك يتزوج ماربا

ايفانوفنا ! . . .

* محتال . (بالالهائية) .

فرد الجنرال :

- اوه ! ليست هذه بلية . الافضل لها في الوقت الحاضر ان تكون زوجة شفابرين . فقد يكون حاميا لها ، وعندما نعدمه ستجد لها خطابا كثيرين بحمد الله . فان الارامل الحلوات لا يبقين بلا ازواج ، اى اريد ان اقول ان الارملة تلقى زوجها اسرع من الفتاة . قلت في جنون :

- افضل الموت على ان اتركها لشفابرين !

قال العجوز :

- با ، با ، با ، با ! الان افهم . الظاهر انك تعشق ماريا ايفانوفنا . آوه ، هذا شئ آخر ! مسكين انت ! ومع ذلك لا تستطيع ان اعطيك سرية من الجنود وخمسين قوزاقيا . فان هذه الحملة لن تكون معقولة . ولا تستطيع ان اتحمل مسؤوليتها .

نكست راسى ، وتملكنى الياس . وفجأة خطرت فكرة في راسى . والقارى سبرى جوهر هذه الفكرة في الفصل التالى ، على حد ما يقوله الروائيون القدامى .

الفصل الحادى عشر

قرية العصاة

عندئذ شبع الاسد ،
ورغم طبعه الضارى ،
سال بركة :
« لماذا انا في عرينى ؟ »
(ا . سوماروكوف . *)

تركت الجنرال واسرعت الى مسكنى . قابلنى
سافيليتش بعتابه المعتاد «كانك تجد لذة فى مصاولة
اللصوص السكارى ! اهذا عمل السادة ؟ لعبة خطيرة
ستسلمك الى الهلاك بلا سبب . لو كنت تحارب الاتراك
او السويديين فذلك شىء آخر ، اما هذا فلا اعرف ما
هو» .

قطعت كلامه بسؤال : كم مجموع ما عندى من
النقود ؟ اجاب بلهجة راضية مرضية : «ما فيه الكفاية .
رغم ان اللصوص نبشوا كل شىء الا اننى استطعت ان
اخفى شيئا» . وبهذه الكلمة اخرج من جيبه كيسا
طويلا محাকা ، مملوا بالنقود الفضية . قلت له

* هذا الشعر من نظم بوشكين ، ولكنه نسبه الى
سوماروكوف . (الناشر .)

«حسنا ، يا سافيليتش ، اعطني الآن نصف ما عندك ،
وخذ البقية لك . انا ذاهب الى قلعة بيلوغورسك» .
قال المربي الطيب مرتجف الصوت :

- يا عزيزى بيتر اندريفيتش ! اتق الله ، كيف
يمكنك السفر في وقت يقطع فيه اللصوص كل الطرق !
اشفق على والديك على الاقل ، اذا كنت لا تشفق على
نفسك . ما حاجتك الى السفر ؟ ولماذا ؟ انتظر قليلا ،
فستاتي القوات ، وتقتنص اللصوص ، وعندئذ اذهب
الى حيث تشاء من الجهات الاربع .

الا اننى عزمت عزمى القاطع . رددت على العجوز :
- جدالك فات اوانه . يجب ان اسافر ، ولا
استطيع الا ان اسافر . فلا تأس ، يا سافيليتش ،
فالله رحيم ، ومن الممكن ان نلتقى . فلا تخجل ، ولا
تبخل على نفسك . اشتر ما تحتاج اليه ، ولو بثلاثة
اضعاف . فانا اهبك هذه النقود . واذا لم اعد خلال
ثلاثة ايام . . .

قاطعنى سافيليتش :

- ما هذا ، يا سيد ؟ اسمح لك بالسفر وحدك !
لا تطلب ذلك حتى في الحلم . اذا كنت قد عزمت على
السفر ، فانا ذاهب وراك ولو مشيا ، ولكن لن اتركك .
لن ابقى بدونك وراء سور حجرى ! وهل فقدت عقلى
لافعل ذلك ؟ كما تريد ، يا سيد ، ولكن لن اتخلى
عنك .

وعرفت ان الجدل مع سافيليتش لا يجدى نفعا .
فسمحت له بالتهيؤ للسفر . وبعد نصف ساعة جلست
على جوادى النجيب ، بينما امتطى سافيليتش كديشا

نحيفا اعرج اعطاه احد اهالى المدينة بلا ثمن ، وقد
 اعوزه المال لاطعامه . ذهبنا الى بوابة المدينة ، وسمح
 لنا الحرس بالسفر ، فخرجنا من اورنبورغ .
 بدا الظلام يهبط . كان طريقى يمتد على مقربة من
 قرية بيردسك ، ماوى انصار بوغاتشوف . كان الثلج
 قد ازال معالم هذا الطريق المستقيم ولكن آثار سنابك
 الخيل كانت ترى فى السهب كله متجددة كل يوم .
 وكنت انطلق عدوا . وكان سافيليتش ورائى لا يكاد
 يلحق بى ، هاتفا بين آونة واخرى : «اقلل السير ، يا
 سيد ، بحق الرب . كديشى اللعين لا يستطيع ان يلحق
 بشيطانك الطويل القوائم . ما هذه العجالة ؟ لسنا
 ذاهبين الى وليمة ، وقد تنتظرنا فاس . . . بيتر
 اندريفيتش . . . عزيزى بيتر اندريفيتش ! لا تدعنى
 اموت من القلق ! يا رب القدرة ، سيهلك ابن
 الاسياد !»

وبعد قليل لمعت اضواء بيردسك . اقتربنا من
 الوهاد التى هى بمثابة تحصينات طبيعية لهذه القرية .
 ولم يتأخر سافيليتش عنى ، مستمرا بتوسلاته
 المتشكية . كنت آمل ان اتخطى القرية بسلامة ، واذا
 بى ارى امامى فى الظلمة زهاء خمسة فلاحين مسلحين
 بالهروات . كان هؤلاء الحراس الامامين لهذه القرية
 البوغاتشوفية . صاحوا بنا . كنت لا اعرف كلمة السر
 فاردت ان امر بهم صامتا . الا انهم احاطوا بى فى
 الحال ، وقبض احدهم على لجام فرسى . امتشقت
 الحسام ، وهويت به على راس الرجل ، الا ان القبعة
 انقذته . ومع ذلك فقد ترنح ، واطلق اللجام من يده .

واضطرب الآخرون ، وتشتتوا . انتهزت هذه اللحظة ،
وهزت جوادى ، وعدوت مرقلا .
كان من الممكن ان ينجينى جنح الليل المقرب ،
الا انى التفت فجأة ، فلم ار سافيليتش ورائى . ان
العجوز المسكين لم يستطع ان يهرب من اللصوص
بكديشه الاعرج . فماذا افعل ؟ انتظرته بضع دقائق
ثم تأكدت بانهم قد قبضوا عليه . استدرت بحصانى ،
وسرت لانقاذه .

حين وصلت الى الوهدة سمعت ضجيجا وصوت
صاحبى سافيليتش . اسرعت فى السير ، وما هى الا
لحظة حتى رايت نفسى من جديد بين الفلاحين الحراس
الذين اوقفونى قبل دقائق . وكان سافيليتش بينهم .
كانوا يجرون العجوز من فوق كديشه ، ويتهاون لشد
وثاقه . سرهم مقدمى . فاندفعوا نحوى مرسلين
الصيحات ، وبلمحة عين انزلونى من الحصان . واعلن
احدهم لنا ، وهو كبيرهم على ما يبدو ، بأنه سيقودنا
الى القيصر فى الحال . واضاف : «مولانا حر فى ان يأمر
بشنقكم الآن ، ام الانتظار حتى بزوغ الفجر» . لم
اقاوم . وحذا سافيليتش حدوى ، وساقنا الحراس فى
موكب ظافر .

سرنا عبر الوهدة ، ودخلنا القرية . كانت الانوار
قد اضيئت فى كل البيوت ، والضجيج والصيحات تاتى
من كل مكان . رايت فى الشارع عددا كبيرا من
الناس ، الا ان احدا لم يلحظنا بسبب الظلام ، ولم
يعرف باننى ضابط من اورنبورغ . قادونا راسا الى
بيت يقع فى زاوية عند مفترق طريق ، وضعت قرب بابه

بضعة براميل من الخمر ، ومدفعان . قال احد الفلاحين :
«هذا هو القصر . سيبلى عنكما حالا» . ودخل البيت .
القيت نظرة على ساقيليتش . كان هذا العجوز يرسم علامة
الصليب ، ويتلو دعاء في سره . انتظرت طويلا حتى عاد
الفلاح اخيرا ، وقال لى : «ادخل . مولانا امر بادخال
الضابط» .

دخلت البيت ، او القصر ، كما سماه الفلاحون .
كان مضاء بشمعتين من الشحم ، وجدران مغطاة بورق
مذهب ، بينما كان كل شىء فيه مثلما هو فى اى بيت
اعتيادى : المصاطب ، والمنضدة ، ومغسلة الايدى
على حبل ، والفوط معلقة بمسمار ، ومقبض الاوانى فى
ركن ، وخشبة طويلة صفت عليها القدور . كان
بوغاتشوف جالسا تحت الايقونات ، فى قفطان احمر ،
وقبعة عالية ، متخوصرا بمظلة . وقد وقف بالقرب منه
عدد من كبار رفاقه ، يلوح عليهم خضوع زائف . كان
يبدو ان نبا قدوم ضابط من اورنبورغ قد اثار فضول
المتمردين الشديد ، فاستعدوا للقائى باحتفال . عرفنى
بوغاتشوف من النظرة الاولى . فاذا بعظمته الزائفة
تختفى فجأة ، ويقول بادية الحيوية : «آ ، سيادتك !
كيف حالك ؟ ما الذى جاء بك الى هنا ؟» اجبت باننى
كنت خارجا فى شان من شؤونى ، وان رجاله قد
اوقفونى . فسألنى : «فى اى شان ؟» لم اعرف بماذا
اجيبه . فظن بوغاتشوف باننى لا اريد ان اوضح له
فى حضور شهود ، فالتفت الى رفاقه ، وامرهم
بالخروج . اطاعه الجميع الا اثنين لم يتحركا من
مكانيهما . قال بوغاتشوف : «خبرنى بحضورهما ولا

تخف ، فانا لا اخفى عنهما شيئا» . حدثت كاتمي اسرار
الدعى بنظرة جانبية . كان احدهما ، وهو عجوز ضئيل
الجسم ، واهن البنيان ، مقوس الظهر ، اشيب اللحية ،
لا يلفت النظر الا بشريط ازرق ملقى عبر كتفه على
سترة رمادية . ولكن لن انسى رفيقه طوال عمرى .
كان فارغ الطول ، جسيما ، عريض المنكبين ، بدا لي
في نحو الخامسة والاربعين ، كانت له لحية كثة صهبا ،
وعيناه رماديتان براقتان ، وانف بلا منخرين ، وبقع
محمرة منتشرة على جبينه وخديه ، وكل ذلك اضفى
على وجهه المجدور العريض تعبيراً لا يوصف . كان
يرتدى قميصاً احمر ، ورداء قيرغيزيا ، وسروالا
قوزاقيا . كان الاول (كما عرفت فيما بعد) هو العريف
بيلوبرودوف ، والثانى افاناسى سوكولوف (الملقب
بخلوبوشا) مجرم منفى هرب ثلاث مرات من مناجم
سيبيريا . ان هذا المجمع الذى وجدت نفسى فيه
مصادفة قد اسر انتباهى بقوة ، رغم المشاعر الحادة
المعتمة فى داخلى . الا ان بوغاتشوف اعادنى الى الواقع
بسؤاله : «قل لى فى اى شأن خرجت من اورنبورغ ؟»
طرات فكرة غريبة فى راسى ، فخيّل الى ان العناية
الالهية التى قادتنى ثانية الى بوغاتشوف اتاحت لى فرصة
تحقيق مبتغاي . فقررت ان اغتنمها . اجبت عن سؤال
بوغاتشوف قبل ان يتسنى لى التروى فيما عزمتم
عليه :

- خرجت الى قلعة بيلورغورسك لانقذ يتيمة
تعرض للاهانة هناك .

برقت عينا بوغاتشوف . فصاح : «من يجرو من

رجالى على اهانة يتيمة ؟ لن يفلت من محاكمتى ، مهما
بلغ من النباهة . قل لى : من المذنب ؟
اجبت :

- شفايرين المذنب . انه يحتجز تلك الفتاة التى
رايتها طريفة الفراش عند زوجة القس ، ويريد ان
يتزوجها بالاكراه .
قال بوغاتشوف متوعدا :

- سألنى درسا قاسيا على شفايرين هذا . سارىه
كيف يعاقب من يتحكم بالناس ويهينهم . ساشنقه .
قال خلوبوشا بصوت اجش :

- اسمع لى بكلمة . انك تسرعت فى تعيين
شفايرين أمرا للقلمة ، اما الآن فانت تسرع فى
شنقه . لقد اهنت القوزاق بتنصيب رجل من الاعيان
رئيسا عليهم ، فلا تسخط الاعيان بشنق احدهم من اول
وشاية به .

قال المعجوز ذو الشريط الازرق :

- لا حاجة الى الاشفاق عليهم او الى مجاملتهم !
وليس شنق شفايرين بمصيبة كبرى ، ولكن لا ضير
فى استجواب حضرة الضابط استجوابا جيدا : لماذا
جاء . فاذا كان لا يعترف بك قيصر ، فلا حق له فى
ان يسالك رفع ضيم ، اما اذا كان يعترف فلماذا هو
باق فى اورنبورغ حتى اليوم مع خصومك ؟ هلا امرت
بارسالة الى مركز الادارة وتعذيبه . يبدو لى انه
مرسل الينا من امراء اورنبورغ .

بدا لى منطلق الشرير المعجوز مقنعا جدا . سرت
القشعريرة فى جسدى حين فكرت بهؤلاء الذين وقعت

في قبضتهم . لاحظ بوغاتشوف اضطرابي . قال لي
غامزا : «صحيح ، يا صاحب السيادة ؟ يبدو لي ان
فيلدمارشالي على حق فيما يقول . فما رايك ؟»
اعادت سخريه بوغاتشوف الشجاعة الى نفسي .
اجبت هادنا باننى تحت سلطانه ، وانه حر في ان يفعل
بى ما يشاء .

قال بوغاتشوف :

- حسنا . والآن قل لي : ما هي حالة مدينتكم ؟

اجبت :

- في خير ، والحمد لله .

كرر بوغاتشوف كلمتي :

- في خير ؟ بينما الناس يموتون جوعا !

كان الدعى يقول الحقيقة ، ولكنني اخذت اؤكد له ،
التزاما بيمينى العسكرية ، بان كل ذلك شائعات فارغة ،
وان في اورنبورغ الكفاية من المؤن المختلفة .

فابتدر العجوز قائلا :

- ها انت تراه يخدعك في وجهك . ان جميع

اللاجئين يجمعون على تفشى المجاعة والوباء في
اورنبورغ ، وان الناس ياكلون البهائم الميتة ، وهم
في ذلك محظوظون ، بينما يؤكد لك سيادته ان هناك
الكفاية من كل شيء . فاذا كنت تريد ان تشنق
شفابرين فاشنق هذا الشاب على نفس المشنقة ، فلا
يشمت احد بالآخر .

وبدا ان كلمات هذا العجوز الملعون قد فعلت
فعلها في بوغاتشوف . ومن حسن الحظ ان خلوبوشا
اخذ يعترض على كلام رفيقه وقال له :

- كفى ، يا ناؤميتش . انت لا تحب الا الخنق والشنق . اى جبار انت ؟ لا احد يعرف ، حين ينظر اليك ، كيف انت باق على قيد الحياة . انت نفسك على حافة القبر ، بينما تقتل الآخرين . وهل الدماء التى فى ذمتك قليلة ؟

اعترض بيلوبرودوف :

- اى ملاك رحيم انت ؟ من اين جاءتك هذه الشفقة ؟

اجاب خلوبوشا :

- انا ايضا آثم بالطبع ، وهذه اليد (وهنا شد قبضته العظيمة ، ورفع كفه ، وكشف عن ذراع مشعرة) هذه اليد قد ارتكبت سفك دماء المسيحيين . ولكننى لم اقتل ضيوفا ، بل خصوما وهم فى ملتقى الطرق الرحب ، وفى الغابة المظلمة ، لا فى البيت جلوسا وراء الموقد ، وقد قتلتهم بالهراوة ، وظهر الفاس لا بوشاية النسوان .

اعرض العجوز ، وتمتم : «ابو الانف المجدوع!» . . .

صاح خلوبوشا :

- ما الذى تتمم به ، ايها المتذمر العجوز ؟ ساريك ماذا يعنى «ابو الانف المجدوع» . انتظر ، وسيأتى وقتك ، ان شاء الله ، وستجرب المصيبة على جلدك . . . والآن احذر ان انتف لحيتك !

هتف بوغاتشوف بعظمة :

- يا حضرات الجنرالات ! كفى مشاجرة ! ليس من المصيبة ان تعلق كلاب اورنبورغ كلها فى مشنقة

واحدة . بل المصيبة ان تتعاضض كلابنا فيما بينها .
هيا ، تصالعا .

لم ينطق خلويوشا ولا بيلوبرودوف بكلمة
واحدة ، ونظر احدهما الى الآخر بعبوس . فوجدت من
الضرورى تحويل الحديث الذى كان من الممكن ان
ينتهى بالنسبة لى نهاية ليست فى صالحى تماما ،
فالتفت الى بوغاتشوف وقلت له مرحا : «آه ! كدت
انسى ان اشكرك على جوادك والمعطف . لولاك لما
وصلت الى المدينة ، ولتجمدت فى الطريق» .

نجحت حيلتى . انشרכת اسارير بوغاتشوف وقال
غامزا مقلصا عينيه : «دين الحر مردود . والان قل لى
ما شانك بتلك الفتاة التى يسيى لها شفابرين ؟
اليست هى حبيبة قلب الفتى المتيم ؟ ها ؟» .
- انها خطيبتى .

اجبت بوغاتشوف بذلك ، وقد رايت الجو يتغير
لصالحى ، ولم اجد ضرورة لاختفاء الحقيقة . صاح
بوغاتشوف :

- خطيبتك ؟ ولماذا لم تقل من قبل ؟ سنزوجك
اذن ، ونحتفل بزفافك - ثم تحول الى بيلوبرودوف ،
وقال - اسمع ، يا فيلدمارشال ! انا وسيادته
صديقان قديمان . لنجلس ونتعش . والصبح احكم
من المساء . غدا سنرى ماذا نفعل به .

وددت لو ارفض هذا الشرف ، ولكن لم يكن منه
بد . غطت فتاتان قوزاقيتان ، هما ابنتا صاحب البيت ،
المائدة بمفرش ابيض ، وجلبتا الخبز ، وحساء السمك ،
وبعض قارورات النبيذ والجمعة ، ووجدت نفسى مرة

ثانية على مائدة واحدة مع بوغاتشوف ورفاقه الرهبين .
استمرت الوليمة ، التي اشتركت فيها مضطرا ، الى
هزيع متأخر من الليل . واخيرا اخذ السكر يتمتع
الندماء . هوام بوغاتشوف ، وهو جالس في مكانه .
نهض رفاقه ، وافهموني بالاشارة ان اتركه . خرجت
معهم . وبامر من خلو بوشا قادني الحارس الى مركز
الادارة ، حيث وجدت سافيليتش هناك ، وحيث
حجزوني معه وراء الاقفال . كان العربي مذهولا جدا من
كل ما حدث ، فلم يطرح على اي سؤال . استلقى في
الظلام وتحسر وتاوه وقتا طويلا حتى شخر اخيرا . بينما
استسلمت انا للتأملات ، التي لم تدعني اغفو طوال
الليل .

في الصباح جاءوا في طلبي باسم بوغاتشوف .
فذهبت اليه . فرايت عربته تقف عند الباب وقد شددت
اليها ثلاثة خيول تترية . وكان الناس يتجمعون في
الشارع . قابلت بوغاتشوف في الرواق . كان يرتدى
ثياب السفر : فروة وقبعة قيرغيزية . وكان ندما ،
البارحة يحيطون به ، متخذين مظهر الخضوع الذي كان
يناقض بشدة كل ما شهدته البارحة . حياني بوغاتشوف
بحرح ، وامرني بان اجلس معه في العربة .

جلسنا . قال بوغاتشوف للتتري العريض الكتفين
الذي كان يسوق الخيول واقفا : « الى قلعة
بيلوغورسك ! » خفق قلبي بشدة . تحركت الخيول ،
رن الجرس ، وانطلقت العربة . . .

ارتفع صوت مالوف لي : « قف ! قف ! » ورايت
سافيليتش يركض للقائنا . امر بوغاتشوف بالتوقف .

هتف المربي : «عزيزي ، بيتر اندريفيتش ! لا تتركني في شيخوختي بين هؤلاء المحة . . .» . قال بوغاتشوف له : «اهذا انت ، ايها المتذمر العجوز ! مرة اخرى يكتب الله لي ان اراك . حسنا ، اجلس مع السائق» . قال سافيليتش وهو يتخذ مجلسه :

- شكرا ، يا قيصر ، شكرا يا مولاي ! جعلك الله تعيش مائة عام في عافية ، جزاء على اعتنائك بي وتطمينك لي ، انا العجوز . سادعو الله لك طوال عمري ، ولن اذكر بعد الآن المعطف من فراء الارنب . كان ذكر معطف فراء الارنب هذا يمكن ان يفضب بوغاتشوف في هذه المرة بصورة جديدة . الا ان الدعى ، من حسن الحظ ، اما لم يسمع جيدا ، واما اهمل هذا التلميح النابى . انطلقت الخيول ، وكان الناس يتوقفون في الشارع ، وينحنون الى وسطهم . وكان بوغاتشوف يحنى راسه يمينا ويسارا . وبعد دقيقة خرجنا من القرية ، وانطلقنا في طريق مههد .

من السهل ان يتصور المرء احساسى في تلك البرهة . بعد بضع ساعات سالتقى بتلك التى اعتبرتها مفقودة بالنسبة لي . وتخيلت لحظة التقائنا . . . كما فكرت بالرجل الذى كان يمسك مصيرى في يده ، والذى صرت مرتبطا به ارتباطا غامضا بسبب تشابك الظروف العجيبة . وتذكرت القسوة المتهورة ، والعادات المتعطشة للدم التى اعتادها هذا الذى ندب ليكون منقذ حبيبتي ! لم يكن بوغاتشوف يعرف انها كانت ابنة الامر ميرونوف . كان في وسع شفايرين في ساعة الفيظ ان يكشف كل شىء . وكان من الممكن ان يعرف

بوغاتشوف الحقيقة بطريقة اخرى . . . عندئذ ماذا سيحدث لماريا ايفانوفنا ؟ سرت البرودة في جسدي ، ووقف شعر راسي . . .

وفجأة قطع بوغاتشوف تأملاتي حين توجه الى بسؤال :

- عم تفكر ، يا صاحب السيادة ؟

اجبت :

- وكيف لا افكر ؟ انا ضابط ، ومن الاعيان . وبالامس فقط كنت احارب ضدك ، اما اليوم فاركب معك عربة واحدة ، وسعادة حياتي برمتها متوقفة عليك .

سال بوغاتشوف :

- وهل يخيفك ذلك ؟

اجبت بانني ، وقد عفا عني ذات مرة ، آمل لا في رحمته فقط ، بل وفي مساعدته ايضا .

اجاب الدعى :

- انت على حق ، والله ، على حق ! لقد رايت رجالى ينظرون اليك شزرا ، والعجوز اصر اليوم ايضا على انك جاسوس ، يجب ان تعذب وتشنق . الا اننى لم اوافق . - واضاف ، وقد خفض صوته لكيلا يسمعه سافيليتش والتتري : - لاننى اذكر قذح الخمر الذى قدمته لى والمعطف من فراء الارنب . وها انت ترى اننى لست سفاحا كما يتصور اخوانك .

تذكرت الاستيلاء على قلعة بيلوغورسك ، ولكن لم ار ضرورة لمناقشته ، ولم اجب باية كلمة .

سال بوغاتشوف بعد ان صمت قليلا :

- ماذا يقولون عنى فى اورنبورغ ؟
 - يقولون ان التغلب عليك ليس بالامر السهل .
 والحق يقال ان صيتك قد ذاع .
 وارضى غرور الدعى . وظهر ذلك على وجهه . فقال
 بادى المرح :
 - نعم ! انا احسن القتال . هل يعرف الناس عندكم
 فى اورنبورغ المعركة قرب قلعة يوزييفايا ؟ قتلنا
 اربعين جنرالا ، واسرنا اربعة جيوش . ما راىك ، فهل
 استطاع ملك بروسيا ان يصولنى ؟
 وبدا لى تباهى قاطع الطريق فكاهة . قلت له :
 - وانت ما راىك ؟ هل تستطيع التغلب على
 فريديريك ؟

- على فيودور فيودوروفيتش . . . ؟ وكيف لا ؟ فانا
 اتغلب على جنرالاتكم ، بينما هم قد تغلبوا عليه . انا
 سعيد الحظ مع سلاحى حتى الآن . انتظر قليلا ،
 وساقوم باعمال جبارة حين ازحف على موسكو .
 - وهل تريد الزحف على موسكو ؟
 فكر الدعى قليلا ثم قال بصوت خافض :
 - الله يعلم . طريقى ضيق والحرية قليلة .
 ورجالى يتحذلقون . انهم لصوص . ويجب ان التزم
 جانب الحذر ، فانهم لدى اول هزيمة سيبيعون راسى
 مقابل نجاتهم .

• الملك البروسى فريديريك الثانى ، ابن فريديريك ولهيلم .
 (الناشر .)

•• غير بوغاتشوف اسم الملك البروسى فريديريك الثانى
 على الصيغة الروسية بالتسمية سخرية به . (الناشر .)

قلت لبوغاتشوف :

- حقا ! اليس من الافضل لك ان تنصرف عنهم
بنفسك في الوقت المناسب وتلتمس عفو القيصرة ؟
ابتسم بوغاتشوف بمرارة . وقال :
- لا . فات اوان الندم . لن يعفى عني .
وساستمر كما بدأت . ومن يدري ؟ قد انجح ! فقد
حكم غريشكا اتريبيف موسكو .
- ولكنك تعرف بم انتهى ؟ رموه من النافذة ،
ومزقوه ، واحرقوه وعبأوا برماده احد المدافع ،
واطلقوه !

قال بوغاتشوف بالهام وحشى :

- اسمع ! ساقص عليك حكاية روتها لى كالميكية
عجوز وانا صبى . ذات مرة سال نسر غرابا : قل لى ،
ايها الغراب ، لماذا تعيش انت في الدنيا ثلثمائة عام ،
بينما لا اعيش انا غير ثلاثة وثلثين عاما ؟ اجابه
الغراب : لانك يا صاحبي ، تشرب الدم الحى ، بينما
انا آكل الفطيسة . فكر النسر ثم قال : يجب ان احاول
اكل نفس الطعام . حسنا . وطار النسر والغراب .
ورايا حصانا فاطسا . فهبطا وحطا . اخذ الغراب ينقر ،
وتلذذ ، بينما نقر النسر مرة واخرى ، ورف بجناحيه ،
وقال للغراب : لا ، يا عزيزى الغراب ، ان اشرب مرة
دما حيا خير من ان اتغذى ثلاثمائة عام على الميتة ، والغيب
عند ربي ! فما رايك بهذه الحكاية الكالميكية ؟
اجبته :

- طريفة . ولكن العيش بالقتل والنهب هو في
رايى مثل العيش على الميتة .

نظر بوغاتشوف الى بدهشة ، ولم يجب بشيء .
وصمت كلانا غارقا في افكاره . اخذ التتري ينشد اغنية
حزينة ، وكان سافيليتش يهتز على مقعد الحوذى
مهووماً . انطلقت العربية في الطريق الشتائية
الملساء . . . وفجأة رايت قرية صغيرة على الشاطئ
المرتفع لنهر يايك ، بسياجها وبرج جرسها . وبعد
ربع ساعة دخلنا قلعة بيلوغورسك .

الفصل الثاني عشر

اليتيمة

مثل شجرة التفاح عندنا
لا راس لها ولا فروع ؛
ومثل اميرتنا الصغيرة
لا اب لها ولا ام .
ولا احد يعتنى بها
ولا احد يباركها .
اغنية اعراس .

وصلت العربية الى مدخل بيت الامر . عرف الناس
جرس عربية بوغاتشوف ، فركضوا وراءها . استقبل
شفابرين الدعى عند المدخل . كان يرتدى لباسا
قوزاقيا ، وقد ارسل لحيته . اخذ الخائن يساعدا
بوغاتشوف في الخروج من العربية ، معلنا بعبارات
متدللة عن فرحه وحماسه . واضطرب حين رآني ،
ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ، ومد يده الى قائلا :
«انضممت الينا ؟ كان عليك ان تفعل ذلك من زمان !»
اعرضت عنه ، ولم اقل شيئا .

توجع قلبي حين رايت نفسى في الغرفة المألوفة الى
من زمان ، حيث ما تزال شهادة المرحوم الامر معلقة في

مكانها على الحائط ، وكانها تذكّر من الماضي . جلس
بوغاتشوف على الأريكة التي كان يهيم عليها إيفان
كوزميتش من قبل ، تهدده دمدمة زوجته . جلس
شفابرين بنفسه الفودكا له . احتسى بوغاتشوف قدحا
وقال له مشيرا الى : «قدم لصاحب السيادة ايضا» .
تقدم شفابرين بصينيته ، الا انني اعرضت عنه ثانية .
كان يبدو في غير اطواره . فقد حدس طبعا بفطنته
الخاصة به ان بوغاتشوف لم يكن راضيا عنه . فجب
امامه ، وراح ينظر الى بتشكك . استفسر بوغاتشوف عن
الوضع في القلعة ، وعن الشائعات حول قوات العدو ،
وما شابه ذلك . وفجأة سال على غير انتظار :

- قل لي ، يا اخ ، من هذه الفتاة التي تسجنها
عندك ؟ ارني اياها .

ران على شفابرين شحوب الموتى . قال بصوت
مرتجف :

- مولاي ، مولاي . انها ليست سجينة . . . بل
مريضة . . . وهي راقدة في الغرفة .
- دلّني اين هي .

قال الدعى ذلك ، ونهض من مكانه . وكان ممن
المستحيل صده . قاده شفابرين الى ماريا ايفانوفنا .
فتبعتهما .

توقف شفابرين على الدرج . وقال :
- مولاي ، لك الامر في ان تطلب مني ما تشاء ،
ولكن لا تسمح لغريب ان يدخل في مخدع زوجتي .
سرت الرجفة في اوصالي .

قلت لشفابرين ، وانا مستعد لتمزيقه :

- تزوجت !

قاطعنى بوغاتشوف قائلا :

- اسكت ! هذا شىء يخصنى ، - ومضى يقول
مخاطبا شفابرين : - اما انت فلا تتحدلق ولا تتحجج .
فسواء كانت زوجتك ام لا فانا حر فى ان ادخل عليها من
اشاء . اتبعنى ، يا صاحب السيادة .

توقف شفابرين عند باب الغرفة مرة اخرى ، وقال
بصوت متقطع :

- مولاي ، انبهك الى انها فى وهج الحمى ، وهى
تهذى منذ ثلاثة ايام دون توقف .
قال بوغاتشوف :

افتح !

اخذ شفابرين يبحث فى جيوبه ، وقال انه لم ياخذ
المفتاح معه . دفع بوغاتشوف الباب بقدمه ، فافتت
القفل ، وانفتح الباب . فدخلنا .

نظرت ، ودارت الدنيا فى عينى . كانت ماريسا
ايفانوفنا تجلس على الارض مرتدية ثوبا مقطعا من ثياب
الفلاحات ، وقد شحبت ونحلت ، وتشعث شعرها .
وكانت امامها جرة ماء مغطاة بقطعة من خبز . وحين
راتنى جفلت وصرخت . ولا اتذكر الآن ماذا حدث لى
آنذاك .

نظر بوغاتشوف الى شفابرين ، وقال بسخرية
مريرة :

- عندك مستشفى ممتاز ، - ثم اقترب من ماريسا
ايفانوفنا ، وقال : - قولى لى ، يا عزيزتى ، لماذا
يعاقبك زوجك هذا العقاب ؟ ماذا اجرت فى حقه ؟

قالت مكررة :

- زوجي ! ما هو بزوجي . ولن اكون له زوجة ابدا . فضلت الموت على ذلك ، ساموت اذا لم يخلصني احد .

نظر بوغاتشوف الى شفايرين نظرة متوعدة ، وقال له :

- لقد تجاسرت على خدعي . اتعرف ايها العاقل ماذا تستحق ؟

ركع شفايرين على قدميه . . . وفي تلك اللحظة غطى الاحتقار على كل مشاعر الكره والحنق في نفسى . نظرت بامتعاض الى هذا النبيل الذى يركع على قدمي قوزاقى متشرد . خفت حدة بوغاتشوف ، وقال لشفايرين :

- اسامحك في هذه المرة . ولكن اعرف ان اول جرم ترتكبه ستعاقب عليه وعلى هذا ايضا .
ثم تحول الى ماريما ايفانوفنا ، وقال لها بركة :
- اخرجي ، ايتها الانسة الجميلة . اهبك الحرية ؛ انا القيصر .

نظرت ماريما ايفانوفنا اليه نظرة سريعة ، وحدثت ان الرجل العائل امامها هو قاتل والديها . غطت وجهها بكلتا يديها ، ووقعت مغشيا عليها . اندفعت اليها ، ولكن في تلك اللحظة اقتحمت صاحبتى القديمة بالاشا الغرفة بجرأة شديدة ، واخذت ترعى سيدتها . خرج بوغاتشوف من الغرفة ، وذهبنا نحن الثلاثة الى غرفة الضيوف .

قال بوغاتشوف ضاحكا :

- ماذا تقول ، يا صاحب السيادة ؟ انقذنا الانسة الجميلة ! فما رايك في ان نرسل في طلب القس ، ونجعله يعقد قران ابنة اخى زوجته ؟ اظن اننى ساكون ابا للعريس ، وشفابرين شاهد الزواج . سنقوم بوليمة في بحر من الخمر ، ونقفل الباب .

وهنا حدث ما كنت اخشاه . عندما سمع شفابرين اقتراح بوغاتشوف فقد السيطرة على نفسه . صاح بجنون :

- يا مولاي ! انا مذنب في اننى كذبت عليك ، ولكن غرينيف ايضا يخدعك . ان هذه الفتاة ليست ابنة اخى زوجة القس ، بل هى ابنة ايفان ميرونوف الذى شنق عند الاستيلاء على هذه القلعة .

سدد بوغاتشوف الى عينيه الناريتين . وسال متحيرا :

- ما يعنى هذا ؟

رددت بصلاية :

- قال شفابرين لك الحقيقة .

قال بوغاتشوف ، وقد اربد وجهه :

- انت لم تقل لى ذلك .

اجبته :

- احكم بنفسك : هل كان فى الامكان ان اعلن بحضور رجالك ان ابنة ميرونوف حية ؟ لو فعلت لقطعوها اربا اربا ، ولما انقذها شىء !

قال بوغاتشوف ضاحكا :

- هذا حق . ما كان رجالى السكيرون يرحمون الفتاة المسكينة . احسنت زوجة القس حين خدعتهم .

مضيت اقول حين رايت مزاجه الرائق :

- اسمع ، لا اعرف كيف اتاديك ولا اريد ان اعرف . . . ولكن الله يعرف اننى سعيد فى ان اضحى لك بحياتى جزاء ما فعلته لى . فقط لا تطالبنى بما يتنافى وشرفى وضميرى المسيحى . انت محسنى . فاكمل ما بداته ، واطلقنى وهذه اليتيمة المسكينه نذهب الى حيث يشاء الله . وسنصلى لك كل يوم اينما كنت ومهما وقع لك ، داعين الرب لينقذ روحك الخاطئة . . . كان يبدو ان قلب بوغاتشوف الصارم قد تآثر . قال : «ليكن ما تريد ! عقابى صارم وعفوى سموح . تلك هى سجيئتى . خذ حسناءك ، واذهب بها الى حيث تشاء ، وليمنحكها الله الحب والرشد !»

وهنا تحول الى شفابرين ، وامره ان يحرر لى اذنا فى كل مراكز الحراسة والقلاع التابعة له . كان شفابرين المذلول كلياً يقف كالمصعوق . خرج بوغاتشوف ليتفقد القلعة . وصحبه شفابرين . وبقيت انا بحجة الاستعداد للسفر .

ركضت الى غرفة ماريا ايفانوفنا . كان الباب مغلقاً . طرقتة . فسالت بالاشيا : «من الطارق ؟» ذكرت اسمى . صدر صوت ماريا ايفانوفنا الحلو من وراء الباب : «انتظر ، يا بيتر اندريفيتش ، انا اغير ملابسى . اذهب الى اوكولينا بامفيلوفنا . وساحضر الى هناك حالاً» .

اطمعت امرها ، وتوجهت الى بيت الاب غيراسيم . خرج القس وزوجته كلاهما مسرعين للقائى ، فقد ابلفهما سافيليتش بمجيئى . قالت زوجة القس :

«مرحبا . يا بيتر اندريفيتش . شاء الله ان نلتقى من جديد . كيف احوالك ؟ كنا نتذكرك كل يوم . اما ماري ايفانوفنا ، عزيزتى ، فقد عانت الوان العذاب فى غيابك ! . . ولكن قل لى ، يا بنى ، كيف تفاهمت مع بوغاتشوف ؟ كيف لم يفتك بك ؟ طيب ، شكرا لذلك الشرير ولو على ذلك» . فقاطعها القس : «كفى ، يا عجوز . لا تقولى كل ما تعرفين . الثرثرة تؤدى الى التهلكة . يا عزيزى ، بيتر اندريفيتش ! ادخل ، ارجوك . لم نرك منذ مدة طويلة» .

راحت زوجة القس تطعمنى ما رزق الله ، وهى لا تكف عن الحديث . وحكت لى كيف اجبرهما شفايرين على تسليم ماري ايفانوفنا له ، وكيف بكت ماري ايفانوفنا ، ولم ترد مفارقتها ، وكيف كانت ماري ايفانوفنا تراسلها باستمرار عن طريق بالاشا (الفتاة المتقحمة التى جعلت ضابط الصف نفسه يرقص على نايتها) . وكيف نصحت ماري ايفانوفنا بان تكتب لى رسالة ، الى غير ذلك . وبدورى رويت لها قصتى بايجاز . رسم القس وزوجته علامة الصليب ، حين سمعا ان بوغاتشوف على علم بخداعهما . قالت اقولينا بامفيلوفنا : «كان المسيح فى عوننا ! يا رب ، دع السحابة تمر ! اما الكسى ايفانوفيتش ، والحق يقال فانه انسان سافل !» وفى تلك اللحظة فتح الباب ، ودخلت ماري ايفانوفنا وعلى وجهها الشاحب ابتسامة . كانت قد خلعت ثوب الفلاحات ، وارتدت ، على عاداتها ، لباسا بسيطا لطيفا . امسكت يدها ، وبقيت طويلا لا انطق بكلمة .

صمتنا كلانا مما امتلا به قلبانا . شعر مضيافانا بانصرافنا عنهما ، فتركانا . فبقينا وحيدين . نسينا كل شيء . وطفقنا نتحدث دون ان نشبع من الحديث . حدثتني ماريا ايفانوفنا عن كل ما وقع منذ الاستيلاء ، على القلعة ، ووصفت لي كل فظاعة وضعها ، وكل المحسن التي ذاقتها على يد شفابرين المقيت . كما تذكرنا الماضي السعيد . . . وبكىنا كلانا . . . واخيرا اخذت اوضح لها آرائي . كان من المستحيل تركها في قلعة يسيطر عليها بوغاتشوف ، ويدير شؤونها شفابرين . كما لا يجوز التفكير في اورنبورغ التي كانت تعاني كل ويلات الحصار . ولم يكن لها في الدنيا قريب تاوى اليه . فعرضت عليها السفر الى ضيعة والدي . ترددت في البداية . فقد كان يفزعها ما تعرفه من عدم ميل ابي اليها . هداتها . فقد كنت اعرف ان ابي سيعتبر شرفا له ولزاما عليه ان ياوى ابنة محارب قدير سقط في سبيل الوطن . وقلت لها اخيرا : «يا عزيزتي ماريا ايفانوفنا ! انا اعتبرك زوجتي . ان ظروفنا مدهشة قد جمعتنا جمعا لا انفصام له : ولا شيء في الدنيا قادر على تفريقنا» . اصغت ماريا ايفانوفنا الى ببساطة ، وبدون خجل مصطنع ، ولا تمنعات زائفة . لقد شعرت بان مصيرها قد ارتبط بمصيري . الا انها ظلت تكرر انها لن تكون زوجتي بدون موافقة والدي . فلم اعارضها في ذلك . وتماقنا مقبلين احدا الآخر بحرارة واخلاص ، وعلى هذا النحو تقرر كل شيء بيننا .

بعد ساعة احضر ضابط الصف اذن المرور لي موقعا بخربشة بوغاتشوف ، ودعاني اليه باسمه . وقد

رايته متهيئا للسفر . لا يستطيع ان اوضح ما شعرت به ، وانا افارق هذا الرجل الفظيع الغول والشريـر للناس جميعا ما عداى . ولماذا لا اقول الحقيقة ؟ في تلك اللحظة تملكنى تعاطف شديد نحوه . كنت اود بحرارة ان انتزعه من بين الاشرار الذين كان يتراسهم ، وانقذ راسه ما دام الاوان لم يفت . منعنى شفايرين والناس المحتشدون بالقرب منا من ان افضى له بما يطفح به قلبي .

افترقنا بمودة . وحين وقع بصر بوغاتشوف على اكولينا بامفيلوفنا بين الحشد مز لها اصبع الوعيد ، وغمز لها غمزة ذات معنى ، ثم جلس في العربة ، واوعز بالتوجه الى بيردا . وحين تحركت الخيول اخرج راسه من العربة مرة اخرى ، وصاح بى : «وداعا ، يا صاحب السيادة ! يمكن ان نلتقى يوما ما» . وقد التقينا بالفعل ، ولكن في اية ظروف . . .

رحل بوغاتشوف . وبقيت وقتا طويلا اتأمل السهـب الابيض الذى سارت عليه عربته . تفرق الناس . واختفى شفايرين . وعدت الى بيت القس . كان كل شىء قد اعد لسفرنا ، ولم ارد ان اتاخر اكثر . وضع متاعنا كله في عربة الامر القديمة . وشد الحوذيون الخيول سريعا . خرجت ماريا ايفانوفنا لتودع قبرى والديها اللذين دفنا وراء الكنيسة . اردت ان ارافقها ، الا انها رجتنى ان اتركها وحدها . عادت بعد بضـع دقائق تذرِف الدموع الهادئة صامتة . وجيىء بالعربة . خرج الاب غيراسيم وزوجته الى مدخل البيت . جلسنا ثلاثة في العربة : ماريا ايفانوفنا ، وبالاشا ، وانا .

وصعد سافيليتش الى جوار الحوذى . قالت زوجة القس الطيبة : «وداعا ، يا عزيزتى ماريا ايفانوفنا ! وداعا يا عزيزى بيتر اندريفيتش ، سفرة ميمونة ، وعسى الله ان يهبكما السعادة !» وانطلقنا . لمحت شفايرين واقفا عند نافذة بيت الأمر ، وقد ارتسم على وجهه الفيظ العابس . لم ارد ان اظهر انتصارى على عدو مسحوق ، فحولت بصرى الى الجانب الآخر . واخيرا خرجنا من بوابة القلعة ، مفادين اياها الى الابد .

الفصل الثالث عشر

الاعتقال

لا تحنق ، يا سيد ، فان واجبي
يقتضيني ان ارسلك الى السجن الساعة .
- تفضل ، فانا مستعد ، ولكنني آمل
ان تسمح لي بان اشرح لك الامر اولا .
كنياجنين * .

جمعتني المصادفة بفتاتي الحبيبة التي كنت حتى
هذا الصباح قلقا موجعا ، ولم اصدق نفسي ، وتصورت
ان كل ما حصل لي كان حلما فارغا . كانت ماريسا
ايفانوفنا تنظر في سهوم تارة الى ، وتارة الى الطريق ،
وتبدو وكأنها لم تفق بعد على نفسها . لزمتنا الصمت .
كان قلبانا مجهدين جدا . وبعد زهاء ساعتين وجدنا
انفسنا في القلعة المجاورة دون ان ندري ، وكانت هذه
القلعة ايضا تحت سيطرة بوغاتشوف . استبدلنا الخيول
هنا . ومن السرعة التي شدوا بها الخيول ، ومن الخدمة
المجولة التي قدمها لنا القوزاقي الملتحي الذي نصبه
بوغاتشوف آمرا ، وبفضل ثرثرة الحوذي الذي جلبنا الى

* هذا الشعر من نظم بوشكين ولكنه نسهه الى كنياجنين .
(الناشر .)

هنا ادركت انهم استقبلوني كواحد من حاشية قيصرهم
الدعى .

وواصلنا سيرنا . واخذ الظلام يهبط . ورحنا
نقترب من بلدة فيها ، حسب كلام الأمر الملتحى ،
مفرزة قوية في طريقها لمكافحة الدعى . اوقفنا
الحراس . ورد الحوذى على سؤال «من القادم؟» بصوت
عال : «عرب القيصر مع عقيلته» . وفجأة احاطت بنا
كوكبة من الفرسان تمطرنا بشتائم فظيعة . وقال لى
ضابط صف خيالة ذو شارب : «انزل ، يا قريب
ابليس ! فى انتظارك وعقيلتك استجواب ساخن !»

نزلت من العربة ، وطلبت ان يقودونى الى
رئيسهم . كف الجنود عن شتائمهم حين راونى ضابطا .
قادنى ضابط الصف الى الرائد . ولم يتخلف سافيليتش
عنى ، متمتما مع نفسه : «تلك هى عاقبة عرب
القيصر ! نخرج من نار وندخل فى لهب . . . يا رب
القدرة ! بماذا سينتهى كل هذا؟» وكانت العربة تسير
وراءنا على مهل .

بعد خمس دقائق وصلنا الى بيت صغير مضاء ،
اضاءة باهرة . تركنى ضابط الصف تحت الحراسة ،
ودخل ليبلغ عنى . عاد على الفور معلنا ان صاحب المقام
الرفيع لن يستطيع استقبالى ، وانه امر بوضعى فى
السجن ، وارسال السيدة الى بيته .

صرخت بجنون :

- ما يعنى هذا ؟ هل فقد عقله حقا ؟

اجاب ضابط الصف :

- لا اعرف ، يا صاحب السيادة . سوى ان

صاحب المقام الرفيع امر بوضع صاحب السيادة في السجن ، وامر بارسال صاحبة السيادة الى صاحب المقام الرفيع ، ذلك هو ، يا صاحب السيادة !

اندفعت الى مدخل البيت . لم يرد الحراس ان يوقفوني . فدخلت راسا الى غرفة حيث كان حوالى ستة ضباط من الفرسان يلعبون الورق . وكان الرائد يدير اللعب . ويا لشدة دهشتي حين تفرست به ، وعرفت انه ايفان ايفانوفيتش زورين الذي جعلنى اخسر في حانة سيمبيرسك . صحت :

- اليس هذا حلما ؟ ايفان ايفانوفيتش ! اهذا انت ؟

- يا ، يا ، يا ، بيتر اندريفيتش ! ما اعجب الاقدار ! من اين جئت ؟ مرحبا ، يا اخ . الا تريد ان تلعب الورق ؟

- شكرا . الافضل ان تامر لى بمسكن اقيم فيه .
- وما حاجتك الى مسكن ؟ انزل عندى .
- لا استطيع . لست وحدى .
- حسنا ، تعال انت ورفيقك .
- لست مع رفيق . . . انا مع . . . سيده .
- مع سيده ؟ اين حصلت عليها ؟ آه ، يا اخ (وصفر زورين بشكل معبر جدا قهقه له الجميع . وارتبكت انا) .

وتابع زورين كلامه :

- ليكن هذا . سافرذ لك مسكنا . . . ولكن ذلك مؤسف . . . كنا سنمرح مرحنا القديم ذاك . . . هاي ! . . . يا عسكري ! لماذا لم تدخل عرابية

بوغاتشوف الى هنا ، ام هي تعاند ؟ قل لها يجب الا تخافي . فان السيد رجل رائع ، لا يسيىء بشيء ، واعطها دفعة في ظهرها .

قلت لزورين :

- ما هذا ؟ اية عرابة بوغاتشوف ؟ انها ابنة الامر الراحل ميرونوف . اخرجتها من الاسر ، وانا الان ارافقها الى ضيعة ابي ، حيث ستبقى .

- عجيب ! يعنى ان البلاغ الذى ابلغونى به الان ينصك ؟ ارجوك ، ما يعنى هذا ؟

- ساخبرك بكل شيء ، فيما بعد . الآن ، بحق الرب ، هدى الفتاة المسكينة التى افزعها فرسانك .

قام زورين بالاوامر اللازمة فى الحال . ثم نهض وخرج الى الشارع ليعتذر من ماريا ايفانوفنا على سوء التفاهم العرضى هذا ، وامر ضابط الصف بان يخصص لها احسن مسكن فى البلدة . وبقيت اقضى الليلة عنده . تناولنا العشاء ، وحين بقينا وحدنا ، رويت له

مغامراتى . اصفى زورين الى باهتمام كبير . وعندما فرغت من كلامى ، هز راسه ، وقال : «كل ذلك حسن ، يا اخ ، ما عدا شيئا واحدا ، وهو اى شيطان وسوس لك لتتزوج ؟ انا ضابط شريف ، ولا اريد ان اخدعك . صدقنى ان الزواج نزوة . وما حاجتك ان تنشغل بزوجة ، وتربى اولادا ؟ تخل عن ذلك . اسمع كلمتى ، واعتق نفسك من ابنة الامر . وقد طهرت الطريق الى سيمبيرسك ، وهو مامون . ارسلها غدا الى والديك ، وابق معى فى المفرزة . فلا حاجة لك الى العودة الى اورنبورغ . فانك ستقع مرة اخرى فى

ايدي المتمردين ، واشك في انك تتخلص منهم هذه المرة . وبهذه الطريقة يزول جنون الحب ، وتصحو الى نفسك ، ويعود كل شيء الى ما يرام» .

رغم اننى لم اكن موافقا معه كليا ، الا اننى شعرت بان واجبى العسكرى كان يقتضى وجودى فى قوات الامبراطورة . عزمت على الاخذ بنصيحة زورين ، فارسل ماريا ايفانوفنا الى القرية ، وابقى فى مفرزته .

جا ، سافيليتش ليعيننى فى خلع ملابسى . فابلفته بان يكون فى اليوم التالى مستعدا للسفر مع ماريا ايفانوفنا . فاخذ يمانع : «ما هذا ، يا حضرة السيد ؟ كيف اتركك ؟ من الذى سيرعاك ؟ وماذا سيقول والداك ؟»

ولما كنت اعرف عناد مربي قررت ان اقنعه بلطف واخلاس . قلت له : «يا صديقى ارخيب سافيليتش ! لا ترفض ، واصنع معروفالى . لن اكون بحاجة الى خادم هنا ، بينما ساقلق اذا سافرت ماريا ايفانوفنا بدونك . وانت اذ تخدمها تخدمنى ايضا ، لاننى قد عزمت عزمًا اكيدا على ان اتزوجها حالما تسمح الظروف» .

وهنا رفع سافيليتش ذراعيه بدهشة لا توصف . قال :

- تتزوج ! صبي يريد ان يتزوج ! ماذا سيقول والدك ، وماذا ستظن امك ؟
اجبته :

- سيوافقان ، سيوافقان بالتأكيد ، حين يعرفان ماريا ايفانوفنا . وانا اعتمد عليك ايضا . فان ابى

وامى يثقان بك ، وانك ستسعى لنا ، اليس كذلك ؟
تأثر العجوز ، واجابنى : «آه ، يا عزيزى بيتر
اندريفيتش ! رغم انك تتزوج مهبكرا الا ان ماريسا
ايفانوفنا طيبة جدا حتى من الخطأ ان تفوت الفرصة .
ليكن ما تريد ! ساوصل هذا الملاك السماوى ، وابلغ
والديك كعبد بأن مثل هذه الخطيئة لا تحتاج الى مهر» .
شكرت سافيليتش ، واويت لانام فى غرفة واحدة
مع زورين . كنت محتدا ومنغلا فأخذت اثرثر . وتحدث
زورين معى راغبا فى بادي الامر ، الا ان كلماته اخذت
ثقل وتنفكك شيئا فشيئا ، واخيرا بدلا من ان اتلقى
جوابا على سؤال تلقيت منه شخيرا وصفيرا . سكت ،
وسرعان ما حذوت حذوه .

فى صباح اليوم التالى ذهبت الى ماريا ايفانوفنا .
وعرضت عليها اقتراحاتى . فاقرت بصوابها ، ووافقتنى
على الفور . وكان على مفرزة زورين ان تخرج من البلدة
فى اليوم ذاته . ولم يكن ثمة وقت لاضيعه . توادعت
مع ماريا ايفانوفنا ، بعد ان سلمتها الى سافيليتش ،
واعطيتها رسالة الى والدى . بكت ماريا ايفانوفنا ،
وقالت بصوت خفيض : «مع السلامة ، يا بيتر
اندريفيتش ! هل سيكتب لنا اللقاء مرة اخرى ام لا .
الله وحده يعلم بذلك ، ولكننى لن انساك طوال
حياتى ، وستبقى وحدك فى قلبى الى ان تحين منيتى» .
لم استطع ان اجيب بشىء . فقد كان الناس يحيطون بنا ،
ولم ارد ان استسلم امامهم للعواطف التى كانت تعتمل
فى صدرى . واخيرا رحلت . عدت الى زورين حزينسا
مستسلما للصمت . اراد ان يسرى عنى ، وفكرت انا

بتبديد حزني ، فقضينا يوما صاخبا طليقا ، وفي المساء ،
خرجنا في المسيرة .

كان ذلك في نهاية شباط ، والشتاء المعوق
للمعمليات العسكرية في سبيله الى الانتهاء ، وقد تهيأ
جنرالنا الى عمل منسق . كان بوغاتشوف ما يزال
عند مشارف اورنبورغ . وفي غضون ذلك كانت القوات
القيصرية تلتقى فيما بينها وتطوق وكر الشر من جميع
الجهات . اخذت القرى المتمردة تعود الى الطاعة بظهور
قواتنا ، وكانت سرازم اللصوص تفر منا في كل مكان ،
وكان كل شيء ينهب بخاتمة موفقة سريعة .

وبعد قليل استطاع الامير غوليتسين ان يدحر
بوغاتشوف عند قلعة تاتيشيفو ، ويشنت حشوده ،
ويحرر اورنبورغ ، فكان بذلك قد وجه الى العصيان
الضربة الاخيرة الحاسمة . كان زورين في ذلك الحين قد
جرد ضد عصابات المتمردين الباشكيريين الذين كانوا
يتشتتون قبل ان تقع ابصارنا عليهم . وحبسنا الربيع
في قرية تترية . فقد فاضت الانهار ، وانقطعت الطرق .
وكنا في مقامنا بلا عمل نجد السلوى في التفكير بنهاية
سريعة قريبة لهذه الحرب المضجرة التافهة مع قطاع
طرق ومتوحشين .

الا ان بوغاتشوف لم يؤسر . فقط ظهر في مصانع
سيبيريا ، واخذ يجمع هناك عصابات جديدة ، وعاد الى
اعمال الشر . وانتشرت من جديد الشائعات عن
نجاحاته . فسمعنا عن تخريب القلاع السيبيرية
وسرعان ما اقلق قادة الجيش نبا استيلاء الدعى على
قازان ، وزحفه على موسكو ، وكان هؤلاء يفنون

متغافلين آملين باستنزاف قوى هذا العاصي المقيت .
 وصدر امر الى زورين بعبور الغولفا بقوته * .
 لا اريد ان اصف حملتنا ونهاية الحرب . واقول
 باختصار ان المأساة وصلت الى ذروتها . مررنا بقرى
 دمرها العصاة ، وانتزعنا من اهلها المساكين ، طوعا
 او كراهية ، كل ما استطاعوا الحفاظ عليه . وتفككت
 الادارة في كل مكان ، ولاذ اصحاب الاراضى في
 الغابات . وعانت عصابات اللصوص في كل ناحية .
 وكان امراء بعض المقارز يعاقبون ويعفون حسب
 هواهم . وكانت حالة هذا الاقليم الواسع حيث تفشى
 الحريق مريعة . . . عسى الله الا يرينا عصيانا روسيا
 لا معنى له ، ولا رحمة فيه ! ..

هرب بوغاتشوف يتعقبه ايفان ايفانوفيتش
 ميخلسون . وبعد وقت قصير سمعنا نبأ اندحاره
 الكلى . واخيرا تلقى زورين نبأ القبض على الدعى ،
 ومعه امر بالتوقف . لقد انتهت الحرب . وصار من
 الممكن اخيرا ان اسافر الى والدى ! وامتلات نفسى
 بنشوة الفرحة حين فكرت فى اننى ساعانقهما ، وارى
 ماريانا ايفانوفنا التى لم اسمع اى خبر عنها . وقفزت

* كان مخطط بوشكين الاول يقضى بان يتبع ذلك والفصل
 المحذوف (المثبت الآن فى التذييل حرس ٢٨٢ - ٢٩٨)
 الا ان بوشكين حذفه فيما بعد ، وبقي فقط فى مسودة
 المخطوطة . (الناشر .)

* * ان اقوال بطل القصة هذه لا تمثل آراء بوشكين
 السياسية . انه لم يكن مناصرا للانتفاضة الفلاحية العفوية ،
 ولكنه لم يعتبرها ولا معنى لها . (الناشر .)

كالطفل . ضحك زورين وقال هازا كتفيه : « لا ، لا ، لا محيص من وقوعك في ورطة ! اذا تزوجت كان في زواجك الضياع الاكيد !»

وخلال ذلك تسممت غبطني بشعور غريب . فقد وجدت نفسى من حيث لا ادرى افكر قلقا في الشرير الملطخ بدماء ضحايا كثيرة بريئة ، وفي الاعدام الذى ينتظره . فكرت مع نفسى باسى : «اميليا ، يا اميليا ! • لماذا لم تطعن بحربة ، ولم تصب بقذيفة ؟ اذن لكان ذلك احسن نهاية يتفتق عنها فكرك !» ما العمل ؟ كان التفكير فيه يرتبط في نفسى ارتباطا لا ينفصل بالعفو الذى وهبه لى في احدى اللحظات الفظيعة من حياته ، وبانقاذ خطيبتى من قبضة شفايرين المقيت .

اعطانى زوين اجازة . وكان يجب ان اجد نفسى بعد عدة ايام بين عائلتى مرة اخرى ، وارى عزيزتى ماريا ايفانوفنا من جديد . . . وفجأة صعقتنى نذير مفاجئ . في اليوم الذى حدد لسفرى ، وفي اللحظة التى تهيأت فيها للانطلاق دخل زوين على مسكنى ممسكا بورقة . وقد ران على وجهه قلق بالغ . وشعرت بوخز في قلبى . وذعرت من شىء لا اعرف ما هو . اخرج زورين مرافقى الجندى ، واعلن ان له مسألة معى . سألت قلقا : «ما هى ؟» اجاب : «خبر صغير غير سار» ، وقدم لى الورقة قائلا : - «اقرا ما تلقيته الآن» . اخذت اقرؤها ، فاذا هى امر سرى لكل امراء الوحدات

• صيغة تحب لاسم اميليان بوفاناشوف . (المترجم .)

باعتقالي ، اينما وجدت ، وارسالي فورا الى قازان تحت
الحراسة للمثول امام لجنة التحقيق المختصة بقضية
بوغاتشوف .

كادت الورقة تسقط من يدي . قال زورين : «لا
معدل عن ذلك ! فان واجبي يقتضي اطاعة الامر .
يبدو ان الشائعات عن رحلاتك الودية مع بوغاتشوف
قد وصلت الى الحكومة على نحو ما . وآمل الا تكون
للقضية اية عواقب ، وانك ستبرر سلوكك امام
اللجنة . لا تحزن وسافر» . كان ضميري نقيا ، ولم
اخف المحاكمة ، الا ان فكرة تاجيل لحظة اللقاء العذب ،
ربما لعدة اشهر اخر ، ، بثت الفزع في نفسي . اعدت
العربة . وودعني زورين بود . اجلسني في العربة ،
وجلس معي فارسان شاهري السيف . ومضيت في
الطريق العام .

الفصل الرابع عشر

المحاكمة

شائعات الناس
مثل موج البحر .
مثل .

كنت واثقا من ان غيابي عن اورنبورغ دون اذن هو جريرتي الوحيدة . وكنت قادرا بسهولة على تبرير ذلك : فان ركوب الخيل لم يكن محظورا في يوم من الايام ، بل وكان يشجع . وقد اتهم بسرعة التهييج المفرطة ، لا بخرق النظام العسكري . الا ان اتصالاتي الودية مع بوغاتشوف يمكن ان تثبت بعدد كبير من الشهود ، ولا بد ان تبدو مريبة جدا على اقل تقدير . فكرت طوال الطريق في الاستجابات التي في انتظاري ، وهيات في ذهني اجوبيتي ، وقررت ان اعلن للمحاكمة حقيقة الامر ، معتبرا هذه الطريقة في التبرير ابسط طريقة ، واكثر وثوقا في الوقت ذاته .

وصلت الى قازان فرايتها قد اقفرت ولاحت عليها آثار الحرائق . تكورت في الشوارع اكوام من الفحم في مكان البيوت ، وبرزت الجدران المسخمة بلا سقف ولا

نوافذ . ذلك الاثر الذي خلفه بوغاتشوف ا اخذوني الى قلعة بقيت سالمة وسط المدينة التي دمرتها النار . سلمنى الفارسان الى ضابط الحراسة . فطلب ان يستدعى الحداد . ووضعت الاصفاذ فى رجلي ، وقفلت قفلا محكما . ثم ساروا بى الى السجن ، وتركونى وحيدا فى حجرة ضيقة مظلمة ليس فيها الا جدران عارية ونافذة صغيرة مشبكة بقضبان حديدية .

لم تبشرنى هذه البداية باى خير . الا اننى لم افقد البشاشة ولا الامل . ولجات الى سلوى جميع المهانين ، وتذوقت لأول مرة حلاوة الصلاة التى جاءت من قلب نقى ، ولكن ممزق ، وغفوت رخيا غير مهتم بما سيحدث لى .

فى اليوم التالى ايقظنى السجنان ، معلنا اننى مطلوب فى اللجنة . قادنى جنديان عبر الفناء الى بيت الامر ، وتوقفا فى الغرفة الامامية ، وتركانى ادخل وحدى الى الحجرات الداخلية .

دخلت قاعة فسيحة فرايت رجلين يجلسان وراء منضدة مغطاة بالاوراق ، احدهما جنرال كهل صارم وبارد المظهر ، والثانى شاب برتبة نقيب فى الحرس ، فى نحو الثامنة والعشرين من العمر ، لطيف فى مظهره ، لبق وطييق فى معاملته . وعند النافذة جلس كاتب المحضر وراء منضدة خاصة ، والريشة وراء اذنه ، منكباً على الورقة ، متهيئا لتدوين افادتى . وبدا الاستجواب . سنلت عن اسمى ورتبتي ، وسأل الجنرال هل انا ابن اندريه بتروفيتش غرينيف ؟ ولما اجبته رد على جوابى بصرامة : «من المؤسف ان يكون لمثل

ذاك الانسان المبجل ابن غير لائق مثلك ا» اجبته بهدوء :
مهما تكن التهم الموجهة ضدى فانا آمل ان ابددها بشرح
صريح للحقيقة . لم تعجبه لهجتي الواثقة ، فقال لى
متجهما : «انت ، يا اخ ، شاطر ، ولكن راينا اشد منك
شطارة !» .

عندئذ سألنى الشاب : باية مناسبة وفى اى وقت
دخلت فى خدمة بوغاتشوف . وما هى المهمات التى
نفذتها له ؟

اجبت فى حنق باننى كضابط وكنبيل ما كان من
الممكن ان ادخل فى اية خدمة لبوغاتشوف ، ولا ان
اتلقى منه مهمة .

فاعترض مستجوبى قائلا :

- وكيف اذن يراف الدعى بضابط ونبيل واحد ،
بينما يفتك بجميع رفاقه بوحشية ؟ وكيف يمكن لهذا
الضابط وهذا النبيل ان يمرح مع المتمردين ، ويقبل
من رئيس الاشرار هدايا : معطفا ، وجوادا ونصف
روبل ؟ كيف نشأت هذه الصداقة الغريبة ، وعلى اى
اساس قامت ، اذا لم تكن على اساس الخيانة ، او على
اقل تقدير ، على ضعف العزيمة المجرم الشائن ؟
شعرت باهانة شديدة من كلمات ضابط الحرس ،
فبدات دفاعى بحرارة . رويت كيف بدا تعارفى
ببوغاتشوف فى السهب ، اثناء العاصفة الثلجية ؛ وكيف
عرفنى عند الاستيلاء على قلعة بيلوغورسك ، وراف
بى . وقلت : حقا اننى لم اخجل من قبول المعطف
والجواد من الدعى ، ولكننى دافعت عن قلعة
بيلوغورسك ضد الشرير حتى النهاية . واخيرا

استشهدت بجنرالى الذى يمكن ان يشهد على حماسى
اثناء حصار اورنبورغ التيس .
تناول العجوز الصارم رسالة مفتوحة من الطاولة ،
واخذ يقرأها بصوت مسموع :

«يشرفنى ان ارد على سؤال سعادتكم بخصوص
الملازم غرينيف ، المتهم بالاشتراك فى الاضطرابات
العالية ، والذى زُعم انه دخل فى علاقات مع
الشريير ، لا تسمح بها الخدمة وتتعارض مع يمين الولاة ،
فاوضح لكم ان الملازم غرينيف هذا كان فى الخدمة فى
اورنبورغ من بداية تشرين الاول الماضى عام ١٧٧٣
حتى ٢٤ شباط من هذا العام ، وهو اليوم الذى ترك
فيه المدينة ، ومنذ ذلك الحين لم يحضر الى وحدتى .
وقد سمعت من الفارين انه كان فى قرية بوغاتشوف ،
وسافر معه الى قلعة بيلوغورسك التى كان يخدم فيها
سابقا . اما بخصوص سلوكه ، فانا استطيع ان . . .»
وهنا قطع قراءته ، وقال لى بجهامة : «فماذا تقول الآن
لتبرير نفسك ؟» اردت ان اتابع ما بداته ، واشرح
علاقى بماريا ايفانوفنا فى نفس الاخلاص الذى اظهرته
فى رواياتى السابقة . الا اننى احسست فجأة بنفور
قاهر . فقد خطر لى اننى اذا ما سميتها فان اللجئة
ستطلب حضورها للاستجواب ، وفزعت من فكرة اقحامها
بين وشايات الاشرار الكريهة ، واستدعائها لمواجهتهم
وجها لوجه ، وشلتنى هذه الفكرة المفزعة حتى اخذت
ارتبك واتلعثم فى كلامى .

وكان القاضيان يبدوان ، كما خيل لى ، انهما
يصفيان الى ردودى ببعض الرضى ، فلما رايا ارتباكى

عادة الى تعاملهما على . وطلب ضابط الحرس ان اواجه المبلغ الرئيسي وجها لوجه . امر الجنرال باحضار شريير الالمس . التفت الى الباب بفضول حى ، منتظرا ظهور متهمى . وبعد بضع دقائق قرقرت سلاسل ، وفتح الباب ، ودخل . . . شفابرين . ذهلت لتغيره . فقد كان نحىلا شاحبا الى درجة مريعة ، وشعره الذى كان قبل حين اسود كالقطران قد ابيض تماما ، واسترسلت لحيته الطويلة خصلات . كرر تهمة بصوت ضعيف ، ولكنه جرى . فادعى بان بوغاتشوف ارسلنى الى اورنبورغ جاسوسا له ، فكنت اخرج كل يوم للمناوشات لانقل معلومات مكتوبة عن كل ما كان يحدث فى المدينة ، واخيرا انتميت الى الدعى جهارا ، وتنقلت معه من قلعة الى اخرى ، ساعيا بكل وسيلة الى تحطيم رفاقه الذين خانوا معه لاجل محلهم ، واستفيد من الهبات التى يوزعها الدعى . اصغيت اليه صامتا . كنت راضيا من شىء واحد وهو ان هذا الجانى المقيت لم يتفوه باسم ماريا ايفانوفنا . فهل كان ذلك لان عزة نفسه كانت تشقى لدى ذكر الفتاة التى رفضته مزدرية ، ام لان قلبه كان يكمن شرارة فى تلك العاطفة التى حملتنى انا ايضا على الصمت . ومهما يكن من شىء فان اسم ابنة آمر بيلوغورسك لم يذكر امام اللجنة . وجعلنى ذلك اشد تصميميا على ما عزمتم عليه ، وعندما سألنى القاضيان بم استطيع دحض اقوال شفابرين ، اجبت باننى باق على توضيحي الاول ، واننى لا استطيع ان اقدم شيئا آخر لتبرير نفسى . امر الجنرال باخراجنا . خرجنا سوية . نظرت الى شفابرين

بهدهو ، ولكن لم اقل له كلمة . فضحك ضحكة هازنة
حاقدة ، ورفع قيوده ، وحث خطاه وسبقني . اعادوني
الى السجن ، ومنذ ذلك الحين لم يستدعوني
للاستجواب .

وما سأرويهِ للقارىء بعد الآن لم اشهده بنفسى
بل سمعته كثيرا حتى نقشت ادق تفاصيله في ذاكرتى ،
بل ويبدو لى وكأننى كنت شاهدا غير مرئى فيه .
استقبل والداى ماريا ايفانوفنا بالفرح الصادق
الذى امتاز به اناس الزمن القديم . ورايا نعمة الهية
تسنع لهما في ايوانهما يتيمة مسكينة وشمولها
بعطفهما . وسرعان ما تعلقا بها عن اخلاص ، لانه من
المستحيل على المرء ان يعرفها ولا يحبها . ولم يعد
حبنى في عينى والدى صبوة فارغة ، بينما كانت والدتى
لا تود الا ان يتزوج ولدها ببيترا ابنة الامر الحبيبة .
اذهل نبا اعتقالى عائلتى بأسرها . وقد حكى ماريا
ايفانوفنا لوالدى قصة تعارفى الغريبة مع بوغاتشوف ،
ببساطة كبيرة لم تشعر والدى بأى قلق علىّ ، بل
حملتهما مرارا على الضحك من اعماق قلب صاف .
لم يرد ابى ان يصدق بان من الممكن ان اتورط في
عصيان يهدف الى الاطاحة بالعرش ، والقضاء على فئة
النبلاء . فاستجوب سافيليتش استجابا دقيقا . لم
يخف العربى ان السيد كان في ضيافة بوغاتشوف ،
وان الشرير احبه على اية حال ، الا انه اقسم على انه
لم يسمع بخيانتة قط .. هدا روع العجوزين ، واخذا
ينتظران الاخبار السارة بنفاد صبر . وقلقت ماريا

ايفانوفنا على قلقا شديدا ، الا انها صمتت ، لما جبلت عليه من تواضع وحذر الى درجة عالية .

مضت عدة اسابيع . . . وفجأة يتلقى والدى رسالة من بطرسبورغ مرسلة من قريبنا الامير «ب» . يكتب فيها عنى ويعلن له بعد الديباجة المألوفة ، ان الشكوك بخصوص اشتراكى فى خطط العصاة قد ثبتت تماما مع الاسف ، وان الاعدام كان سينفذ فى ، لو لا ان الامبراطورة احتراما لخدمات ابي وشيخوخته قررت العطف على الابن المجرم ، وامرت باستبدال الاعدام المشين بالنفى المؤبد الى اقليم ناء فى سيبيريا .

كادت هذه الصدمة المفاجئة ان تودى بابى . فقد توازنه المعتاد ، وطفح حزنه (الذى كان حزنا اخرس فى العادة) ، ففاض بشكاوى مريرة . فكان يكرر خارجا عن اطواره : «كيف ! ابنى اشترك فى خطط بوغاتشوف ! يا آلهى العادل ، الى هذا الحد بلغ بى العمر ! الامبراطورة تنقذه من الاعدام ! وهل ذلك يخفف من بلواى ؟ ليس الاعدام مخيفا ، فان جدى الاكبر مات على منصة الاعدام مدافعا عما كان يعتبره مقدسا فى ضميره ، وعذب ابي مع فولنسكى وخروشوف * . اما ان ينكث نبيل بيمينه ، وينضم الى لصوص ، الى

* ارتيمى فولنسكى ، وزير حكومة الامبراطورة آنا يوهانوفنا (١٧٣٠-١٧٤٠) ترأس المؤامرة ضد بيرون محسوب الامبراطورة وهو اشد الماجورين الاجانب كراهية فى روسيا .

اندرىه خروشوف ، مستشار مصلحة الاسطول ، واحد المشتركين فى مؤامرة فولنسكى ، وقد اعدم معه . (الناشر .)

سفاكين ، الى عبيد آبقين ، فان ذلك عار وشنار
لعشيرتنا كلها ! . . » ولم تجرؤ امي التي افزعها قنوطه
على ان تبكي امامه ، وحاولت ان تعيد اليه بشاشته
متحدثة عن كذب الشائعات ، وعن تذبذب آراء الناس .
ولم يجد ابي السلوى في ذلك .

وكانت ماريا ايفانوفنا تتعذب اكثر من الجميع .
كانت واثقة من اننى كنت قادرا على تبرير نفسى لو
اردت ، فجعلها ذلك تحدى الحقيقة وتعتبر نفسها
ملومة في بلواى . كانت تخفى دموعها وآلامها عن
الجميع ، دون ان تكف ، في الوقت ذاته ، عن التفكير
في الوسائل التي تنقذنى .

ذات مساء كان ابي جالسا على الارىكة يتصفح
حولية البلاط ، الا ان فكره كان بعيدا ، فلم تترك
القراءة فيه اثرها المألوف . وكان يصفر لعنا عسكريا
قديما ، وكانت امي تحيك قميصا من الصوف وهى
صامتة والدموع تقطر على حياكتها بين الحين والآخر .
وكانت ماريا ايفانوفنا تجلس هنا ايضا وراء تطريزها
فاذا هى تعلن فجأة بانها مضطرة الى السفر الى
بترسبورغ ، وهى ترجو مساعدتهما في الاعداد للسفر .
اغتمت امي كثيرا وقالت لها : « ما حاجتك للسفر الى
بترسبورغ ؟ اتريدين ان تتركينا انت ايضا ؟ » اجابت
ماريا ايفانوفنا بان مستقبلها كله متعلق على هذه
الرحلة ، وانها ذاهبة للبحث عن الحماية والعون بين
ذوى النفوذ ، بوصفها ابنة رجل وقع ضحية في سبيل
ولائه .

اطرق ابي براسه ، فقد كانت ترهقه اية كلمة

تذكر بجريمة ابنه الوهمية ، وتبدو له مثل تعنيف
واخز . قال لها بحسرة : «سافرى ، يا عزيزتى !
فنحن لا نريد ان نقف في طريق سعادتك . عسى الله ان
يكتب لك زوجا طيبا ، لا خائنا مفضوحا» . ونهض
وخرج من الغرفة .

بقيت ماريا ايفانوفنا وحدها مع امي ، فاوضحت لها
بعض آرائها . عانقتها امي والدموع تنهر من عينيها ،
ودعت الله ان يتوج باليمن ما عزمت عليه . جهزت
ماريا ايفانوفنا بما يلزمها من الثياب ، وبعد عدة ايام
سافرت مع خادمتها المخلصة بالاشا ، وسافيليتش
الامين الذى كان ، وقد انفصل عنى لاسباب قاهرة ،
يجد السلوان ، على اقل تقدير ، في خدمة زوجتى
المقبلة .

وصلت ماريا ايفانوفنا الى صوفيا بسلام ، وعلمت
من محطة البريد ان البلاط موجود في مدينة تسارسكويه
سيلو في ذلك الوقت ، فقررت التوقف فيها . افرد لها
ركن مفصول بحاجز . ودخلت زوجة ناظر المحطة في
حديث معها على الفور . فاخبرتها بانها ابنة اخي وقاد
البلاط ، وكشفت لها عن جميع اسرار الحياة في البلاط .
فذكرت لها الساعة التى تستيقظ الامبراطورة فيها
عادة ، ومتى تحتسى القهوة ، ومتى تتنزه ، وسمت لها
رجال العاشية الذين يكونون معها في ذلك الوقت ، وما
قالته على مائدتها بالامس ، ومن استقبلته في المساء .
وباختصار كان من الممكن ان يملا حديث آنا فلاسيفنا
هذه بضع صفحات من كتب التاريخ ، وان يكون ثمينا
للاحفاد . اصغت ماريا ايفانوفنا لها باهتمام . وخرجت

المراتان الى الحديقة ، فحكّت لها آنا فلاسيفنا تاريخ كل
ممر معرش وكل قنطرة ، وبعد ان اخذتا حظهما من
النزهة عادتا الى المحطة ، وقد رضيت احدهما عن
الآخرى كثيرا .

في اليوم التالي استيقظت ماريا ايفانوفنا في الصباح
الباكر ، ولبست ثيابها ، وانسلت بهدوء الى الحديقة .
كان الصباح رائعا ، والشمس تشرق على ذرى اشجار
الزيتون المصفرة بانفاس الخريف الطرية . وكانت
البحيرة الواسعة تلمع ساكنة الاديم ، والبجع
المستيقظ يخرج بمهابة من تحت الاحراش التي غطت
الشاطئ . سارت ماريا ايفانوفنا بالقرب من مرجة
بديعة اقيم عليها قبل حين نصب تذكاري تكريما
لانتصارات الكونت بيتر الكسندروفيتش
روميانتسيف * . وفجأة نبحت كلبة بيضاء من نسل
انجليزي ، وركضت نحوها . ذعرت ماريا ايفانوفنا ،
وتوقفت . في تلك اللحظة صدر صوت نسائي عذب :
«لا تخافي ، فانها لا تعض» . ورات ماريا ايفانوفنا سيدة
جالسة على مصطبة مقابل النصب التذكاري . جلست
ماريا ايفانوفنا على الطرف الثاني من المصطبة . نظرت
السيدة اليها متفرسة بها ، بينما اقلت ماريا ايفانوفنا
من ناحيتها عدة نظرات جانبية على السيدة . واستطاعت
ان تتفحصها من الراس حتى القدم . كانت السيدة
ترتدي ثوبا ابيض للصباح ، وقلنسوة ليلية ،

* من اكبر قادة روسيا العسكريين في القرن ١٨٨٠ .

وسترة . وكانت تبدو في نحو الاربعين من العمر . وكان وجهها الممتلىء المتورد يشع مهابة ورسانة ، بينما كانت لعينيها الزرقاوين وابتسامتها الخفيفة فتنة لا توصف . بادرت السيدة بقطع الصمت حين قالت :

- لست من هذه الناحية ، على ما يبدو .
- بالضبط . وصلت بالامس فقط من الريف .
- هل وصلت مع والديك ؟
- لا ، بل وحدي .
- وحدك ! ولكنك ما زلت فتية .
- ليس لي اب ولا ام .
- لا بد انك جنت تسعين في امر من الامور ؟
- بالضبط . جنت لارفع التماسا الى الامبراطورة .
- انت يتيمة ، لعلك جنت تشتكين من ضيم واساءة ؟

- لا . بل جنت التمس عفوا لا رفع ضيم .
- هل تسمحين لي ان اسال : من انت ؟
- انا ابنة النقيب ميرونوف .
- النقيب ميرونوف ! هو الذي كان آمرا لقلعة من قلاع اورنبورغ ؟
- تماما .

وبدا التأثير على السيدة . قالت بصوت اكثر رقة :
«اعذريني اذا تدخلت في امورك ، ولكنني ازور البلاط احيانا فاشرح لي التماسك ، لعل استطيع مساعدتك» . نهضت ماريا ايفانوفنا ، وشكرتها باحترام . وكان كل ما في السيدة المجهولة ياسر قلبها دون ان تدري ، ويوحى بالثقة . اخرجت ماريا ايفانوفنا من جيبها ورقة

مطوية ، وقدمتها للسيدة المجهولة التي عرضت عليها
حمايتها . فاخذت هذه تقرؤها في سرها .

في البداية لاح عليها الاهتمام والعطف وهي تقرا ،
الا ان وجهها تغير فجأة ، وكانت ماريا ايفانوفنا تتابع
بعينها كل حركاتها فافزعها التعبير الصارم الذي ارتسم
على وجهها ، الذي كان قبل لحظة لطيفا جدا ورائعا .
قالت السيدة ببرود :

- تطلبين العفو عن غرينيف ؟ لن تستطيع
الامبراطورة ان تعفو عنه . فانه لم ينضم الى الدعى عن
جهل وسرعة تصديق ، بل لانه عاطل خبيث لا خلاق له .
هتفت ماريا ايفانوفنا :

- هذا غير صحيح !

فاعترضت السيدة محتدة بكل كيائها :

- غير صحيح ؟

- غير صحيح ، قسما بالرب ! انا اعرف كل
شئ ، وسارويه لك . انه من اجلى فقط تعرض لكل
ما لقيه . واذا كان لم يبرر نفسه امام المحكمة فلانه
لم يرد ان يشركنى فى القضية لا غير .

واخذت تقصر بحرارة كل ما يعرفه قارى هذا
الكتاب .

اصغت السيدة اليها بانتباه . وسالتهما : « اين
تقيمين ؟ » وحين سمعت انها تقيم عند آنا فلاسيفنا ،
قالت مبتسمة : « آ ، اعرفها . وداعا ، ولا تخبرى احدا
عن لقائنا . وآمل الا يطيل انتظارك لجواب رسالتك » .
وبهذه الكلمة نهضت السيدة ، ودخلت في ممر

مسقوف . بينما عادت ماريا ايفانوفنا الى آنا فلاسيفنا
يعمر قلبها امل بهيج .

لامتها صاحبة البيت على خروجها مبكرا في نزهة في
الخريف قد تضر ، على حد قولها ، بصحة فتاة في مقتبل
العمر . وجلبت السماور وما كادت تدخل في احاديثها
الطويلة عن البلاط وامامها قدح من الشاي حتى توقفت
عربة من عربات البلاط عند مدخل بيتها . ودخل
وصيف من وصفاء البلاط معلنا ان القيصرة تدعو اليها
ابنة ميرونوف .

انذهلت آنا فلاسيفنا ، وراحت وجاءت ، وصاحت :
«يا آلهي ! القيصرة تدعوك الى البلاط . فكيف عرفت
بك ؟ وكيف ستمثلين ، يا عزيزتي ، امام الامبراطورة ؟
اظن انك لا تعرفين مراسيم البلاط . . . فهل على ان
اذهب معك ؟ فقد اكون نافعة لك في تنبيهك الى بعض
الامور . وكيف ستنهين في ثياب السفر ؟ وهل
سارسل الى القابلة اطلب منها ثوبها الاصفر ؟» اعلن
الوصيف ان الامبراطورة تريد ان تحضر ماريا ايفانوفنا
وحدها ، وفي الهيئة التي وجدت فيها . فقطع ذلك كل
تدبير آخر . ركبت ماريا ايفانوفنا العربة ، ومضت الى
البلاط ومعها نصائح آنا فلاسيفنا وتبريكاتها .

استشعرت ماريا ايفانوفنا ان مصيرنا منوط بهذه
المقابلة ، فكان قلبها يخفق خفقانا شديدا تارة ، ويجمد
تارة اخرى . وبعد بضع دقائق توقفت العربة عند
القصر . ارتقت ماريا ايفانوفنا السلم مرتجفة . كانت
الابواب تفتح امامها على مصاريعها . مرت بصف كبير
من الغرف الفاخرة الفارغة . وكان الوصيف يدلها على

الطريق . واخيرا وصلت الى باب مغلق . اعلن لها الوصيف انه سيبلغ الآن بقدمها ، وتركها وحدها . اربعها التصور بانها سترى الامبراطورة وجها لوجه ، فكانت لا تكاد تقف على قدميها . بعد دقيقة فتح الباب ، ودخلت الى غرفة زينة القيصرية .

كانت الامبراطورة تجلس الى زينتها . وكان بعض العاشية يحيطون بها ، وقد فسحوا باحترام الطريق لماريا ايفانوفنا . التفتت القيصرية اليها في حنان ، واذا بماريا ايفانوفنا تعرف في شخصها تلك السيدة التي كاشفتها قصتها قبل دقائق . دعته الامبراطورة اليها ، وقالت لها مبتسمة : «انا سعيدة في ان اكون عند عهدي لك ، واحقق رجاءك . ان قضيتك قد انتهت . فقد اقتنعت ببراءة خطيبك . وهذه رسالة احمليها بنفسك الى حميك المقبل» .

تناولت ماريا ايفانوفنا الرسالة بيد راعشة ، وانفجرت باكية ، وارتمت على قدمي الامبراطورة ، فرفعت الامبراطورة وقبلتها . وتحدثت اليها قائلة : «انا اعرف انك لست بالغنية . الا اننى مدينة الى ابنة الامر ميرونوف . فلا تقلقى على المستقبل وساتعهد بتوفير حياة رغيدة لك» .

داعبت القيصرية اليتيمة المسكينه ثم اذنت بانصرافها . غادرت ماريا ايفانوفنا في نفس عربة البلاط التي جاءت فيها . كانت آنا فلاسيفنا تنتظر عودتها بفارغ صبر . وحين راتها امطرتها باسئلة ردت عليها ماريا ايفانوفنا بما عن لها . ورغم ان آنا فلاسيفنا لم تكن راضية عن ذهولها ، الا انها عزت ذلك الى خجل

فتيات الريف ، وتعذرت لها بطيبة نفس . وفي نفس اليوم سافرت ماريا ايفانوفنا الى الضيعة دون ان تمتع بصرها ببطرسبورغ . . .

الى هنا تنتهي مذكرات بيتر اندريفيتش غرينيف . وتذكر روايات العائلة ان الابن قد اطلق سراحه في نهاية ١٧٧٤ بموجب عفو خاص ، وانه شهد اعدام بوغاتشوف الذي عرفه من بين الحشود ، وهز له راسه ، نفس الراس الذي عرض للشعب بعد دقيقة مقطوعا مدمى . وبعد ذلك بفترة قصيرة تزوج بيتر اندريفيتش ماريا ايفانوفنا ، واحفادهما ينعمون الآن في مقاطعة سيمبيرسك . وعلى بعد ثلاثين فرسخا من ن . . . تقع قرية يملكها عشرة من اصحاب الاطيان . وفي احد البيوت العائدة لاصحاب هذه القرية تعرض الرسالة التي كتبها الامبراطورة يكاترينا الثانية بخط يدها ، وقد وضعت في اطار تحت الزجاج . وهي الرسالة التي ارسلت الى والد بيتر اندريفيتش غرينيف تعلن براءة ابنه ، وتمتدح نباهة وطيبة ابنة الامر ميرونوف . وقد حصلنا على مخطوطة بيتر اندريفيتش من احد احفاده الذي عرف باهتمامنا بآثار الفترة التي وصفها جده . فقررنا ، بعد موافقة اقاربه ، نشرها مستقلة ، بعد ان صدرنا كل فصل بما يناسب من الاشعار والامثال ، وابحنا لنفسنا تغيير اسماء بعض الاشخاص .

الناشر .

١٩ تشرين الاول ١٨٣٦

تذييل

الفصل المحذوف •

اقتربنا من شاطئ* الفولغا ، ودخل فوجنا في قرية
س ، وتوقف ليقضى الليلة فيها . ابلغني عمدة القرية
بان جميع القرى في تلك الضفة متمردة ، وان عصابات
بوغاتشوف تطوف في كل مكان . اقلقني النبأ شديد
القلق . كان علينا ان نعبّر النهر في صباح اليوم التالي .
واستولى على الضيق . كانت ضيعة ابي تقع على بعد
ثلاثين فرسخا في ذلك الجانب من النهر . سألت عن
امكانية ايجاد قارب لعبور النهر . كان جميع الفلاحين
يصطادون الاسماك ، والقوارب كثيرة . ذهبت الى
غرينيف ، واخبرته بمقصدي . قال لي : «خذ حذرك ،
فان الخروج لوحدك خطر على اية حال . انتظر حتى
الصباح . فسنعبر اولا ، وسنرسلك لزيارة والديك
مع ٥٠ فارسا للحیطة» .
أصررت على ما اريد . واعد القارب . وصعدت اليه

* لم يدخل هذا الفصل في الصيغة النهائية او ابنة الامر
الاسباب تتعلق بالرقابة ، على ما يبدو ، وبقي في مسودة
المخطوطة ، حيث سمي بالفصل المحذوف . وفي هذا النص
يطلق على غرينيف اسم بولانين ، وعلى زورين اسم غرينيف
(راجع الفصل الثالث عشر) .

مع اثنين من المجدفين . دفع المجدفان القارب ، وضربا في المجاديف .

كانت السماء صافية ، والقمر متالفا . وكان الطقس هادئا ، ونهر الفولفا يجرى سبطا رخيا . وكان القارب يتمايل تمايلا خفيفا منزلقا على الامواج الداكنة . غرقت في احلام الخيال . ومضت نصف ساعة . وكنا قد وصلنا الى منتصف النهر وفجأة اخذ المجدفان يتهاامسان فيما بينهما . سألت وقد افقت من احلامي : «ما هو ؟» اجاب المجدفان وهما ينظران في ناحية واحدة : «لا نعرف ، الله يعلم» . ونظرت عيناي في نفس الاتجاه ، فرايت في الظلام شيئا يعوم منحدرًا في الفولفا . اقترب هذا الشيء الغامض . امرت المجدفين بان يتوقفسا ، وينتظراه . اختفى القمر وراء سحابة . وازداد الشبح العائم غموضا . وكان الآن قريبا مني الا اننى لم استطع ان اتبينه بعد . قال المجدفان : «ما عساه ان يكون . ليس هو بالشرع ، ولا بالصارية . . .» وفجأة خرج القمر من وراء السحابة ، وكشف عن منظر مريع . كانت تتقدم منا مشنقة منصوبة على رمث ، وقد تدلت من عارضتها ثلاث جثث . استحوذ على فضول مرضى . فأردت ان ارى وجوه المشنوقين .

امسك المجدفان الرمث بكلاب بناء على امرى . فارتطم قاربي بالمشنقة العائمة . قفزت خارجا اليها ، ووجدت نفسى بين القوائم الفظيعة . اضاء القمر المنير وجوه التعساء المشوهة . كان احدهم عجوزا من التشوفاش ، والآخر فلاحا روسيا شابا قويا ضخما في نحو العشرين من العمر . الا اننى نظرت الى الثالث

وصعقت بقوة ، افلنت منى صيحة اشفاق . لقد كان
ذاك فانكا ، صاحبي المسكين فانكا ، الذي انضم
لحماقته الى بوغاتشوف . وقد سمرت فوق الثلاثة
لوحة سوداء كتب عليها بحروف بيضاء كبيرة : «لصوص
ومتمردون» . كان المجدفان ينظران بحلو بال ، وهما
ينتظراننى ، ممسكين بالكلاب . عدت الى قاربى .
وعام الرمث منحدرًا فى مجرى النهر . وظلت المشنقة
تلوح طويلا فى الظلام . واختفت اخيرا ، ووصل قاربى
الى الشاطئ العالى ، الشديد الانحدار . . .

دفعت للمجدفين بسخاء . دلنى احدهم على عمدة
القرية ، الذى يقيم عند المعبر . ودخلنا بيت العمدة
سوية . وحين سمع العمدة باننى اريد خيولا استقبلنى
استقبالا شديد الفظاظه ، الا ان دليل اسر له بعض
الكلمات بهدوء ، فاذا بفظاظته تتحول الى حفاوة متلهفة .
وفى دقيقة واحدة اعدت عربة «الترويك» . فركبتها ،
وامرت بالتوجه الى قريتنا .

اندفعت العربة فى الطريق الواسع عبر قرى نائمة .
وكنت اخشى شيئا واحدا : ان اوقف فى الطريق . فاذا
كان ما شاهدته ليلا على الفولفسا دليلا على وجود
متمردين ، فقد كان ايضا دليلا على قوة التدابير المضادة
المتخذة من قبل الحكومة . وتحسبا لكل طارىء كان فى
جيبى الاذن الذى اعطاه بوغاتشوف ، وامر العقيد
غرينيف . الا اننى لم التق بأحد ، ومع طلوع الصباح
رايت النهر ، وحرش اشجار التنوب الذى تقع قريتنا
وراءه . ساط الحوذى الخيول ، وبعد ربع ساعة دخلت
القرية .

كانت دار ابي تقع في الطرف الآخر من القرية ، انطلقت الخيول بكامل اعنتها . وفجأة اخذ الحوذى يشد اعنتها في وسط الشارع . سألته نافذ الصبر : «ما هذا ؟» اجاب الحوذى وهو يوقف خيوله الجامعة بجهد : «توجد نقطة حراسة ، يا سيد» . وبالفعل نظرت فأبصرت حاجزا وحارسا مسلحا بهراوة . اقترب الحارس الفلاح مني ، وخلع قبعته ، وطلب شهادة الهوية . سألته : «ما معنى هذا ؟ لم وضع حاجز هنا ؟ ومن تحرس انت ؟» اجاب هارشا جسمه : «نحن ، يا عزيزي في تمرد» .

سألته باضطراب :

- واين اسيا دكم ؟

كرر الفلاح قائلا :

- اين اسيا دنا ؟ اسيا دنا في عنبر الغلال .

- كيف في عنبر الغلال ؟

- نعم ، وضعهم اندريوشكا من الادارة المحلية

في قيود خشبية ويريد ان يرسلهم الى مولانا القيصر .

- اوه ، يا رب ! ارفع الحاجز ، ايها الاحمق .

لماذا تنتظر ؟

تباطا الحارس . قفزت من العربية ، وضربته

(وارجو المعذرة) على اذنه ، وازحت الحاجز بنفسى .

نظر الفلاح الى بذهول بليد . ركبت العربية ثانية ،

وامرت الحوذى بالتوجه الى دار السيد . كان عنبر

الغلال يقع في الحوش . وعند بابه المغلق وقف فلاحان

بهراتين أيضا . توقفت العربية امامهما تماما . قفزت ،

واندفعت نحوهما ، وقلت : «افتح الباب ا» كان منظرى

مرعبا ، على ما يبدو . وعلى اية حال هرب الاثنان ،

بعد ان القيا هراوتيهما . حاولت كسر القفل ، وتحطيم الباب ، الا ان الباب كان من شجر البلوط ، والقفل الضخم لا يكسر . وفي تلك اللحظة خرج فلاح شاب حسن القوام من جناح الخدم ، وسألني بعجرفة : كيف تجاسرت على العربدة ؟ صرخت به : « اين اندريوشكا من الادارة المحلية ؟ ادعه الى » .

اجاب متخوصرا بانفة :

- انا اندريه افانسيفيتش ، ولست اندريوشكا بالنسبة لك . ماذا تريد ؟

وبدلا من الرد عليه امسكته من تلايبيه ، وسحبته الى باب العنبر ، وامرت ان يفتحه . عاند في البدء ، الا ان العقاب الابوي اثر فيه ايضا . اخرج مفتاحا ، وفتح العنبر . ركضت عبر العتبة ورايت في ركن مظلم يتسلل اليه ضوء خافت من خلال شق ضيق في السقف ابسى وامى . كانت ايديهما موثوقة ، وارجلهما مصفدة بقيود من خشب . اندفعت اعانقهما ، غير قادر على ان انطق بكلمة واحدة . نظر كلاهما الىّ بذهول ، فان السنوات الثلاث التي قضيتها في العسكرية قد غيرتني كثيرا ، حتى انهما لم يستطيعا ان يتعرفا علىّ . تاوهت امى ، وانهمرت دموعها .

وفجأة سمعت صوتا اليفا حبيبا : « يا بيتسر اندريفيتش ! هذا انت ! » ووقفت مصعوقا . . . نظرت في الزاوية الاخرى ماريا ايفانوفنا ، مشدودة الوثاق ايضا .

كان ابى يحدق بى صامتا ، لا تواتيه الجراة على تصديق ما يرى . وعلى وجهه لمعان الفرح . اسرعت في

تقطع جبال وثاقهم بسيفي .

قال ابي ، وهو يضمني الى قلبه :

- اهلا ، اهلا ، بيترا احمدا لله على اننا

انتظرناك . . .

وقالت امي :

- بيتر ، يا ولدي ! لقد ساقك الرب الى هنا !

هل انت في صحة ؟

اسرعت لاخرجهم من المحبس ، الا انني القيت

الباب مغلقا من جديد ، حين تقدمت منه . صرخت :

«اندريوشكا ، افتح !»

اجاب من وراء الباب : «ابدا . انحبس انت ايضا .

وسنعلمك ما تعنى العريضة وجر موظفي القيصر من

تلابيبهم !»

اخذت اعين العنبر ، باحثا عن وسيلة للانسلال .

قال لي ابي :

- لا تتعب نفسك . لست من اولئك الملاكين

الذين يدخلون ويخرجون من عنابرهم منسلين من

الجحور كاللصوص .

وغرقت امي في قنوط بعد لحظة من الفرح

بظهوري ، وقد رأت ان القدر قد ساقني لاقاسم كل

العائلة هلاكها . الا انني كنت اكثر اطمئنانا في وجودي

معها ومع ماريما ايفانوفنا . وكان معي سيفي

ومسدسان ، وكنت استطيع ان اصمد للحصار . فقد

كان يجب ان يصل غرينيف في المساء ، ويحررنا .

ابلغت ذلك كله لوالدي ، واستطعت ان اهدي والدتي .

فعادا يستسلمان كليا لفرحة اللقاء . قال لي ابي :

- يا بيتر ، في الماضي كنت شيطانا كبيرا فكم كنت غاضبا عليك . ولكن دغ الماضي للماضي . آمل ان تكون قد عدلت من سلوكك ، وتخلصت من نزواتك . انا اعرف انك خدمت ، كما ينبغي لضابط شريف ان يخدم . شكرا ، فقد سرّيت عيني ، في شيخوختي . ولو اصبحت مدينا لك بالنجاة فان مسرة حياتي ستتضاعف .

قبلت يده دامع العينين ، ونظرت الى ماريما ايفانوفنا التي غمرها الفرح بحضورى ، حتى بدت في منتهى السعادة والاطمئنان .

قرب الظهر سمعنا ضجة غير اعتيادية وصيحات . قال ابي : «ما معنى هذا ؟ هل وصل عقيدك ؟» اجبت : «غير ممكن . لن يكون هنا قبل حلول المساء» . واشتدت الضجة . ودق ناقوس الخطر . وعدا خيالة في العوش . وفي تلك اللحظة اندس راس سافيليتش الاشيب في ثغرة في الحائط ، وقال مربسى المسكين بصوت متشك : «اندريه بتروفيتش ، اقدوتيا فاسيليفنا ، يا عزيزى بيتر اندريفيتش ، عزيزتى ماريما ايفانوفنا ، مصيبة ! دخل الاشرار القرية . وهل تعرف ، يا بيتر اندريفيتش ، من كان على راسهم ؟ شفابرين ، الكسى ايفانوفيتش ، لعنة الله عليه !» رفعت ماريما ايفانوفنا ذراعها ، حين سمعت الاسم الكريه ، ووقفت بلا حراك .

قلت لسافيليتش :

- اسمع . ارسل احد الناس على حصان الى المعبر

ليستقبل فوج الفرسان ، واطلب ان يبلغ العقيد بالخطر الذي يحق بنا .

- ولكن من ارسل ، يا سيد ؟ جميع الصبيان يتمردون ، والخيول كلها قد اخذت ! يا للمصيبة ! ها هم قد دخلوا الحوش ، وسيصلون الى العنبر .

في تلك اللحظة صدرت بعض الاصوات وراء الباب . اشرت الى امي والى ماريا ايفانوفنا في صمت ان تبتعدا في ركن من الاركان ، وجردت سيفي ، واستندت الى الحائط قرب الباب مباشرة . اخذ ابي المسدسين ، ورد زناديهما ، ووقف الى جانبي . قلقل القفل ، وفتح الباب ، وظهر رأس موظف الادارة المحليسة . هويت بالسيف عليه . فسقط ، وسد المدخل بجسمه . وفي تلك اللحظة اطلق ابي المسدس في فتحة الباب . تراكض الحشد الذي كان يحاصرنا مرسلا الشتائم . جررت الجريح عبر العتبة ، واغلقت الباب بالمزلاج الداخلى . غص الحوش بالسلحين ، وقد عرفت شفايرين من بينهم .

قلت للمراتين :

- لا تخافا . هناك امل . وانت يا ابتي ، لا تطلق النار بعد الآن . لنحرص على الذخيرة الاخيرة .

كانت والدتي تصلى للرب ، وماريا ايفانوفنا واقفة بالقرب منها ، منتظرة حكم القدر بهدوء ، ملائكي . صدرت من وراء الباب تهديدات ، وسباب ولعنات . بقيت في مكاني ، متهينسا لظعن اول متجاسر . وفجأة صمت الاشرار . سمعت صوت شفايرين يناديني باسمي .

- انا هنا ، فماذا تريد ؟

- استسلم ، يا بولانين ، فان المقاومة لا تجديك

نعمًا . اشفق على والديك العجوزين . انت لن تنقدهما
بعنادك . ساريكم .

- حاول ، ايها الخائن !

- لا انوى الخوض بالتوافه ، ولا اهدر دم رجالي .
سامر بحرق العنبر ، وعند ذاك ساعرف ماذا ستفعل ،
يا دون كيشوت من بيلوغورسك . الآن حان وقت
الغداء . عندك الآن فراغ للتفكير . الى اللقاء ، يا ماريما
ايفانوفنا ، لن اعتذر لك ، لا اظنك ضجرة في الجلوس
في الظلام مع فارس احلامك .

انصرف شفايرين تاركا الحرس عند العنبر . لزمننا
الصمت . وامتد الصمت . كان كل واحد منا يفكر مع
نفسه ، دون ان يجرؤ على الاقضاء بافكاره للآخرين .
تصورت لنفسي كسل ما سيحدث لو استسلمنا الى
شفايرين الحاقد . انا لم اكن اهتم بنفسي تقريبا .
واعترف باننى لم افزع لمصير والدى قدر فزعى
على مصير ماريما ايفانوفنا . كنت اعرف ان الفلاحين
والخدم كانوا يحترمون امي الى حد العبادة ، كما ان ابي
كان محبوبا ايضا ، رغم صرامته ، لانه كان عادلا
وعارفا بالاحتياجات الحقيقية لرعاياه . كان عصيانهم
تضليلا وسكرة عابرة ، وليس اعلانا عن استيائهم .
فالرافة في هذه الحال محتملة . ولكن ماريما ايفانوفنا ؟
اي مصير اعد لها ذلك الرجل العابت المعدوم الضمير ؟
لم اجرؤ على التوقف على هذه الفكرة المريعة ، وكنت
مستعدا (غفرانك يا رب) الى ان اقتلها قبل ان اراها
ثانية في قبضة عدو فظ .

مضت ساعة اخرى تقريبا . وترددت في القرية الغامني

السكرارى . وحسدهم حراسنا ، وافرغوا نقتهم علينا
شتائم ووعيدا بالتعذيب والموت . وانتظرنا نتيجة
تهديدات شفابرين . واخيرا حدث ضجة كبيرة في
الحوش ، وسمعنا صوت شفابرين مرة اخرى .
- هل انتهيت الى شىء ؟ هل ستستسلمون لى
طائمين ؟

لم يجبه احد . انتظر شفابرين برهة ، ثم امر بجلب
القش . وبعد بضع دقائق شبت نار ، واضاءت العنبر
المظلم ، وبدا الدخان يتسلل عبر الفتحات عند العتبة .
دنت ماريا ايفانوفنا منى ، وامسكت يدي ، وقالت
بخفوت :

- كفى ، يا بيتر اندريفيتش ! لا يجوز ان تقتل
نفسك ووالديك من اجلى . دعنى اخرج من هنا .
سيطيعنى شفابرين .
صرخت بغضب :

- مستحيل ! اتعرفين ماذا ينتظرك ؟
اجابت هادئة :

- لن اتحمل العار . ولكن قد انقذ الرجل الذى
انقذنى ، والعائلة التى تعهدت يمتى البائس بتلك
الرعاية . وداعا ، يا اندريه بتروفيتش . وداعا ، يا
افدوتيا فاسيليفنا . لقد كنتما لى اكثر من محسنين .
باركانى . واعذرنى ، انت ايضا ، يا بيتر
اندريفيتش . . . كن على ثقة باننى . . . اننى - وهنا
انفجرت باكية . غطت وجهها بيديها . . . استبدت بى
الجنون . اجهشت امرى باكية . وقال والدى :
- كفى هراء ، يا ماريا ايفانوفنا . من يترك

وحدك الى اللصوص ؟ اجلسى هنا واصمتى . اذا متنا ،
فلنمت سوية . اسمعوا ، ماذا يقولون ايضا ؟
صاح شفايرين :

- هل تستسلمون ؟ ستحرقون بعد خمس دقائق .
رد ابي عليه بصوت صلب :

- لن نستسلم ، ايها الشرير .
وشعت من وجهه المغطى بالتجاعيد حيوية مذهلة ،
وبرقت عيناه ببريق الوعيد من تحت حاجبيه الاشيبين .
وتحول الى ، وقال :
- آن الاوان .

فتح الباب . فاندفعت النار ، ونشبت بالروافد
المبطنة بصوفة جافة . اطلق ابي النار من المسدس ،
وتخطى العتبة الملتهبة ، صارخا : «الجميع ورائى !» .
امسكت يد امي ويد ماريا ايفانوفنا ، واخرجتهما سريعا
الى الهواء . كان شفايرين ممتددا عند العتبة وقد
جرحته يد ابي الواهنة . كان حشد اللصوص قد تفرق
ماخوذاً بخروجنا المفاجئ ، الا انه ما لبث ان تشجع ،
وبدا يطوقنا . استطعت ان اوجه بعض الضربات
الاخري ، الا ان آجرة قذفت باحكام اصابت صدري .
سقطت وفقدت الوعي لحظات . ولما افقت رايت شفايرين
جالسا على العشب المدمى ، وامامه كل افراد عائلتي .
كان بعض الناس يسندنى من ابطى . وقد احلق بنا
حشد من الفلاحين والقوزاق والباشكيريين . كان
شفايرين ممتقما بشكل رهيب ، يضغط على جنبه
الجريح بيد واحدة ، ويعكس وجهه العذاب والفل .

رفع راسه ببطء ، ونظر الى ، ونطق بصوت ضعيف غير مفهوم :

- اشنقوه والجميع . . . ما عداها
وفي الحال احاط الاشرار بنا وجرونا الى البوابة صارخين . ولكنهم تركونا فجأة ، وتفرقوا متراكضين .
فقد دخل غرينيف ووراءه كوكبة من الفرسان شاهري السيف .

اخذ المتمردون يتشتتون في كل الجهات . وراح الفرسان يطاردونهم ، يفتكون ببعضهم ، ويأسرون آخرين . قفز غرينيف من على جواده ، وانحنى لابي وامى ، وصافحنسى . ثم قال لنا : «جئت في الوقت المناسب . ها ! وهذه خطيبتك» . احمرت ماريسا ايفانوفنا حتى اذنيها . تقدم ابي منه ، وشكره بلهجة هادئة ولكنها متأثرة . وعانقته امى ، ودعته بالملك المنقذ .. وقال له ابي : «تكرموا بقبول ضيافتنا» . وقاده الى بيتنا .

توقف غرينيف حين مر بشفايرين ، ونظر اليه وسأل : «من هذا الجريح ؟» . فاجاب ابي بشيء من الانفة الكاشفة عن محارب قديم : «انه الرئيس نفسه ، شيخ العصاة . اعان الله يدي الضعيفة لتعاقب هذا الشرير ، وتنتقم منه لدم ولدى المهدور» .
قلت لغرينيف :

- انه شفايرين .
- شفايرين ! سعيد جدا . يا فرسان ! خذوه !
وقولوا لطبيبنا ان يضمه جرحه ، ويحرص عليه حرصه على حدقة عينيه . ينبغي ان يرسل شفايرين

حتما الى لجنة قازان السريية . انه احد المجرمين
الرئيسيين ، ولا بد ان تكون شهادته مهمة .
نظر شفايرين نظرة تعبة ولم يعبر وجهه الا عن
الالم الجسدى . حمله الفرسان على معطف .

دخلنا غرف الدار . نظرت حولى تملكنى الرعشة
وانا اذكر سنوات صباى . لم يتغير شىء فى الدار
وكان كل شىء فى مكانه . لم يسمع شفايرين بنهيه ،
محافظة وهو فى درك سفالته نفوره الفريزى من الطمع
المفضوح . وظهر الخدم فى الغرفة الامامية . ولم يكونوا
قد اشتركوا فى التمرد ، فسروا بنجاتنا بقلوب صادقة .
وكان سافيليتش يتهلل بشرا . وينبى ان اذكر ان
سافيليتش ركض الى مربط الخيول اثناء الهرج الذى
اثاره هجوم اللصوص ، وكان حصان شفايرين هناك ،
فاسرجه ، واخرجه بهدوء ، واغتمم الفوضى الساندة
فتوجه الى المعبر دون ان يلحظ . وقد التقى بالفوج
الذى كان يستريح بعد ان عبر الفولفا الى هذا الضفة .
ولما عرف غرينيف منه ان الخطر يحلق بنا ، امر بشد
السروج على الخيول ، والتوجه الينا بعدو سريع ، وقد
وصل ، والحمد لله ، فى الوقت المناسب .

اصر غرينيف على ان يعلق راس موظف
الادارة المحلية على عمود قرب الحانة خلال بضع
ساعات .

عاد الفرسان من مطاردتهم آسرين معهم عدة
اشخاص ، حبسوهم فى نفس العنبر الذى صمدنا فيه
للحصار المشهود .

تفرق كل واحد منا الى غرفته . وكان المعجوزان

بحاجة الى راحة . وارتيمت انا على سريري ، وقد امضيت
البارحة ساهرا ، وغرقت في نوم عميق . وخرج غرينيف
ليصدر اوامره .

وفي المساء اجتمعنا حول السماور في غرفة الاستقبال
متحدثين بمرح عن الخطر الذي زال . صبت ماريسا
ايغانوفنا الشاي . جلست الى جانبها منشغلا بها
وحدها . تبين ان والديّ ينظران بعطف الى امارات
الحنان في علاقتنا . وما يزال ذلك المساء عالقا في
ذاكرتي حتى الآن . كنت سعيدا ، في منتهى السعادة .
وهل في حياة الانسان البائسة الكثير من مثل هذه
اللحظات ؟

وفي اليوم التالي اخبروا والدي بان الفلاحين جاءوا
الى الحوش معلنين الطاعة . خرج ابي الى مدخل الدار
ليقابلهم . وعند ظهوره اخذ الفلاحون يركعون على
ركبهم . قال لهم :

- يا حمقى ، ما الذي جعلكم تمردون ؟

ردوا في صوت واحد :

- مذنبون ، يا سيد .

- مذنبون ! يعبثون ثم ياتون مستغفرين . ساعفو

عنكم فرحة بما منّ الله علىّ بلقائي بابني بيتر
اندريفيتش . حسنا ، من كفر عن سيئاته سلم من حد
السيف . مذنبون ! طبعا انتم مذنبون . الله اعطانا
طقسا حسنا كان ينبغى ان يحصد العشب فيه . فماذا
فعلتم خلال الايام الثلاثة ، ايها الحمقى ؟ يا عمدة ،
ارسل الجميع الى حصد العشب ، واحرص ، ايها

الشیطان الاصب ، علی ان یكون العشب مکوما قبل حلول عید یوحنا . انصرفوا .
انحنى الفلاحون ، ومضوا الى عملهم وكان شینا لم یحصل .

ظهر ان جرح شفابرين غیر قاتل . فارسل الى قازان تحت الحراسة . رایتهم من النافذة یضعونه فی العربة . وقد التقت نظراتنا ، فاطرق براسه ، بینما اسرعت فی الابتعاد عن النافذة : خشیت ان اظهر تشمتی بعدو مذلول تعیس .

كان علی غرینیف ان یواصل السیر . عزمت علی ان اتابعه ، رغم رغبتی فی البقاء بضعة ایام اخرى بین عائلتی . فی عشية الرحیل ذهبت الى والدی ، وركعت علی قدمیهما ، علی عادة ذلك العصر ، طالبا منهما مباركة زواجی بماریا ایفانوفنا . انهضنی شیخای ، واعلنا عن موافقتهما بدموع الفرح . جنت بماریا ایفانوفنا لیهما ، وهی شاحبة ترتجف . فباركانا . . . وانا لا ارید ان اصف ما شعرت به آنئذ . فمن كان فی وضعی سیفهمنی دون حاجة الى وصف ، ومن لم یکن فلا یسعی الا الاشفاق علیه ، ونصحہ بان یعشق ، ما دام الاوان لم یفت ، وان یحظى بمباركة والديه .

استعد الفوج فی الیوم التالی للسیر . توادع غرینیف مع عائلتی . وكنا جمیعا علی ثقة بان العمليات العسكرية ستنتهی عاجلا ، وكنت آمل بان اکون زوجا بعد شهر . قبلتني ماریا ایفانوفنا امام الجمیع ، وهی تودعنی . امتطیت صهوة جوادى . وسار سافیلیتش ورائی مرة اخرى . وتحرك الفوج .

ظللت وقتا طويلا انظر من بعيد الى بيتي الريفى
الذى اهجره مرة اخرى . وانتابتنى هواجس كئيبة .
وكان شخصا يهمس لى بان الغيب يضم لى مصائب
اخرى . كان قلبى يتوجس عاصفة جديدة .

لا اريد ان اصف مسيرتنا ، ونهاية الحرب ضد
بوغاتشوف . لقد مررنا خلال قرى خربها رجال
بوغاتشوف وانتزعنا ، طوعا او كراهية ، من اهلها
البائسين كل ما بقى لهم بعد نهب اللصوص .

كان هؤلاء ، لا يعرفون من يطيعون . فان الادارة لم
تبق فى اى مكان . واختبا اصحاب الاراضى فى الغابات .
وعانت عصابات اللصوص فى كل ناحية . وكان رؤساء
بعض الكتائب المرسله لمطاردة بوغاتشوف الذى توجه
فى فراره الى آسترخان فى ذلك الحين يعاقبون ، على
هواهم ، المذنبين والابرياء على حد سواء . . . وتردت
الى درجة مريئة حالة الاقليم الذى تفشى الحريق فى
ارجائه . عسى الله الا يرينا عصيانا روسيا لا معنى
له ، ولا رحمة فيه . ان الذين يدبرون مختلف
الانقلابات عندنا اما انهم شبان لا يعرفون شعبنا ، او
اناس قساة القلوب لا يهتمون البتة بخسارة رؤوسهم
او رؤوس الآخرين .

هرب بوغاتشوف يطارده ايفان ايفانوفيتش
ميخلسون . وبعد وقت قصير علمنا باندحاره التام .
واخيرا تلقى غرينيف من قائده نبأ القبض على الدعى ،
ومعه امر بالتوقف . وسنحت لى الفرصة اخيرا للسفر
الى قرىتى . كنت فى غبطة شديدة ، الا ان شعورا غريبا
عكر غبطتى .

ملاحظات

الشاعر الروسي العظيم الكسندر سيرغيفيتش بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) مفخرة الادب العالمي كله ، لا الروسي وحده .

بوشكين شاعر قبل كل شيء ، الا انه ابداع نثرا فريدا في كماله .

ويتميز اسلوب بوشكين بالوضوح المتناهي ، وايجاز العبارة ودقتها ، وخلوه من كل تزاويق الاستعارة والتشبيه والالتزام بسرعة تطور الحكمة . لقد كتب بوشكين : «الدقة والايجاز هما فضيلتا النثر الاولوان . فهو يتطلب المزيد والمزيد من الافكار التي لا تغنى عنها اية تعابير زاهية» .

كان بوشكين المصلح العظيم للادب الروسي مؤسس النثر الواقعي .

قصص المرحوم ايفان بتروفيتش بيلكين

كتب بوشكين «قصص بيلكين» في خريف عام ١٨٣٠ . وهو شاعر ناضج اعترف العالم بعبقريته . انها اعماله النثرية الاولى ، وقد نشرها في تشرين الثاني ١٨٣١ باسم بيلكين ، ولكنها صدرت عام ١٨٣٤ تحت اسمه الكامل .

دوبروفسكى

بدأ بوشكين العمل في هذه الرواية في ٢١ تشرين الاول ١٨٣٢ ، وقد ذيلت آخر فقرة منها بتاريخ ٦ شباط ١٨٣٣ .

ولم تنشر الرواية الا في عام ١٨٤١ بعد مقتل كاتبها الفاجع (١٨٣٧) في طبعة مؤلفاته بعد وفاته .
حظيت «دوبروفسكى» بتقدير عال في النقد الروسى .
فقد كتب الناقد الروسى العظيم ومعاصر بوشكين فيساريون بيلينسكى : «انها من اعظم ابداعات عبقرية بوشكين» .

ابنة الامر

كان موضوع الانتفاضات الفلاحية يقلق بوشكين منذ بداية الثلاثينات . وقد اتجه فكر بوشكين ، وهو يتأمل في هذا الموضوع ، الى انتفاضة اميليان بوغاتشيف (١٧٤٤-١٧٧٥) .

ويدرس بوشكين مواد الارشيف ، ويسافر الى الاماكن التى شملتها الانتفاضة ، ويتحدث الى شهود عيان ، وفي نفس الوقت كان يعمل في روايته التاريخية «ابنة الامر» والمؤلف التاريخى «تاريخ تمرد بوغاتشيف» .

فرغ بوشكين من الرواية في خريف ١٨٣٦ .
كان الكاتب الروسى العظيم نيقولاى غوغول (١٨٥٢-١٨٠٩) يعتبر «ابنة الامر» افضل عمل من النوع القصصى . كان يقول ان «النقاء والخلو من التصنع ارتفعا فيها الى اسمى درجة ، حتى ان الواقع نفسه يبدو متصنعا وكاريكاتوريا» .

١٤	عاصمه بنجيه .
٥٣	صانع التواييت .
٦٤	ناظر المحطة .
٨١	ابنة السيد - الفلاحة .
١٠٩	دوبروفسكى (ترجمة ابوبكر يوسف)
٢١٩	ابنة الامر (ترجمة غائب طعمة فرمان)
٣٩٧	ملاحظات .

